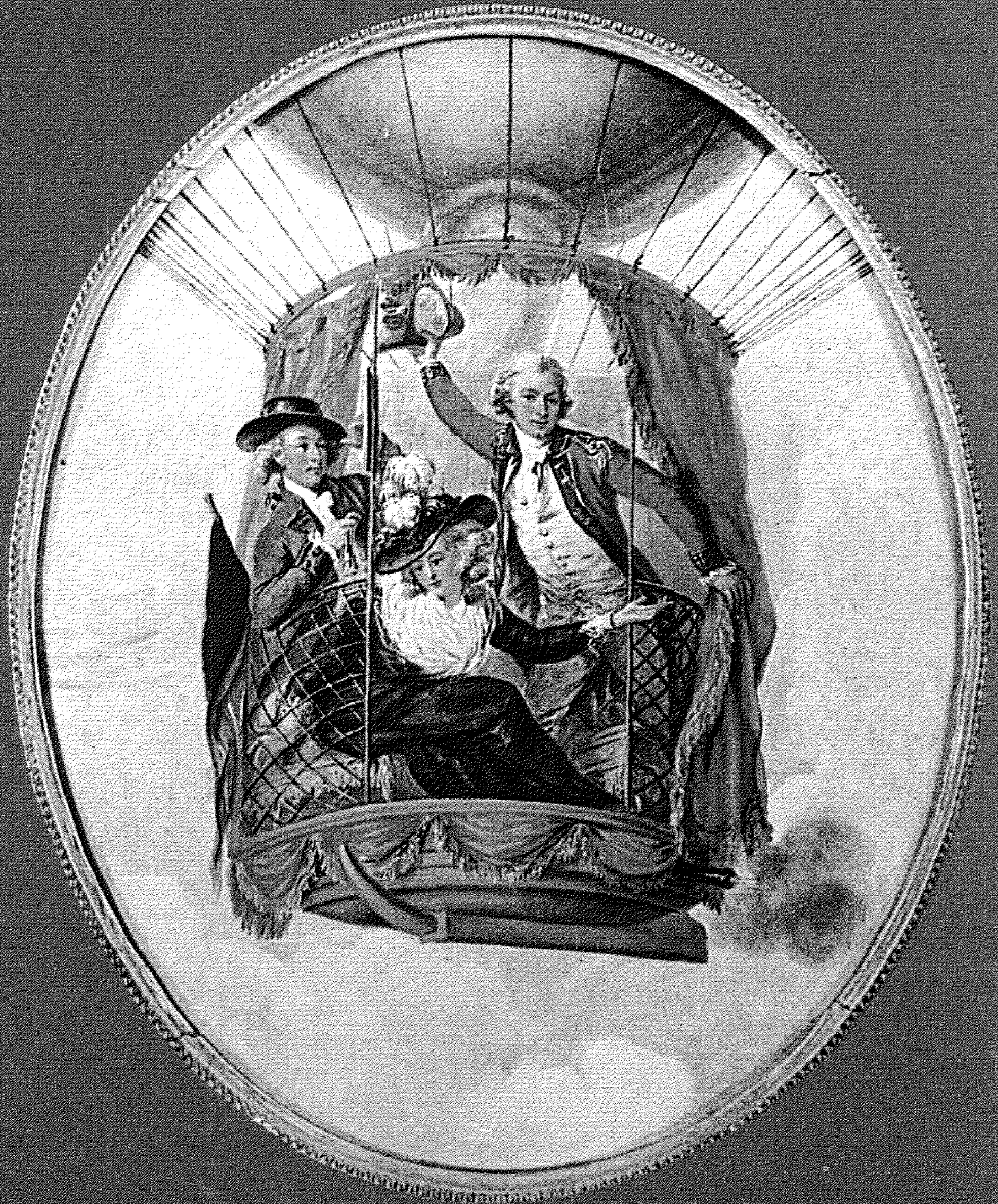
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة • العدد ٥٨ • آب (اغسطس) ١٩٨٣م. • الموافق ذو القعدة ١٤٠٣هـ.



السوق الشعبي في مراكش



الغلاف الأول

□ لوحة تمثل اطلاق منطاد وعلى متنه اول امراة انكليزية «لاتيليا آن سيج» عام ١٧٨٥.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العدد ٥٨ آب ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

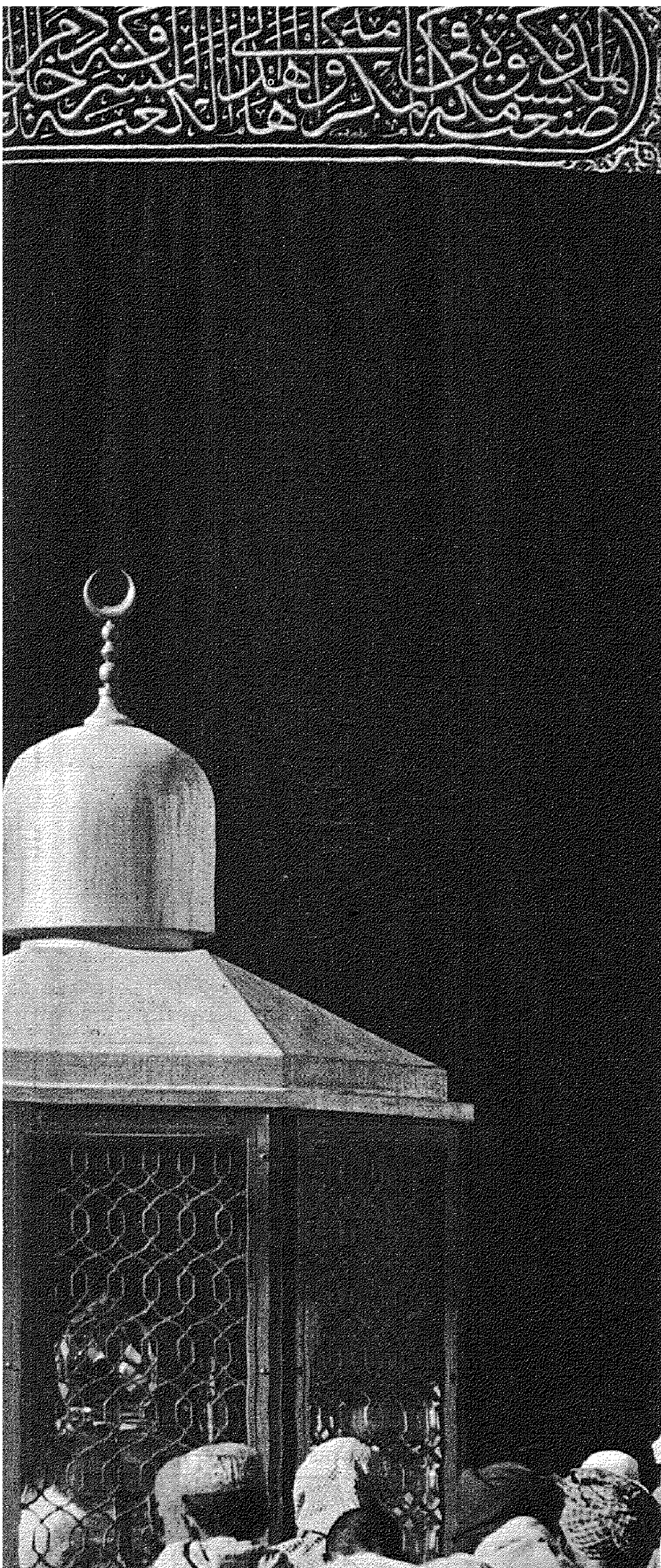
EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 5 No. 58 August 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



الأحزاب السياسية الدينية

مثل الخوارج والشيعة في القرن الأول الهجري

د . رضوان السيد

٢ ـــ تاريخ العرب والعالم



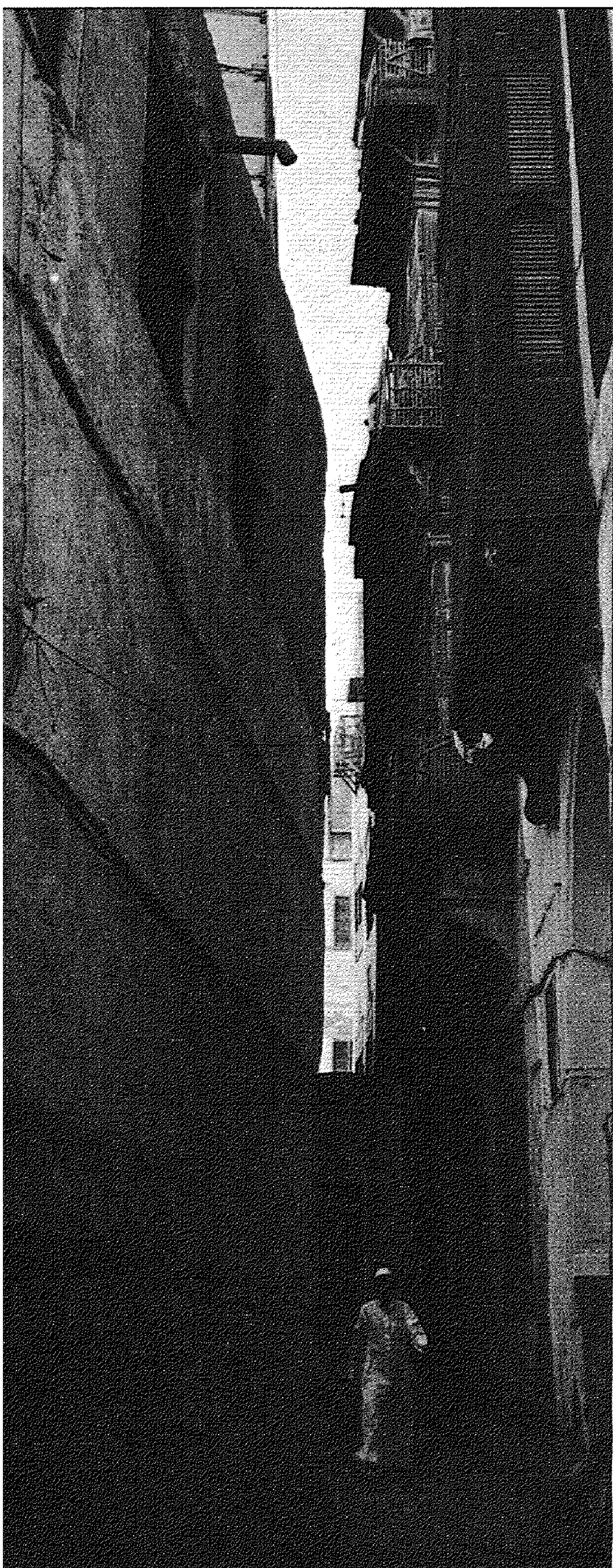
— ١ —



سمى سليمان بن صرد الخزاعي (زعيم التوابين) أتباعه الذين خرجوا معه إلى الخازر لقتال عبيد الله بن زياد والجند الأموي: حزب الله.لكن أبا بلال مرداس بن أدية (– ٦١هـ) كان قد فعل ذلك فيما يتصل بأتباعه منذ العام ٥٩هـ. ولم يقف الامر عند هذا الحد، إذ تكررت التسمية من جانب الفريقين (الشيعة والخوارج) منذ مقتل سليمان بن صرد (– ٦٥هـ) وحتى آخر القرن الأول مرات كثيرة. بيد أن التسمية هذه كانت من جانب رجال الاتجاهين أنفسهم من جهة، ثم لم تكن تسميتهم الوحيدة من جهة ثانية، ففي النصوص التاريخية، ونصوص التقارير شبه المعاصرة للحركتين أو للحركات الشيعية والخارجية يسمى الشيعة تارة «شيعة» وطورا «شيعة علي بن أبي طالب» أو «شيعة آل علي» أو «شيعة آل محمد» في حين يسمى الآخرون «خوارج» و «حرورية» و «أهل النهروان». حتى إذا ظهرت الاتجاهات الراديكالية في منتصف الستينات من القرن الأول في الاتجاهين بدأت تتسلل إلى المصادر تسميات من مثل «الغالية» و «الغلاة» بالنسبة للشيعة، و «الأزارقة» و «القعدة» و «القائلون بالاستعراض»، و «النجدات» بالنسبة للخوارج. وليس لهذه التسميات جذر واحد حتى داخل الاتجاه الواحد. كما أن بعضها أطلق من جانب الخصوم، وبعضها الآخر من جانب أتباع الاتجاه أنفسهم. ومع أن المجتمع كان يغص في الأمصار (خصوصا البصرة والكوفة) بمجموعات تكاد تستعصي على الحصر ذات أصول قبلية أو دينية أو سياسية أو جغرافية فما من شك في أن «الخوارج» و «الشيعة» هم وحدهم الذين يمكن الحديث عنهم كاتجاهين؛ إن لم تكن بنيتهما الداخلية واحدة؛ فلا شك أن الاطار واحد من الناحيتين الاجتماعية والسياسية.

الأصل التاريخي — وبإيجاز — لهاتين الحركتين يكمن في نظري في ثلاث مسائل رئيسية تتحاور في علاقة جدلية ملحوظة، فهناك «الأمصار» التي نشأت ونمت بسرعة هائلة وهناك قضايا التنظيم الاجتماعي الداخلي. وهناك أخيرا مسألة السلطة الناشئة في المدينة وعلاقتها بقريش الأنصار من ناحية، وبالقبائل العربية من ناحية ثانية.

فقد بدأ العرب يتدفقون الى العراق والشام على صورة كتائب مسلحة حوالي العام ١٢ للهجرة. وكانوا في البداية من الحواضر الحجازية والقبائل المحيطة، والقبائل المقيمة على التخوم أصلاً من مثل بعض البطون التي تنتسب إلى اليمن بالشام، وبكر وتميم بسواد العراق. وعندما حققت هذه الكتائب نجاحات مبدئية في العراق على الخصوص؛ بدأ التفكير بخلق مستقرات لها فأسست البصرة والكوفة على عجل كمركزين عسكريين مؤقتين. ولم يكن المقران مناسبين. فالبصرة ظلت تعاني من الجفاف لفترة طويلة، والكوفة غرقت بالوخامة وانتشار الأمراض منذ البداية. ونمت المدينتان بشكل سريع جدا إذ كادت الجزيرة العربية بأكملها تجتمع فيهماحوالي العام ٥٠ للهجرة. وغلب على البصرة العرب الشماليون (تميم وقيس وبكر) كما غلب على الكوفة اليمنيون أو المنتسبون إلى اليمن (همدان وكندة والنخع وحمير والأزد). وكان عمر (في النصف الثاني من عهده قد بدأ يعطي المقاتلين من أبناء هذه القبائل أعطيات منتظمة سنوية بالاضافة إلى الرزق (مواد عينية)، ونصيبهم المقرر من الغنائم. لكن الفتوحات التي كانت المصدر الرئيسي للدخل عن طريق الغنائم بدأت تقل منذ العام ٣٠ للهجرة. في الوقت نفسه كانت البادية ما تزال تلفظ مجموعات بدوية جديدة إلى الامصار لم تعد السلطة تستطيع استيعابها في «الديوان» لعدم حاجتها إليها، وللنفقات الباهظة المترتبة على ذلك، لكن قبائل هؤلاء (في البصرة على الخصوص) كانت مضطرة لتبنيهم والتضامن معهم وتأمين موارد لهم بانتظار تغير سياسة السلطة. في الوقت نفسه كانت الزعامات القبلية التقليدية تعاني من ضغوط مختلفة من جانب السلطة في المدينة المنورة والمصر من أجل ضبط الأمور بطريقة أشد، ثم من جانب مشايخ البطون الصغيرة الذين شاركوا في الفتوحات، وثبتوا اقدامهم في الاسلام، وكانوا يطمحون إلى أهمية اكبر في القبيلة والمصر. ولم تستطع السلطة الإسلامية المركزية أن تعطي الأمصار اهتماما



كافيا في مطالع الثلاثينات بسبب اضطراب الأمور في الحجاز على الخليفة الشيخ عثمان؛ إذ لم يتمكن من إرْضاء «الأنصار» بالمدينة في حين كانت الزعامات المكية والمدنية الغنية من قريش تتطلع كلها إلى الخلافة. وتحوّل قلق زعامات الأمصار الوسطى والصغرى إلى تمرد اتجه نحو المدينة من البصرة والكوفة ومصر انتهى بمقتل عثمان وارتفاع الآمال بتحقيق المطالب:

ـــ في إشراك رجال الفتوحات بالأمصار أكثر في شؤون السلطة.

ـــ وفي تقسيم الأرض بين الفاتحين لتسطيع القبائل الاستمرار في دعم أبنائها الآتين من الصحراء؛ ولتحصل هي على مورد ثابت وكاف لا يتزعزع إذا انخفضت وتيرة الفتوحات.

ويمكن القول إن عليا لم يستطع أن يحقق غير المطلب الأول وبشكل جزئي؛ في حين أثار عليه القرشيين الذين رأوا أن اختياره تم من جانب الثائرين لا من جانبهم. فكان صراع علي مع المكيين (وقعة الجمل)، ثم كان صراعه الطويل مع معاوية (٣٦ ـــ ٤٠هـ) الذين لم ينته إلّا بمقتله بالكوفة.

ـــ ٢ ـــ

اما المجموعة الأولى التي بدأت بمعارضة علي (عام ٣٧هـ) فقد ركزت معارضتها له في شعار: لا حكم إلا لله. وتذكر المصادر أن عليا أجابهم: «بل لابد من إمارة» أو «لابد للناس من أمير يؤمن السبل، ويجاهد العدو، ويأخذ للضعيف من القوي...».

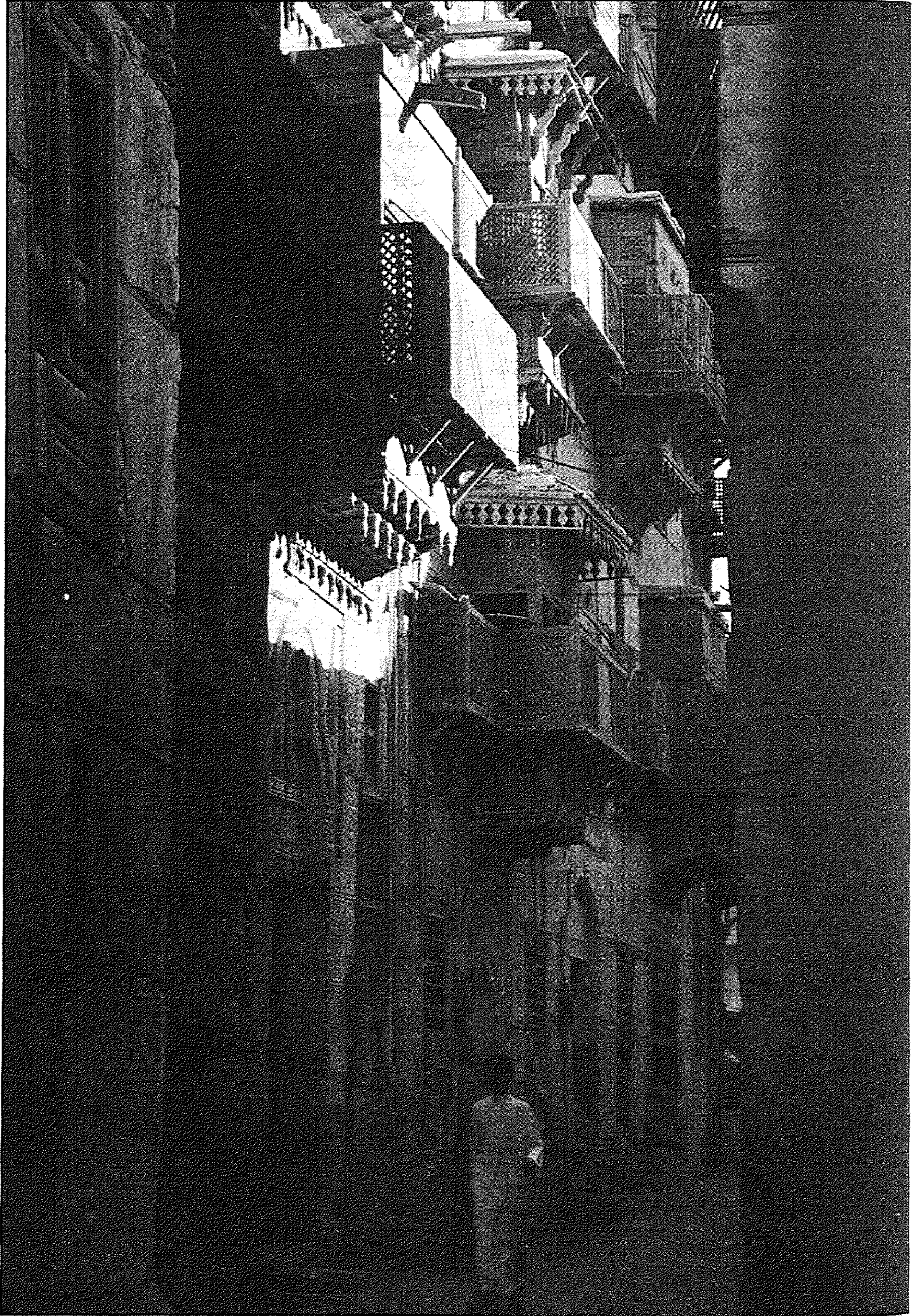
لكن يبدو أن هؤلاء الذين سموا «القراء» تارة و «أهل حروراء» فيما بعد تارة أخرى لم يكونوا يقصدون إلغاء السلطة بقدر ما كانوا يريدون أن تكون الشريعة (العرف، السنة) هي السلطة والحاكم. بينما لا يكون الخليفة أكثر من أمير، أو أول بين متساوين. بدليل أنهم عينوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي أميرا في صراعهم مع علي بالنهروان. وتختلف تقارير المصادر حول أعدادهم (ما بين أربعين إلى اثني عشر الفا)، لكن يبدو أن عددهم لم يكن ثابتا، وقد اختلف علي مع فئات كثيرة في جيشه، وبدا لأول وهلة أنهم جميعا من الخوارج، ثم تركوا «جماعة»

الخوارج لأسباب مختلفة ولم يبق في النهاية غير «أهل حروراء» وأكثرهم من قبائل تميم وبكر والأزد.

والملاحظ في هؤلاء أنهم كانوا في أكثرهم ذوي أصول بدوية، ولم يكن البارزون بينهم من زعماء القبائل المعروفين، وكان «قراءهم» و «زهادهم» هم الذين يعيّنون قادة الحرب من بينهم. ولم يكن لهم في البداية أمير في السلم ثم بدأ ذلك في منتصف القرن الأول الهجري، وقد دارت نقاشات كثيرة حول سبب تسميتهم «خوارج» منذ القديم، لكن يبدو انه اسم نبزوا به وهو من أصل قبلي يعني أولئك الذين تنفيهم القبلية أو تطردهم من مثل صعاليك الجاهلية. ومعلوماتنا عن أوائلهم أنهم كانوا في العادة يجتمعون في أحد مساجد القبائل المغمورة حتى يبقوا بعيدين عن عيون السلطة والخصوم فإن رأوا أن قسوة السلطة لم يعد يمكن تحملها خرجوا من «عهد الكتمان» إلى «عهد الظهور» فغادروا المصر «متبرئين» من «الظالمين» و «متولين» أهل النهروان إما ليعتزلوا الظلمة، وإما ليؤسسوا «جماعة» مضادة. وكانوا في مثل هذه الحالات يعينون «إمام ظهور» أو «إمام أحكام» أو «إمام بيعة»، ويبدو أن هذا التحديد في «الإمامة» كان للتأكيد على تأقيتها، ولإظهار مخالفتها لطبيعة «إمامة» الجماعات الأخرى. ويبدو أنهم لم يكونوا يفكرون في البداية بانشاء «جماعات» بديلة، بيد أن تمرداتهم الصغيرة التي كان يضربها «أهل المصر» أو «جند المصر» دون رحمة، ودون توجيه أمير المصر أحيانا اقنعتهم بأن أهل المصر هؤلاء ليسوا بالضرورة أناسا مضطهدين مثلهم بل هم متآمرون أو في أحسن حالاتهم «غافلون». من هنا بدأ مصطلح «البراءة» القبلي يمتد عندهم ليشمل من عداهم من المسلمين، فإذا هم تارة «مشركون» وطورا «كفار». أما أولئك الذين يوافقونهم في الرأي فإنهم كانوا يستحثونهم على «الخروج» إليهم فإن لم يفعلوا كانوا من «المخلطين» و«القعدة». وكان مثل أبي بلال مرداس بن أدية (ــ ٦١هـ) هو الذي اقنعهم بأن المسالمة لا تفيد. فقد أصر مرداس على عدم «الخروج» طوال الأعوام ما بين ٤٩ و٦٠ هـ لكن ولاة البصرة (خصوصا زياد بن أبيه) كانوا يصرون على سجنه وتعذيبه واضطهاده، فترك المصر مع بعض الذين آزروه عام ٦٠هـ. لينشىء «جماعة» جديدة لا تقاتل بالضرورة «الجماعة» القائمة غير أن عبيد الله بن زياد أصر على قتاله وقتله وعددا من رجاله أثناء صلاة الجمعة. وقد تحول أبو بلال إلى مثل أعلى للخوارج، وبدأت «الهجرة» إلى موطن مقتله، كما بدأ من ناحية أخرى: «الاستعراض» الذي يعني إبادة الخصوم أو غير المنتمين إليهم دون تمييز في غارات مفاجئة تشبه غارات القبائل العربية قبل الإسلام. والواقع أن هذه الأشكال المتطرفة للأيدلوجية الخارجية هي التي شرذمت الحركة أو الاتجاه، إذ نلحظ منذ بدايات الستينيات مصطلحات مثل «دار التقية» و «دار العلانية» و «إمام الدفاع». ويبدو أن غير المتطرفين من هؤلاء الثوار هم الذين يكمنون وراء هذه المفاهيم والمصطلحات. وقد كان هؤلاء الذين انشأوا أول سلطة خارجية مستقرة نسبيا (٦٧ ــ ٦٩هـ) باليمامة والبحرين بزعامة نجدة بن عامر الحنفي. ومن الملاحظ أن بني حنيفة الذي نشأت السلطة الخارجية على أرضهم وأرض بني عمهم عبد القيس كانوا فلاحين ولم يكونوا بدوا. ثم كان الجناح المعتدل الآخر (الإباضية) هو الذي أنشأ «إمامة» في عمان التي اتخذت «دار هجرة» ثم بتاهرت. وهم الباقون إلى اليوم مجموعات صغيرة بليبيا والجزائر وعمان.

منذ مقتل أبي بلال بدأ مفهوما «الجماعة» و «الهجرة» يلعبان دورا كبيرا في الأيديولوجية الخارجية. وإذا كان المصطلح الأول قبليا في الأساس فإنه لا يمكن زعم ذلك بالنسبة للمصطلح الثاني. لكن «الحالة» القبلية (حالة التقلب والتغير الدينامي السريع) سيطرت حتى فيما يتصل بمفهوم «الجماعة» طوال القرن الأول الهجري. فلم تنشأ جماعة خارجية شاملة.

إن الحركة كلها كانت تلتقي فقط على رموز قليلة أهمها تعليل بدايات التمرد بتغير عثمان ثم علي، والتأكيد على سيرة الشيخين، وعلى وجوب الخروج على الظلمة. لكن هذه القبلية التى كانت تسود التنظيم الاجتماعي الخارجي كله وتحتضن بداخلها الإسلام أيضاً، كانت تحاول تجاوز نفسها فيما يتصل بمسألة «العصبية»؛ فقد كان رجال حركات التمرد الخارجية في القرن



الأول يصرون على أن الايمان هو الذي جمعهم، والظلم هو الذي أخرجهم، والايمان هو الشرط الأول والأخير للانتماء إلى «الجماعة». هكذا أمكن أن يكون في الحركة أناس من قبائل مختلفة، ومتناحرة في العادة مثل تميم وبكر، وتميم والأزد، وطيء وقيس. لكن هذا «التناصر» لم يكن يتجاوز في الحقيقة درجة الحلف القبلي القديم. وقد جرى أحياناً بين أتباع نافع بن الأزرق وشبيب ونجدة تبادل التهم حول العصبية القبلية كما أنه كان من المعروف أن خوارج تميم وقفوا مع قبيلتهم ضد الأزد أثناء النزاع بالبصرة بين القبيلتين (٦٥ ــ ٦٦هـ). وكان من المنتظر أن تستوعب الحركة كل «الموالي» المسلمين الجدد والذين كانوا يعانون من ضغوط السلطة وضغوط قبائل المصر، لكن هذه «المساواة» الشديدة في الأيديولوجية لم تسيطر على مستوى واقع وتصرف «جماعة» الخوارج، فقد كانوا يعيرون عربية تزوجت بمولى. وقد انقسمت حركة نافع بن الأزرق في النهاية إلى عرب وموالي ثم إلى قيسين وربعيين. وكان من المنتظر أن تنتهي الحركة تماما لتعود فئاتها إلى القبائل من جديد لولا خروجها من البصرة إلى مستقرات حضرية في عمان والمغرب.

ــ ٣ ــ

أما الحركة الشيعية الأولى فقد بدأت بالكوفة لا بالبصرة. والكوفة كما قلنا ذات تنظيم اجتماعي قبلي ذي أصول يمنية أي فلاحية لا بدوية. وإذا كان ممكنا بالنسبة الخوارج أن نقول إنهم بدأوا بالخروج عام ٣٧هـ فليس ممكنا بالنسبة للشيعة الأوائل أن نفعل مثل ذلك. كل ما يمكن فعله هنا هو ملاحظة الأسر التي ثبتت مع علي وظلت مخلصة له ولأبنائه بعد مقتله. نعرف من هذه الأسر بالكوفة أسرة سعيد بن قيس الهمذاني،وأسرة حجر بن عدي الكندي. فقد قاتل كلا الرجلين مع علي وبطنهما القبلي. وعندما انفصل عنه الخوارج أصرت الأسرتان على البقاء معه. ثم كان انضمام أسرة الأشتر (مالك) من قبيلة النخع القوية بالكوفة.

والملاحظ أن الأسر الثلاث كانت تتزعم قبائلها أو بطونا مهمة في تلك القبائل. وكان ولاء هؤلاء الرجال للإمام علي ولاءً نضالياً إذا صح التعبير. فقد شاركوه في معاركه كلها ضد قريش وضد الشاميين ثم ضد البصريين الثائرين عليه عام ٣٨هـ وضد الخوارج. لذلك (بالاضافة إلى أسرة الأشج العبدي بالبصرة) كان هؤلاء بعد وصول معاوية إلى السلطة موضع سخط وحقد الأمويين. وقد استطاع العبديون بالبصرة بعد لأي تسوية أمورهم مع السلطة الجديدة في حين عجز عن ذلك الكوفيون تماماً رغم محاولاتهم المستمرة. وبدا لسنوات أن «شيعة علي» وشرطة «الخميس» انتهتا حتى كان تحرك حجر الكندي بمسجد الكوفة عام ٥١هـ. بدأ التحرك على شكل تذمر بسبب لعن علي على المنبر من جانب زياد بن أبيه والأمويين. وكانت بين حجر وزياد أحقاد قديمة إذ كان زياد شيعياً بالبصرة ثم تحول أمويا تماما حتى آخاه معاوية. اعتزل حجر بمنزله وبدأ بجمع بعض أبناء عشيرته لتصعيد حركة الاحتجاج. وقد أيدته عناصر شيعية من همدان والنخع فسارع زياد للاستعانة بزعماء الكوفة القبليين التقليديين الذين كانوا بعكس البصرة ما يزالون مسيطرين في قبائلهم تماماً. وهكذا جرى تسليم المحتجين ومنهم حجر إلى زياد الذي ارسلهم إلى معاوية فقطع رؤوس ستة منهم. وبهم بدأ شهداء الحركة الشيعية. وقتل الحسين بن علي عام ٦٣هـ على أبواب الكوفة دون أن يستطيع الشيعة في الداخل بالمدينة أن يهبوا لنجدته. فلما توفي يزيد بن معاوية عام ٦٥هـ واضطر البصريون عبيد الله بن زياد على مغادرة العراق؛ تنادى رجالات الشيعة بالمدينة للأخذ بثأر الحسين وحجر بن عدي، فزعموا عليهم سليمان بن صرد الخزاعي (من خزاعة) بسبب صحبته للنبي وزحفوا نحو الشام في الوقت الذي كان الأمويون فيه هناك قد أعادوا ترتيب أمورهم وبدأو يفكرون بالعودة إلى العراق. وعند عين الوردة على حدود الجزيرة الفراتية التقى الطرفان فانهزم (التوابون) وقتل زعيمهم سليمان، وكان القاتل من جديد عبيد الله بن زياد وعادت قلة قليلة متشرذمة إلى الكوفة.

وجد العائدون إلى الكوفة أمامهم تنظيما من طراز جديد. فقد وصل إلى المدينة رجل من أشراف ثقيف (القبيلة العربية المسيطرة

بالطائف) هو المختار بن أبي عبيد. وقد بدأ يدعو إلى أمرين اثنين: الأخذ بثأر شهداء آل البيت والشيعة، وإقامة سلطة باسم آل البيت (محمد بن الحنفية) في الكوفة. وقد توصل لذلك؛ بإرضاء الزعامات التقليدية المتنفذة، وبإرضاء الموالي والعبيد من غير العرب عن طريق نظمهم في جيشه وحرسه. ومع المختار في شهور عام ٦٦هـ بدأت أولى رموز الحركة الشيعية التي تتجاوز «التوبة» و «الثأر». وبسبب من هذه التصرفات المختارية المرتبطة بقضايا مثل الكرسي، والملائكة، والمعنى السري للإمامة، وغيبة الإمام بدأ الشيعة الأوائل يتركونه. ثم بسبب استعانته بالموالي والعبيد بدأ الأشراف يخافونه على نفوذهم ويهربون إلى البصرة حيث تجمع أنصار آل الزبير وأعادوا السيطرة على الكوفة للأشراف الزبيريين؛ لكن بعد أن حققت الحركة الشيعية أولى انتصاراتها المتعددة الجوانب: التنظيم السري ذي الرموز، والتصديق بإمكان إنشاء سلطة، والأخذ بالثأر للشهداء إذ انتصر جيش المختار بقيادة إبراهيم بن الأشتر عام ٦٦هـ على عبيد الله بن زياد وقتله. واستمرت الحركة الشيعية سرية بعدئذ ضربها عسكريا الزبيريون ثم سيطر الأمويون منذ العام ٧٢هـ من جديد. وبدا أن كل شيء عاد إلى الهدوء لولا أنباء الجاحظ عن «شيعة» في أحياء الكوفة الداخلية كانوا يرون مقاتلة خصومهم بكل الوسائل حتى الاغتيال والاستعراض. ثم أنباء كتب الفرق خصوصا الأشعري في مقالات الإسلاميين عن رموز شيعية غامضة تمثل تيارات بالكوفة من مثل المغيرة بن سعيد وبيان بن سمعان، لكن في مطالع القرن الثاني الهجري.

ومعلوماتنا عن التنظيم الشيعي الداخلي الأول قليلة. لكن رموزه الأولى عرب من أسر فلاحية ذات زعامة تقليدية مستقرة. والقيم التي سادت فيه بداية هي قيم معروفة في المجتمعات الفلاحية. قيم الحفاظ على شرف كبير الأسرة وبلورة الأسرة والعشيرة نفسها فيه. حتى عندما دخله الموالي وغيّروا من طبيعته ظل ترميز التنظيم واضحا؛ لكن بعكس بدايته سيطرت عليه فكرة «الطائفة» المنفصلة ومبدئياتها في حين كانت الدعوة الشيعية المعتدلة تريد دائماً في الخمسينيات ثم في النصف الأول من القرن الثاني الهجري الانتشار وكسب الانتصار.

وكان من المنتظر أن يصطدم الخوارج بالشيعة في القرن الأول، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، بل إن بعض الخوارج جاؤا إلى زيد بن علي عام ١٢١هـ وعرضوا عليه مساعدتهم ضد هشام بن عبدالملك. وفي حين نجح التيار الشيعي المعتدل (عن طريق انتهاج أسلوب الدعوة السرية الذي بدأ أيام المختار) في الوصول إلى السلطة أيام العباسيين ثم قلب ايديولوجيته رأسا على عقب؛ فشلت الجماعة الخارجية (رغم إصرارها المستمر على الدعوة) في السيطرة في غير بعض الأطراف.

مع ذلك يمكن القول إن التنظيم الخارجي (الذي بدأ قبليا عربيا) تحول في بيئات اليمامة وعمان والبحرين والمغرب تجاريا فلاحيا مقاتلا؛ في حين ظل الاتجاه الشيعي فلاحيا في أكثر فتراته وفرقه وإن فقد العرب قيادته منذ أواخر القرن الأول الهجري. ■



«إنني رجل قد وضعت تحت تصرف عقلي واختباري وبياني، فإن استفادت الأمة من عملي فذلك ما يجعلني سعيداً، وإلا فهو واجب قد أخذته على نفسي، فأنا أقوم به لأريح ضميري.

سعد زغلول

النزاعات الدولية



□ الاحتفال للمرة الأولى بعيد الشجرة في اعقاب الاستقلال ويبدو من اليمين المحافظ نقولا رزق الله، الرئيس رياض الصلح، الرئيس الشيخ بشارة الخوري والأمير مجيد ارسلان.

المسألة اللبنانية، منذ نشأتها، كانت متعددة الأبعاد: نزاع داخلي، طائفي في الظاهر، واجتماعي ــ اقتصادي، في الواقع، معطوف على نزاع اقليمي، مرتبط، بدوره، أو محرك أو مستغل، من قبل نزاع دولي.



ففي عام ١٨٤٠، وقعت الأحداث الطائفية الدامية الأولى في تاريخ امارة جبل لبنان، بسبب الخلافات التي نشأت بين الأمير بشير والزعامات الدرزية التقليدية، والطبقة السياسية المسيحية الطالعة وهي خلافات سببها وأذكاها تحالف الامير بشير مع ابراهيم باشا، المصري الذي كانت قواته تحتل سوريا ولبنان وفلسطين في محاولة سلخها عن الامبراطورية العثمانية. هذا في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا وفرنسا تتنافسان على طريق الهند (قبل قناة السويس) وبالتالي على فرض نفوذهما على الشرق الأوسط. ولقد ادت الأحداث الدامية التي نشبت بين دروز ومسيحيي الجبل، الى تدخل الدول الاوروبية وتغيير نظام جبل لبنان من امارة يحكمها امير لبناني، منتخب، الى نظام القائمقاميتين، (درزية ومسيحية) المرتبط مباشرة بالاستانة والذي ادخل الطائفية السياسية رسميا الى حياة لبنان الوطنية.

في عام ١٨٦٠، باستثناء الامارة والاحتلال المصري، نجد العوامل والعناصر ذاتها التي سببت احداث ١٨٤٠، تلعب دورها من جديد: نزاع سياسي داخلي، بين نظام الاقطاع الذي كان

أثرها وتأثيرها على لبنان

د. باسم الجسر

يجسم الزعامة السياسية الدرزية وطبقة سياسية مارونية جديدة بقيادة رجال الدين المتعلمين، متحالفتين، احداهما مع فرنسا والثانية مع بريطانيا، اللتين كانتا، بدورهما، تتنازعان وراثة الامبراطورية العثمانية والسيطرة على المشرق. هذه النزاعات الثلاثة ادت، بترابطها وتفاعلها، الى احداث الفتن الطائفية بين المسيحيين والدروز التي امتدت الى كل جبل لبنان، وحتى دمشق، ولم تتوقف الا بعد انزال عسكري فرنسي في جونيه، جمده تهديد انكليزي بالتدخل، والا بعد عقد مؤتمر دولي جمع الدول الاوروبية وممثلا عن الاستانة وانتهى بانشاء «نظام جبل لبنان الخاص» (المتصرفية) وهو نظام متمتع رغم تبعيته للامبراطورية العثمانية، بحكم ذاتي خاص، (متصرف مسيحي عثماني تعينه الاستانة وتوافق عليه الدول الاوروبية). هذا النظام دام ستين عاما. (١٨٦١ ــ ١٩٢٠).

في عام ١٩٢٠، اعلن الجنرال غورو «دولة لبنان الكبير»، التي ضمت متصرفية جبل لبنان وقسما كبيرا من «ولاية بيروت» وبعض الأقضية التي كانت تابعة لولاية دمشق. وذلك بالرغم من ان مطلب اكثرية الموارنة كان قيام دولة في جبل لبنان ذات اكثرية مسيحية، محمية من فرنسا. وكان مطلب اكثرية المسلمين الالتحاق بدولة سورية عربية، يحكمها الأمير فيصل. ولا ريب في ان الأسباب التي ادت الى هذا الاعلان هي: اتفاق سايكس ــ بيكو بين فرنسا وبريطانيا على اقتسام المناطق الشرقية التي انتزعت من الامبراطورية العثمانية ثم اختلافهما في مؤتمر فرساي على مصير سوريا ومساندة السياسة البريطانية للحركة العربية الاستقلالية، بقيادة فيصل.

في عام ١٩٤٣، كان الاستقلال اللبناني واحداث تشرين ١٩٤٣، بل حتى «الميثاق الوطني»، نتائج مباشرة او غير مباشرة للنزاعات والاتفاقات الدولية. فاتفاق الحلفاء، اي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا، على بلوغ الشعوب العربية ومنها اللبنانيين، الاستقلال بعد الحرب (ميثاق الأطلسي) وتكليف بريطانيا (قبل ان يتحرك الاتحاد السوفياتي) بتنظيم منطقة الشرق الأوسط، كانا السبب المباشر لتلاقي الحركات الاستقلالية الوطنية في سوريا والعراق ومصر ولبنان، على انشاء جامعة الدول العربية وعلى صيغة «الكيان اللبناني المستقل ذي الوجه العربي». ولولا النزاع الفرنسي ــ البريطاني في صيف ١٩٤٣ على النفوذ في لبنان وسوريا، لما وقعت احداث تشرين ١٩٤٣ وادت الى الانفجار الوطني الذي كرس تبلور صيغة الميثاق الوطني وعجل في بلوغ لبنان سيادته الكاملة وانضمامه الى الأسرة العربية.

١٩٥٨: لم يكن الشعور بالغبن السياسي والاقتصادي لدى اللبنانيين المسلمين ولا انجذابهم القومي الى «القومية العربية» الناصرية، كافيين وحدهما لاشعال نار «ثورة ١٩٥٨». ولا أخطاء الحكم في محاولة الاستمرار وضرب المعارضة، كفيلة، وحدها، باشعال تلك النار. ولكن النزاع المحتدم، يومذاك، بين القاهرة وبغداد، من جهة، وارتباط هذا النزاع بمشاريع الدفاع العسكري عن الشرق الأوسط التي كانت بريطانيا تنظمها علنا والولايات المتحدة تدعمها، سرا، ويعارضها الاتحاد السوفياتي بقوة، من جهة ثانية، هو ما أدى الى تحويل لبنان الى ساحة للمجابهة، والى تضخيم النزاع اللبناني الداخلي، من معركة حول الحكم والاصلاح السياسي ــ الاجتماعي، الى ثورة صغيرة، او «شبه حرب» طائفية أهلية، ذات ابعاد اقليمية وايديولوجية. ولولا ثورة ١٤ تموز العراقية، وخوف الولايات المتحدة الاميركية من اختلال



□ الامير بشير الشهابي.

موازين القوى والدفاع في الشرق الأوسط، لما انزل الاسطول السادس الاميركي قواته على شواطىء بيروت واضعا حدا للعصيان والقتال. ولما تم الاتفاق بين الرئيس جمال عبد الناصر (ممثلا مصر وسوريا الموحدتين انذاك) والمبعوث الأميركي، مورفي، على خطوط حل الأزمة اللبنانية بل على تفاصيلها، وهو حل عاش اللبنانيون في ظله خمسة عشر عاما.

١٩٧٥ ــ ١٩٨٢: الاشتباكات الفلسطينية ــ اللبنانية، التي تحولت الى اقتتال طائفي ذي ابعاد ايديولوجية قومية وطبقية ووطنية، ثم الى دخول القوات السورية والعربية، ثم الى قتال بين القوات المسيحية المسلحة والجيش السوري، تخللها اجتياح اسرائيلي وارسال قوات دولية، ومشاريع تقسيم.. وانتهت (هذا اذا انتهت؟!) باجتياح واحتلال اسرائيليين، وخروج المقاومة الفلسطينية المسلحة من بيروت والجنوب وارسال قوات اميركية ــ واوروبية الى لبنان.. كل هذه الأحداث الكبيرة ما كانت لتقع لو لم تهيئها نزاعات اقليمية ودولية محتدمة منذ عام ١٩٦٧. اي منذ ان ادت هزيمة العرب العسكرية، وبنوع خاص هزيمة مصر، امام اسرائيل، الى انحراف آمال الأجيال العربية عن القومية العربية الناصرية نحو الكفاح المسلح وحرب التحرير المجسمين في المقاومة الفلسطينية. فهذا التحول في اتجاه وابعاد التفكير القومي العربي، زعزع احدى قاعدتي التوازن الوطني اللبناني اللتين



□ ابراهيم باشا.

كانتا قد ارسيتا منذ عام ١٩٥٨. كذلك خروج المقاومة الفلسطينية من عمان وتركيز قواعدها ونشاطها في لبنان، حولا لبنان الى جبهة قتالية، بين العرب واسرائيل، واخل بالقاعدة الثانية للتوازن الوطني والسياسي في لبنان وادى الى تبلور وبروز تيار المقاومة المسلحة المسيحية لتيار الثورية العربية ذات البعد الفلسطيني ــ اليساري ــ الاسلامي اللبناني، الذي كان قد تبلور وبرز في لبنان منذ عام ١٩٧٣.

ولكن هذين النزاعين اللبناني والعربي ما كانا ليحدثا ما احدثا من اقتتال وحروب لو لم يرتبطا بالنزاع العربي ــ الاسرائيلي من جهة وبالحرب الباردة الاميركية السوفياتية، من جهة اخرى ولا سيما بالبعد الستراتيجي والاقتصادي لها.

ان حرب السبع سنوات التي جعلت من لبنان مسرحا وضحية لتلك النزاعات الاقليمية والدولية، قد ابرزت الوقائع التالية:

اولا: تدخل الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي المباشر وغير المباشر في المصير اللبناني.

ثانيا: تقدم وطغيان النزاع العربي ــ الاسرائيلي على النزاع الطائفي او السياسي بين اللبنانيين.

ثالثا: انتقال الثقل السياسي في المنطقة من مصر وسوريا الى الخليج ودول النفط فيه.

رابعا: خروج مصر عن الالتزام النضالي القومي ضد اسرائيل الذي ادى الى تسليم

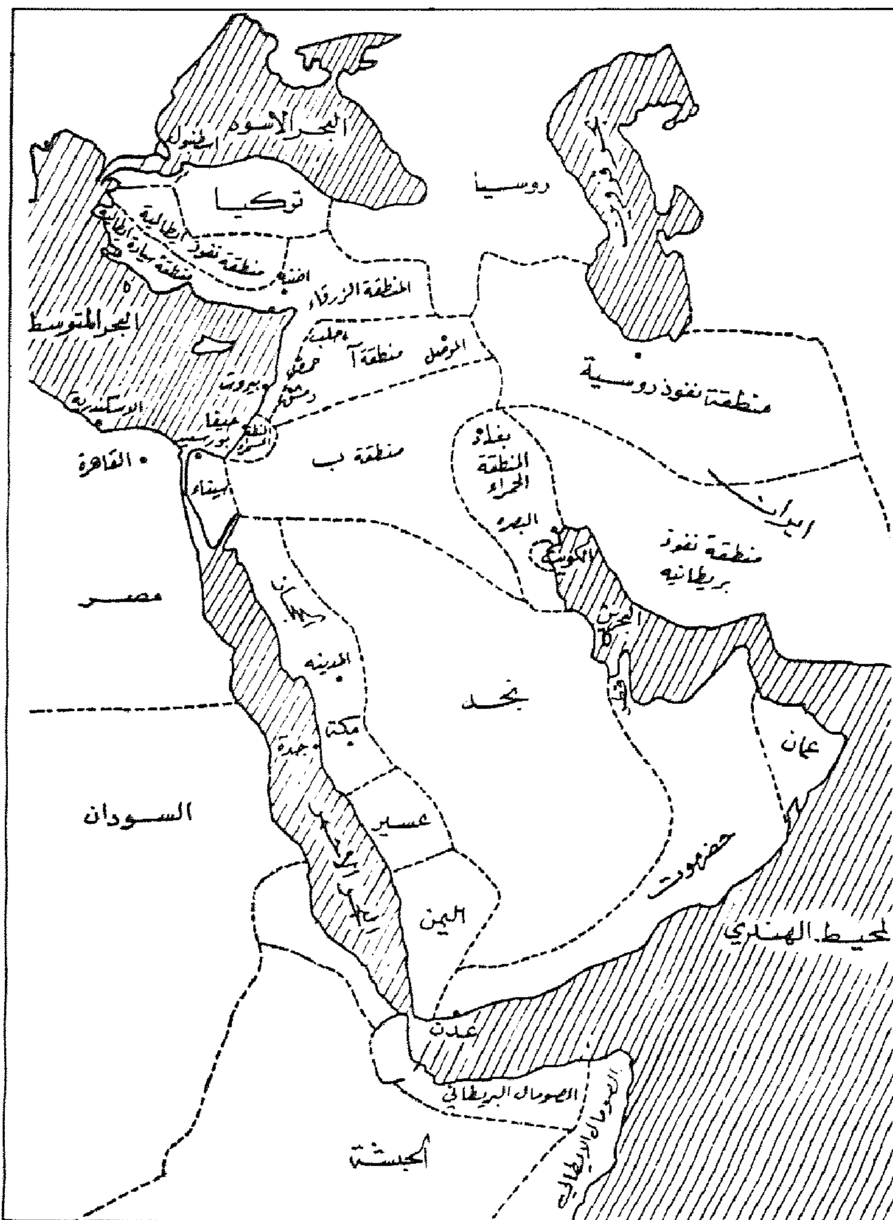
المصير العربي الى دول عربية كانت ثانوية الأهمية والتأثير في هذا المصير، متباينة الايديولوجيات والأهداف، الأمر الذي ادى الى اخفاق وشل القدرة العربية على مقاومة اسرائيل او ارغامها على الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة منذ ١٩٦٧.

خامسا: بروز ثلاثة عوامل جديدة ذات اثر مباشرعلى تطور الأحداث ومجرى الحرب هي: كامب دافيد، قيام الثورة الايرانية، وتغيير الستراتيجية العسكرية الاميركية بعد وصول الرئيس ريغان وفريقه الى الحكم في واشنطن.

من هذا الاستعراض التاريخي للنزاعات الاقليمية والدولية وتأثيرها على لبنان ومصيره يمكن استخلاص ثلاثة استنتاجات:

اولا: ان تأثير النزاعات الدولية والاقليمية على لبنان يفوق في مداه وعمقه ونتائجه، اي تأثير على اي دولة عربية أو غير عربية في منطقة الشرق الأوسط. وذلك بسبب تعددية البنيات البشرية اللبنانية وضعف مناعتها ضد هذاالتأثير. كذلك بسبب الانفتاح الطبيعي العضوي والوظيفي لهذه البنيات على الشرق والغرب.

ثانيا: ان تأثير النزاعات الاقليمية والدولية على لبنان، قابل للامتصاص أو للمقاومة اذا كان لبنان يمر بمرحلة استقرارسياسي وتوازن وطني اقتصادي. اما اذا صادف أزمة لبنانية حادة، فانه يتحول الى عنصر توتر وعامل تفجير. وحالة الاستقرار او الأزمة، مرهونان، بدورهما، بمدى



□ **معاهدة سايكس ـ بيكو.**

قدرة الحكم اللبناني على مسايرة التطور الاقتصادي والاجتماعي وملاءمة مصالحه معه. الا انه من الراهن ان بعض تلك النزاعات — لا سيما بعد قيام اسرائيل وبروز مخططاتها لتفكيك الشرق الأدنى — يفوق قدرة اللبنانيين على الصمود.

ثالثا: ان كل ازمة لبنانية داخلية، تسببها النزاعات الدولية او الاقليمية مباشرة او تغذيها وتزيد من تفاقمها، لا تلبث ان تتطيف وتتحول الى نزاع طائفي. فتطييف النزاعات هي ردة فعل غير منطقية وغير معقولة وخطرة من جهة.. ولكنها، من جهة اخرى، ردة فعل غريزية للدفاع عن النفس بمعنى ان ايصال الطوائف اللبنانية الى حافة التفكك الوطني او «تقسيم لبنان» هو الذي يحمل هذه الطوائف على اعادة النظر بمواقفها واندفاعها في النزاع كما يحمل الدول الاقليمية على وقف تدخلها في الأزمة اللبنانية، كما يحمل الدول الكبرى على التدخل لحماية مصالحها من نتائج تفاقم الأزمة اللبنانية.

فهذه الطريقة في تطييف النزاعات، ساعدت على «انقاذ» لبنان، اكثر من مرة في تاريخه الحديث.. ولكن بأي ثمن!

ان عام ١٩٨٢ كرس لبنان كنموذج مثالي لتداخل النزاعات الدولية والاقليمية في مصيره. فالاجتياح الاسرائيلي، ما كان ليقع لولا موافقة الولايات المتحدة والدول الأوروبية عليه لوضع حد للحركات الثورية او ما تسميه تلك الدول «بالارهاب الدولي» وهي حركات كانت قد اتخذت من أرضه منطلقاً ومن الحرب اللبنانية ستاراً لها.

كذلك كرس عام ١٩٨٢ تجربة الأسلحة الاميركية المتطورة عن طريق اسرائيل، بالأسلحة السوفياتية المتطورة، عن طريق سوريا، في سماء لبنان. كما كرس اتفاق الدول العربية المحافظة (مصر، السعودية، دول الخليج..) على «انقاذ لبنان» وانهاء حربه واعادة توحيده، كرد على الثورة الايرانية وطموحاتها الثورية الدينية التي بدأت تتطلع الى لبنان كحقل تجارب لها.

ان وجود الأسطول السادس الاميركي على شواطىء لبنان والقوات الاميركية والاوروبية على ارض لبنان والصواريخ السورية السوفياتية الصنع في البقاع والرادار «الاميركي — الاسرائيلي» (؟!) في الباروك والقوات الاسرائيلية في الجنوب والبقاع — تؤكد الحقائق التالية:

١ — انتقال «الحرب الباردة الساخنة — الاميركية السوفياتية» الى ارض لبنان، وتحول لبنان الى جبهة حربية.

٢ — بروز اسرائيل كعامل تدخل مباشر في حياة لبنان الوطنية والسياسية وعلاقته بمحيطه العربي.

٣ — بروز النزاع العربي — الايراني، المتعدد الابعاد، كعامل جديد في النزاعات اللبنانية والاقليمية.

سؤال اخير: هل يمكن للبنان* ان يحمي نفسه، اليوم، وفي المستقبل، من تأثير النزاعات الاقليمية والدولية على مصيره؟ وكيف؟

ان النزاعات الاقليمية والدولية لن تتوقف. كذلك النزاعات الداخلية اللبنانية. ومن السذاجة تصور الشرق الأوسط خاليا من النزاعات أو المجتمع اللبناني خاليا من الخلافات. ولكنه من الممكن بل من اللازم البحث عن طريقة تقي لبنان انعكاسات تلك النزاعات السلبية او العنيفة.

يرى البعض ذلك في اعلان حياد لبنان كما يراه البعض الآخر في تقوية الدولة وتعزيز الجيش اللبناني.. وثمة من يرى في تجاوز النظام الطائفي طريقا لصيانة الوحدة الوطنية ضد التأثيرات الخارجية. وثمة من يرى ذلك بتحقيق العدالة الاجتماعية والديمقراطية الحقيقية.

الحلول عديدة وبديهي ان لبناناً محكوما بدولة صديقة ديمقراطية، يدعمها جيش قادر على الردع وحماية الحدود، وتعززها العدالة الاجتماعية ونظام اقتصادي انتاجي متطور، بإمكانه الصمود امام الهزات التي تحدثها النزاعات الدولية والاقليمية على ارضه وكيانه وأوضاعه الداخلية. ولكن.. لبلوغ هذه المرحلة المتقدمة من المناعة الوطنية والسياسية والاجتماعية.. يجب الابتداء بتحرير اللبنانيين من الرواسب السلبية النفسانية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي تعطل قيام هذا اللبنان الذي يتطلع الى قيامه كل اللبنانيين.. لا سيما بعد حرب السنوات السبع وتجاربها القاسية؟! ■

الطب العربي

في نظر العلماء والمؤرخين (دراسة نقدية)

د. اسماعيل سرور شلق

الحلقة الأولى



□ كتاب «الزهراوي».

لماذا يدرس الناس تاريخ العلم؟ أليس العلم مجموعة حقائق ثبتت بالبرهان القاطع، فيكون أحدثها أصدقها وأقربها إلى الحقيقة، وماذا يعنينا من ماضي العلم؟ إن كان مخالفاً لحاضره فهو خطأ، وإن كان مطابقا له فما أغنانا عنه.

هذا رأي كثير من المشتغلين بالعلوم، وهو يدل على نظرة سطحية بعيدة كل البعد عن طبيعة العلم. ولن تجد أحداً من كبار العلماء الباحثين يجهل ما كان عليه رأي سابقيه في موضوع بحثه، وكيف تطورت الآراء فيه حتى بلغت ما هي عليه. والذين يسعون إلى كشف جديد يجب عليهم أن يدرسوا علاقة الماضي بالحاضر ليتعرفوا الطريق التي يجب أن يسيروا فيها لكي يخرجوا من الحاضر إلى المستقبل، ومن المعلوم إلى المجهول.

□ د. اسماعيل سرور شلق: محاضر في جامعة الملك عبد العزيز آل سعود.



العلم مجموعة مشاهدات، وهو فوق ذلك الكشف عن العلاقات التي تربط هذه المشاهدات بعضها ببعض، إلى هذا الحد لا يكون العلم الماضي خطأ، وإنما يكون ناقصاً، ثم تأتي مشاهدات وقوانين جديدة تتم بعض هذا النقص الذي نشأ من قلة عدد المشاهدات وضيق مدى تطبيقها وتطبيق قوانينها. وإنما يأتي الخطأ إلى العلم من التفسيرات التي يضعها العلماء محاولين أن تكون نظرياتهم شاملة منطقية.

وعلى ذلك لا يكون علم القدماء خطأ إلا فيما تعرضوا له من كليات شاملة. أما المشاهدات والقوانين التي تربطها فهي دائماً صواب في حدود ما تعرض له، وقد تكون ناقصة. ويجب على دارس العلم أن يدرس تاريخه، مقتنعاً أن مشاهدات القدماء صحيحة، وإن أخطأوا في تفسيرها.

قد يقال إن هذا أمر لا يعني إلا كبار العلماء الذين يكشفون حقائق وقوانين جديدة. أما الباحث أو القارىء فماذا يعنيه من دراسة تطور الآراء العلمية في الوقت الذي ترهقه كثرة المعلومات التفصيلية الدقيقة التي يحتاج إليها في معرفة الفروع المتعددة للعلوم الحديثة؟ هذا الإرهاق لا يترك له من الجهد ما يستطيع به أن يعرف آراء العلماء القدماء، وكيف تطورت إلى الآراء الحديثة، بل قد يزيده هذا العلم بالماضي اضطراباً وشكاً وقلقاً.

وعندنا أن هذا خطأ، فالآراء الحديثة تكون أكثر ثبوتا واستقرارا في ذهن الباحث إذا عرف كيف كانت آراء العلماء بالأمس، وكيف اضطرتهم التجارب إلى البحث عن قوانين أكثر شمولا. ولا شك أن الطريقة التاريخية هي إلى حد ما خير الطرق لتثبيت الآراء الحديثة في أذهان الباحثين، بل إننا نعتقد أن الباحث يجب أن يدرس الآراء التي كانت معروفة في الماضي القريب قبل أن يدرس الآراء الحديثة جدا التي لم تثبت قيمتها بعد.

وقديما قال أحد كبار المفكرين (جوته): إن العلم هو تاريخ العلم. ولا شك أنه بغير هذا التاريخ تكون المعلومات الحديثة فوضى قلقة لا جذور لها.

نحن نقدم إلى الدارس في هذه الدراسة تاريخ الطب في فترة بعينها، ولنا أن نضع أوصافاً لها مختلفة، فهو من حيث قوميته يوناني — عربي، بدأ بأبقراط وانتهى بابن سينا. وهو من حيث تاريخ التفكير العلمي طب الكليات والاستنتاج، وهو العهد الذي سبق عهد الاستقراء والتجربة.

وهو من ناحية الزمن طب وسيط يقع بين الطب العتيق الذي انتهى بطب قدماء المصريين، وبين الطب الحديث الذي بدأ في عهد النهضة، وهو من حيث التطور الطبي يعد طب الخبرة المنظمة بعد أن كان الطب خبرة بحتة، وقبل أن يكون كما هو في العصر الحديث الطب التجريبي. وهو من حيث طبيعته يقوم على الصفات الفيزيقية للأشياء، حيث لم تكن الكيمياء معروفة، ولم يكن للأطباء سبيل إلى التفريق بين الأشياء إلا من حيث صفاتها الظاهرة. وهو على كل حال عهد من الطب ممتع، ولا يزال له أثر في التصورات الطبية الحديثة.

ويعوق الدارسين عن استيعاب هذا الطب اليوناني العربي، وما فيه من حقائق علمية، ومشاهدات قيمة اختلاف مصطلحاته، وتصوراته عما عليه الطب الحديث. لذلك رأينا أن نقدم لهذا الطب بعرض تصورات الأطباء القدماء للصحة والمرض وأسبابهما، وأن يكون ذلك بلغة الطب الحديث، فتبرز بذلك الحقائق العلمية دون أن يزهدنا فيها غرابة هذه التصورات وخصوصية لغتها.

مجمل تاريخ الطب العربي:

ظل الطب العربي قديما بدائيا بدويا يتناقله الناس مشافهة في غير نظام، فكان في الواقع طبا فولكلوريا. ثم حدث أن استدعى الخلفاء العباسيون الأولون مهرة الأطباء من السريان الذين كانوا يعلمون الطب ويمارسونه في بلدة جنديسابور في جنوب فارس، وكان أكثرهم من أسرة واحدة هم آل بختيشوع. ولهذه الأسرة على الطب العربي فضل لا ينكر. وكان فيهم من المهارة والذكاء وحسن التصرف والقدرة على إرضاء الخلفاء ما جعلهم أطباء البلاط المفضلين، وظلوا كذلك أكثر من قرن. ثم جاء المأمون فرأى بثاقب فكره أن يجعل الطب عربيا أصيلا، وأدرك



□ عملية قيصرية في مخطوطة للبيروني. رقم (١٦١) في أدينبورغ.

أن الترجمة المزدوجة من اليونانية إلى السوريانية ومن هـذه إلى العربيـة مصدر أخـطاء كثيرة وغموض واضطراب، فعمل على أن يكون من العرب مترجمون ينقلون الطب والعلم والفلسفة من اليونانية مباشرة، وكان على رأس هؤلاء المترجمين مترجم العرب الأكبر حنين بن إسحق، فأصبح للعـرب علم أصيل، وعـرفوا أرسـطو وأبقـراط وجالينـوس، وصادف ذلك هـوى في نفوسهم لأنهم كانوا معدين عقليا لاستقبال هذه العلوم. وسرعان ما أصبح الطب أصيلا فيهم، فتناولوه بالشرح والنقد، ومارسوه عملياً، وعرفوا منـه ما هـو صحيح، وما هو مخـالف للواقـع، وأصبح لعلمهم شخصية خاصة به، وإن ظل قـائماً عـلى الكليات التي وضعهـا الطبيعيون والفلاسفة. ولم يكن عندهم ما يدعوهم إلى الشك في صحة هذه الكليات، ولم يحاولوا التخلص منها أو تعديلها تعديلا ذا شأن، لأنها في نظرهم ثابتة ببراهين خـارجة عن العلوم الطبيـة. ولم يكن للطبيب من جهة ما هو طبيب ــ على حد قول ابن سينا ــ أن يحاول إثبـات هـذه الكليـات أو نفيها. واستقر العلم الطبي في أذهان العرب، فبدأ عهد جديد إزدهر فيه الطب إزدهاراً بالغاً، ونبغ فيه منهم كثيرون، ولم يبق الطب مقصوراً على النصارى النسطوريين[1].

ولم يكن في العالم المتحضر في ما بين منتصف القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) والقرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) علم طبي يعتد به إلا ما كان منه عند العرب. وما عند غيرهم لم يكن إلا نقلاً عنهم واحتذاءً لهم، ولم يشك أحد من أهل القرون الوسطى في تفوق العرب في الطب علماً وعملاً وتنظيماً. هذه حقيقة تاريخية لانزاع فيها.

بذل الرواد من مؤرخي العلوم جهدا بالغا في دراسة تاريخ الطب العربي. ووصفوا كيف نشأ في بغداد، وكيف نما وازدهر حتى بلغ أوجه في عهد الرازي وابن سينا، وكيف انتقل بعد ذلك إلى الأمم اللاتينية. وكانت الصـورة العامـة التي قدمها لنا أولئك الرواد واضحة ومقنعة، ولا تزال

مقبولة عند أكثر المشتغلين بتاريخ العلوم، لم يغير منها كثيرا ما كشف عنه المؤرخون المعاصرون على كثرة ما تعلمناه من هذه الكشوف.

وفي رأي كبار أساتذة الطب المحدثين أن ما عمله المؤرخون المحدثون عمل مجيد من الناحية التاريخية إلا أن فيه هنات وعيوبا من وجهة النظر الطبية. من ذلك أن مؤرخي العلوم — شأنهم في ذلك شأن علماء التاريخ العام — يقسمون موضوعات بحوثهم تقسيما زمنيا وقوميا. فتراهم يتحدثون عن الطب المصري القديم، والطب اليوناني الهلليني والهللينستي، والطب العربي. وهذا التقسيم يفيد كثيرا حين نريد أن نتتبع الأحداث العلمية، نربطها بعضها ببعض كي نتبين خطوات التطور العلمي في عصر بعينه عند أمة من الأمم. ولكننا نعتقد أن هناك اسلوبا آخر في كتابة تاريخ العلوم، أو على الأقل تاريخ الطب، قد يكون أعم وأقرب إلى إيضاح حقيقة التطور العلمي من الأسلوب الذي ألفناه. عندي أن الطب يصح أن يقسم إلى عصور يتميز كل عصر فيها بتفكير خاص. فيكون العصر الأول عصر الخبرة البحتة، والذي يليه عصر الخبرة المنظمة عقلياً، ثم يلي ذلك عصر التحليل والتجربة. ونكتفي هنا بالقول بأن الطب اليوناني والعربي يمثلان عصرا واحدا يتميز بتفكير متشابه جدا. والتشابه في التفكير لا يكون عرضا. وإنما حمل العرب لواء النهوض بالطب اليوناني لأنهم كانوا مهيئين لذلك من قبل علميا وعقليا.

ويخطىء المؤرخون الذين يقيسون التفوق الطبي بمقياس واحد هو عندهم جودة المؤلفات الطبية. والحق أن المؤرخين جميعا أشادوا بمؤلفات العرب الكبرى، لحسن تبويبها، ووضوح قضاياها، واستقرار منطقها. ولكن هذا الرأي قد يدعو إلى إغفال تفوق العرب في الطب الاكلينيكي. وقد يدعو إلى إغفال شأن البيمارستانات التي كان يعالج فيها المرضى، ويتدرب فيها الأطباء، فكانت بذلك مستشفيات تعليمية قريبة جداً من مثيلاتها في عصرنا الحديث. ولا يجوز لنا أن نغفل هذين الأمرين حين نحاول تقدير الطب العربي.

وهناك قضية أخرى خاض فيها قوم كثيرون، ولا أراها تستحق ما دار حولها من جدل: هل أضاف العرب شيئاً إلى الطب اليوناني؟

الواقع أن الأطباء العرب لم يحاولوا أن يغيروا من الأسس الفلسفية والطبيعية التي قام عليها الطب اليوناني. ويقول ابن سينا في كتابه القانون عند الحديث عن الأمزجة «يجب أن يتعلم الطبيب من الطبيعي أن المزاج المعتدل على هذا المعنى مما لا يجوز أصلاً»[٢]. ويقول في موضع آخر «والطبيب ليس عليه أن يتتبع المخرج إلى الحق من هذين الاختلافين بالبرهان. فليس له إليه سبيل من جهة ما هو طبيب، ولا يضيره في شيء من مباحثه وأعماله»[٣].

والأطباء اليونانيون أنفسهم لم يغيروا من أسس علومهم الطبية على مدى القرون التي خلت منذ أبقراط. فلماذا نريد من الأطباء العرب أن يغيروا منها؟ وخاصة أنهم لم يحفزهم شيء من خبرتهم إلى الشك في هذه الأسس، بل وجدوا فيها تعليلاً منطقياً ومعقولاً وواضحاً لكل ما عرض لهم من مشاكل.

الواقع أن كبار الأطباء العرب — مع إيمانهم بالكليات الطبية كما تصورها الإغريق، ومع إعجابهم الشديد بالفاضلين (أبقراط وجالينوس) لم يترددوا من التنبيه على خطئهما حين يخطئان. وللرازي مواقف ثلاثة من جالينوس وأبقراط، فهو يخطىء أبقراط في صراحة عنيفة من قوله بأن ماء الاستسقاء يصل إلى الرئة فيزيد السعال، ويصف ذلك الرأي بأنه قول «سمج»[٤]. ويخطئه في أن ذبول الجسم يزيد رواسب البول[٥]، ويقول: «والذي عندي أن ذلك خطأ لا يجوز أبداً»، ويعلل رأيه هذا تعليلاً لطيفاً فيقول: «إن جرم القلب أرطب من العروق والعظم، فإذا بلغت الحرارة أن تدهمها فهي إلى أن تذيب جرم القلب أولى، والموت قبل ذلك».

وفي بعض المواضع يرى الرازي أن يجرب ما قال به الفاضلان قبل أن يقطع في قولهما برأي. ونراه يتفق مع جالينوس في قوله عن الحميات — إن بعضها يكون عن ورم، وبعضها بغير ورم. ولكنه يعلق على ذلك بقوله:

«هذا تحقيق رأينا في أنا قسمنا الحميات إلى قسمين فقلنا الحميات: إما مرض وإما عرض»[٦]، هذا التقسيم هو ما يقول به الطب اليوم، وهو من غير شك أوضح وأصدق من قول جالينوس. على أنه ذكر مرة في كتاب الفصول بعد

□ الصفحة التمهيدية لتعليق «ابن نفيس» على تشريح القلب.

شرح رأي جالينوس «ينبغي أن يعمل على هذا فهو صحيح»، أما ما قد كتبناه فغلط»[7].

ويطول بنا القول إذا أردنا أن نقيم البرهان على استقلال الأطباء العرب بخبرتهم وتجاربهم وآرائهم، وإن ظلوا داخل الإطار النفسي العام الذي وضعه اليونان، والذي لم يجدوا فيه نقصاً ولا قصوراً.

قيل عن الطب العربي إنه ليس فيه جديد. ومن السهل أن ندحض هذه الدعوى بذكر عدد من الكشوف العربية المعروفة. وقد يدلنا البحث في بطون المخطوطات على كشوف أخرى. وعندنا أن هذا البحث عقيم. ذلك أن السعي إلى الكشف عن شيء جديد لمجرد الرغبة في ذلك أمر غير مقبول عند الأطباء إلا في حدود ما هو صالح، ولا يجوز أن يكون غرضاً لذاته. والشغف البالغ بالكشوف الجديدة نزعة خاصة بالمذهب التجريبي. إذ ليس من العسير أن نغير ظروف التجربة بطرق كثيرة، فيخرج لنا منها أشياء جديدة، وإن تكن غير ذات بال. والواقع أن العلم الحديث قد أسرف في هذا الاتجاه. وليس كله

خيرا. وقد تكون كثرة التفصيلات عائقا للتقدم العلمي الذي يجيء من طريق التركيب بعد التحليل. وتجربة كل جديد في الطب قد تجر إلى مزالق من سوء التقدير وفساد الحكم عند ممارسة علاج المرضى.

ولم يكن من أغراض الأطباء العرب أن يبرئوا القدماء في ما قالوه. وإنما عرضوا علم أبقراط وجالينوس على خبرتهم، فأبقوا على ما هو صواب، ونبذوا ما هو خطأ. وقد مضى العهد الذي كان فيه تاريخ العلوم ميدانا للمفاضلة بين الأمم. ويجب أن يكون تاريخ العلم تاريخا لتطور التفكير العلمي. والواقع أن جالينوس ظل في دائرة الكليات التي وضعها ابقراط إلا شيئا قليلا جدا.

وما فعله الرازي في الطب الأكلينكي، وما فعله ابن سينا في تنسيق العلم الطبي وإيضاحه أكثر كثيرا مما فعل «هيروفيليس» بطب أبقراط.

الطب اليوناني، والطب العربي يمثلان عصراً واحداً من التفكير الطبي، هو عصر الخبرة المنظمة عقليا، وهو عصر دام عشرين قرنا. وضع أبقراط كلياته ومنهجه، ثم فصله وفرع عليه جالينوس، ومارسه الرازي، ونسقه وأوضحه ابن سينا إيضاحاً ليس بعده مزيد، إلى أن عرف الناس العلم التجريبي وعلم الكيمياء.

عرف السريان طب ابقراط وجالينوس، ومارسوه عدة قرون، وكانت عندهم ترجمات لكتب الطب اليونانية، ولكن علمهم بهذا الطب ظل على ما هو عليه طوال تلك القرون.

أما العرب فقد عرفوا طب أبقراط وجالينوس، فازدهر فيهم، ونما نمواً كبيرا. وطبق الأطباء العرب العلم النظري تطبيقا جميلا. هذه ظواهر يجب أن نتدبرها لأنها لم تكن مصادفة، بل لها أسبابها ونتائجها.

وعندنا ما يحمل على الظن بأن الترجمات السوريانية لكتب أبقراط وجالينوس لم تكن دقيقة ولا واضحة. ولما بدأ العرب يتعلمون الطب نقلوا عن السوريانية بعض هذا العلم. والترجمات المزدوجة تدعو إلى الخلط والغموض. ولم يلبث العرب إلا قليلا ثم عرفوا ما في الترجمات السوريانية من ضعف، فعدلوا عنها، وأقبلوا على الكتب اليونانية ينقلونها إلى العربية مباشرة، وكان ذلك بدء استقامة التفكير العلمي عندهم. وسرعان ما ترك العرب طب السوريان واستقلوا عنهم وتفوقوا عليهم تفوقا ظاهرا من التأليف والممارسة.

شهد الناس في بغداد شيئا لم يعرفه التاريخ من قبل، شهدوا أمة فاتحة تملي شروط الصلح على المغلوبين فتطلب إليهم أن يقدموا لها كتب العلم والفلسفة والطب غرامة حربية، هذا ما فعله العرب في صلحهم مع الروم، وهذا وحده دليل قاطع على أن العرب كانوا على استعداد لقبول هذه العلوم. بل إني أذهب إلى أكثر من ذلك، فأقول إن التفكير العربي كان قد بلغ في تطوره حدا يجعله قريب الشبه جدا بالتفكير اليوناني، وهذا سر نموه عندهم. ولو لم يكن الأمر كذلك لبقي الطب اليوناني فيهم ضعيفاً قاصرا كما كان عند السوريان أو عند اللاتين في ساليرنو.

خيل إلى كثير من مؤرخي العلوم والفلسفة والطب أن الحضارة العربية كانت أرضاً جرداء حتى جاءها العلم اليوناني فرواها وأخصبها. وهذا خطأ. فالعرب كانت لهم علومهم الخاصة بهم. ساروا فيها شوطاً كبيراً ووضعوا لها أصولاً مستقرة ومناهج واضحة. وكان هذا من عملهم وحدهم على غير مثال.

من ذلك علمهم بالفقه، ولعله أتم العلوم العربية وأعرقها. ويدل تمكنهم من هذا العلم على نضج في الفكر لم يفطن إليه من تعرضوا لتاريخ العلوم الطبيعية وحدها عند العرب.

وكذلك علمهم باللغة والنحو والعروض. هذه علوم خاصة بالعرب، ولهم فيها بحوث عميقة وافية، وقواعد مستقرة، وشروح مستفيضة.

وعندي أن العرب أعدتهم علومهم الخاصة بهم، ومنهجهم فيها، وتقدمهم في أصولها وفروعها إلى استقبال العلوم التي لم يكن لهم بها عهد، والتي تقوم في جوهرها على تفكير قريب جدا من تفكيرهم. ومن هنا كان النجاح الذي أحرزته الفلسفة والطب والعلوم اليونانية لدى العرب. وليس صحيحا انهم تعلموا هذا النوع من التفكير بعد أن عرفوا الحضارة الاغريقية. بل الصحيح انهم عرفوا هذه الحضارة لتوافقها مع تفكيرهم حينذاك.

ومما زاد في إقبال العرب على الطب، وضوح مبادئه، ونجاح وسائل العلاج القائمة على هذه المبادىء. ولم يجدوا صعوبة في التوفيق بين خبرتهم العملية، والأسس الفكرية التي نقلوها فعلا من اليونان.

تاريخ الطب العربي تاريخ طبيعي يشبه في جوهره تاريخ النهضات العلمية عامة، سوى أن خطواته تعاقبت سراعاً. وكان تطوره على مراحل واضحة المعالم قام بها الأطباء العرب طبقة بعد طبقة. فكانت كل طبقة تبدأ من حيث انتهى علم من سبقوها وتزيد فيه. والتقدم العلمي في هذا التطور واضح ثابت، لا نحتاج في إثباته إلى ما روى القصاصون. وقد أفسد علينا هذا التاريخ ما رواه المؤرخون العرب من نوادر لا يمكن أن تكون صحيحة[8]. وأفسده كذلك مدح المادحين المسرفين الذين ظنوا أن الأطباء القدامى كانوا يعرفون من الطب ما لا نعرفه اليوم، وأفسده فوق ذلك قدح القادحين الذين ظنوا أنه كان علماً منقولاً لا حياة فيه ولا روح.

وأود أن أدلل على حياة الطب العربي، وقوته بدليل بيولوجي لا يدحض وهو النمو. والمطلع على طب حنا بن ماسويه، أو حنين بن إسحق (منتصف القرن الثامن الميلادي) وطب الرازي، وابن سينا لا يسعه إلا أن يعترف أن الطب العربي كانت له حياته القوية المستقلة.

سمع الخلفاء العباسيون الأولون الكثير عن الطب اليوناني، وخبروه فوجدوا علما عظيم الفائدة. ورأوا أنه علم لا يليق بالأمة العربية أن تغفله. ففعلوا ما تفعله كل أمة في أول نهضتها. استقدموا الخبراء، وأرسلوا البعثات إلى مواطن العلم الذي يريدون اقتباسه. فعلت مصر ذلك من أول القرن التاسع عشر، وتفعله كل الأمم الناهضة حتى الآن.

وسنقسم تاريخ الأطباء العرب إلى طبقات، ونذكر من كل طبقة أشهر رجالها وما اختصوا به.

الطبقة الأولى ــ عصر الرواد

أشهر رجال هذا العصر ــ فضلاً عن آل بختيشوع ــ حنا بن ماسويه. ترجم كتبا طبية نقلها عن ترجمات سوريانية، ولم يلبث العرب أن تركوها، وعكفوا على الترجمة من اليونانية رأسا. وروى الرواة أنه شرح قردا. كل هذا بعيد غامض. ولعل أكبر فضل له أنه أول عربي تولى الترجمة والتأليف والعلاج، وإن لم يبلغ في أيها مبلغاً كبيراً.

أمر هارون الرشيد بجمع كل ما يمكن جمعه من الكتب اليونانية والسوريانية من الطب وغيره، محاولاً بذلك أن يتأصل العلم في بغداد، وأن يعلم العرب هذه العلوم، فلا يكون اعتمادهم في تقدمهم على من يستقدمونهم من الأجانب.

الطبقة الثانية ــ عصر الترجمة

كان هذا في عصر المأمون، ومن جاء بعده من الخلفاء، وكان في بغداد حينذاك ثلاثة رهط كل رهط ينسب إلى بلد بعينه، وكان لكل منهم في بغداد عمل محدد أما الرهط الأول، فكان قوامه أهل جند يسابور، وعلى رأسهم «جبرائيل بن بختيشوع»، كان عملهم مداواة الخلفاء والأمراء، وكانوا على ذلك قادرين.

أما الرهط الثاني فكانوا من أهل الحيرة وعلى رأسهم «حنين بن إسحاق»، وهو من أكبر نوابغ ذلك العصر، وكان معه ابنه إسحق وابن أخته حبيش.

أراد حنين بن إسحق، أن يتعلم الطب، وتتلمذ على حنا بن ماسويه فلما تبينت له قدرته على التفقه في اللغات عكف عليها وأتقن السوريانية، ثم رحل إلى اليونان وحذق لغتها، ثم ذهب إلى البصرة وتلقى العربية على خير علمائها. وكان طبيعياً أن يعهد إليه المأمون برئاسة بيت الحكمة، وقام حنين بترجمة الكتب الطبية اليونانية ترجمة متقنة دقيقة. والترجمة في مثل هذه الحالات عمل جليل يحتاج إلى كثير من الذكاء والعلم. ذلك أن المترجم لا يستطيع أن يترجم الكتب العلمية إلا إذا كان قادراً على فهم مادتها. فكان على حنين أن يفهم الطب حتى تكون ترجمته لأبقراط وجالينوس ترجمة صحيحة مفهومة.

ولم تكن الصعوبات التي واجهت حنين بن إسحق ورجاله الذين عملوا معه في بيت الحكمة بالشيء القليل، كان عليه أن يترجم المصطلحات العلمية، ولم يعجزه ذلك، فكان يختار الكلمات

العربية للمصطلحات التي لا يتم فهمها بغير تفهم معناها كالمزاج والأخلاط والقوى والأركان. أما المصطلحات التي لا يتوقف فهمها على فهم معنى ألفاظها، فقد اختار أن يعربها فعرب لفيثاغورس والباسبليق والقيفال وغير ذلك. وكان موفقاً كل التوفيق في هذا العمل.

حفظ للعربية ما استطاعت أن تحتفظ به، وأبقى اللغة العلمية بعيدة عن لغة العامة فيما تتناول من أمور خاصة بها.

عرف أهل بغداد لحنين بن إسحق فضله على نهضتهم، وقدروه أكبر التقدير وبلغ من المجد العلمي غايته، وأصبح المرجع الأكبر للمترجمين جميعاً — بدا لنا على ذلك أن رجلا اسمه إسطفان بن بسيل — قام بترجمة كتاب «ديسقوريدس» في المادة الطبية «الأقرباذين»، وعرض الكتاب على «حنين بن إسحق» فأقره. ولعل كثيرا من المترجمين كانوا يفعلون ذلك، فكان إقرار «حنين» لترجمة كتاب ما خير دليل على صواب الترجمة. ويقال إن «حنين» مارس الطب والعلاج، ولا احسبه فعل ذلك كثيرا. ولا أظن أن عمله في بيت الحكمة أتاح له من الوقت ما يسمح بفحص المرضى ومداواتهم. ولحنين مؤلفات طبية أشهرها عشر مقالات في طب العين. ولم يكن من عمل حنين أن يؤلف في الطب شيئاً يفوق ما عرفه اليونانيون، وما عرفه هو عندما نقل كتبهم إلى العربية.

أما الرهط الثالث فكان من أهل «حران» وكان على رأسهم «ثابت بن قرة» وابنه «سنان» وكلاهما كان طبيبا ممارسا. وكان «ثابت» واسع الاطلاع في كل علم. ولم يقصر همه على ترجمة الكتب الطبية. نقل إلى العربية كتبا في الهندسة. والفلك، ولعله لم يبلغ الغاية في علم بعينه، ولكن إلمامه بكثير من العلوم جعله موضع التقدير والاحترام عند معاصريه. أما ابنه «سنان» فكان أقدر منه، وأعلم بالطب. يدلنا على ذلك أن الخليفة المقتدر عهد إليه بامتحان الراغبين في تعاطي صناعة الطب قبل أن يباح لهم علاج المرضى، وهو أمر لا يعهد به إلا لكبار الأطباء الراسخين في العلم.

وليس من الاسراف أن نقارن هذه الطبقة برجال النهضة في مصر في أواسط القرن التاسع عشر. وعندي أن حنين بن إسحق يشبه إلى حد كبير «رفاعة الطهطاوي» في الذكاء والنشأة والدور الذي قام به في النهضة العلمية عن طريق الترجمة.

الطبقة الثالثة — عصر التأليف

استقرت العلوم والفلسفة في بغداد، ونشأ جيل من العرب فهم هذه العلوم فهما حقيقيا، وعلى رأس هذه الطبقة، سنان بن ثابت، وعلي بن زين الطبري، وبهما بدأ عهد التأليف العربي المستقل. وقد بدأ متعثرا قلقا ولكنه ما لبث أن تأصل واستقر ونما.

ولما استوثق الأطباء العرب من علمهم بالطب اليوناني، وأصبحوا يتحدثون بطلاقة عن الاستقصات وإيلاوس، وعلموا أنهم ادركوا كل ما في ذلك الطب من أسرار، رأوا أن يؤلفوا كتبا على غرار المؤلفات اليونانية لا تكون منقولة عنها. وكثير من هذا الذي نسميه تأليفاً لم يكن سوى مذكرات الطلبة ينقلونها عن أساتذتهم. وعندنا عدد كبير من هذه المؤلفات الصغيرة، ولسنا في حاجة إلى البحث فيها تفصيلا. وسنقصر الكلام على ما كتبه كبار المؤلفين.

كان أول المؤلفين العرب الذين نهجوا هذا المنهج علي بن زين الطبري كتب كتابه الذي سماه «فردوس الحكمة» وقسمه إلى أبواب ومقالات. وليس فيه تجديد كبير، ولكنه على كل حال تأليف يدل على ثقة المؤلف بعلمه، تلك الثقة التي ظهرت واضحة عند الأطباء العرب في ذلك العصر. وكانت هذه الكتب شيئاً جديداً على الثقافة لعلمية العربية.

الطبقة الرابعة — العصر الذهبي

الرازي (المتوفي حوالي عام ٩٣٢م) اكبر رجال هذه الطبقة، وإليه انتهى الطب الاكلينيكي عند العرب، ولعله يكون أكبر الأطباء الذين نشأوا على منهج الخبرة المنظمة عقلياً، وهو المنهج الذي بدأه أبقراط، دام عشرين قرنا، وهو ما يصح أن نسميه الطب اليوناني العربي أو العصر الوسيط في التفكير الطبي العالمي.

وسنقف قليلا عند الرازي، لا لنشيد بذكره فحسب، بل لأن حياته تبين لنا صفات الطب

العربي على أكمل صورة وأرقاها.

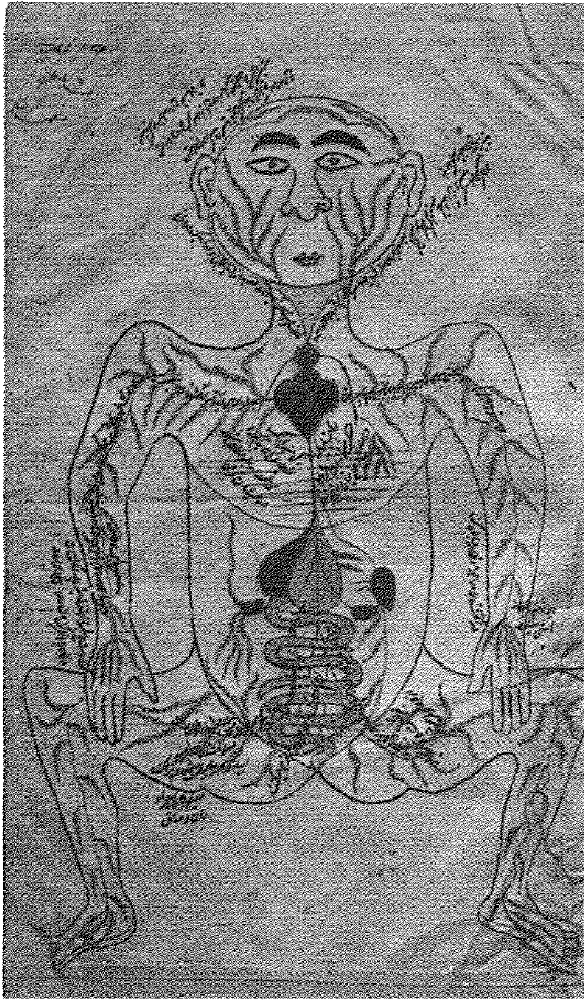
أعد الرازي نفسه إعداداً حسناً: درس الطب اليوناني دراسة وافية إذ كان رأيه أن العلم النظري أساس الطب التطبيقي، ويجب أن يسبقه، فهو يقول في كتاب الفصول «إن قليل المشاهدة المطلع على الكتب خير ممن لم يعرف الكتب على ألا يكون عديم المشاهدة»، ويقول: «من قرأ كتب أبقراط ولم يخدم خير ممن خدم ولم يقرأ كتب أبقراط»، ويقول في امتحان الطبيب «أول من تسأله عن التشريح[٩]، ومنافع الأعضاء، وهل عنده علم بالقياس، وحسن فهم ودراية في معرفة كتب القدماء. فإن لم يكن عنده فليس بك حاجة إلى امتحانه في المرضى»؛ وكان كثير الاطلاع جداً، وكان ينصح الأطباء بذلك. وعلل قوله تعليلاً جميلاً حيث يقول: «إنما أدرك من هذه الصناعة إلى هذه الغاية في ألوف من السنين ألوف من الرجال. فإذا اقتدى المقتدي أثرهم صار كمن أدركهم كلهم في زمان قصير، وصار كمن قد عمر تلك السنين».

ونراه يضع قواعد للمفاضلة بين طبيب القياس وطبيب التجربة، أما هو فقد جمع بين الاطلاع والخبرة. ثم تولى إدارة البيمارستان العضدي الشهير فتجلت مواهبه أستاذاً ومؤلفاً وممارساً.

كان نظام العمل في البيمارستان مستقراً، تعرض الحالات على الناشئين من الأطباء، فإن لم يعرفوها عرضت على من هم أكبر منهم، فإن عجزوا عن تناولها عرضوها على الرازي. وكان يبدي رأيه في هذه الحالات الصعبة مسبباً.

كان له نظام مستقر في تعليم الطب النظري. فتراه يقول: «أطلب من كل من يرض هذه الرؤوس: التعريف، ثم أطلب العلة والسبب، ثم أطلب هل ينقسم لسببه أو نوعه، ثم أطلب تفصيل كل قسم من الآخر، ثم العلاج ثم الاستعداد».

وله رأي واضح في المتعنتين من المتحنين للأطباء فيقول: «إن الذي يروم من الطبيب بأن يبين له بالنبض بين الرجال والنساء، والخصيان والصبيان قد طلب أمداً غير ممكن في الأكثر. وكذلك أرى أن المتحن للطبيب بالتفرقة بين ماء الإنسان، وبعض المياه التي شبهت بها جاهل»[١٠].



□ رسم تفصيلي تشريحي لجسم الانسان.

أما الرازي المؤلف فيجب أن نعرف له نوعين من التأليف: كتبه في العلم النظري واضحة منسقة مبوبة، وكتبه في الطب الإكلينكي، وهي مجموعة مشاهداته، وهي بطبيعتها ليست منسقة. وقد عاب عليها اضطرابها والخلط الواضح فيها من ظنوا أنها كتب في علم الطب. وليست من هذه في شيء.

ذكر الرازي في أول كتابه «الفصول» «سبب تأليفه له فقال: «دعاني ما وجدت عليه فصول أبقراط من الاختلاط، وعدم النظام والغموض، والتقصير عن ذكر جوامع الصناعة كلها أو جلها، وما أعلمه من سهولة حفظ الفصول وعلقها بالنفوس، إلى أن أذكر جوامع الصناعة الطبية عن طريق الفصول ليكون مدخلا إلى الصناعة، وطريقا للمتعلمين»[١١]. ويقول عن جالينوس: «كتب الفاضل جالينوس ستة عشر مقالا في النبض. وقد جمعنا نحن أيضاً باختصار معاني



□ جدول بمحتويات كتاب «كامل الصناعات» لعلي بن عباس (٨٤١هـ).

هذا الكتاب، وطرحنا عنه ما حسبنا أنه يستغنى عنه»[١٢].

ويعيب على أبقراط غموضه وإيجازه. ويعيب على جالينوس إطنابه البالغ. وقد ردد تلميذه علي بن العباس هذا الرأي في أول كتابه «كامل الصناعة».

على أن مجد الرازي يقوم في الواقع على علمه بالطب العملي، وخدمته فيه، وما ابتدعه من تدوين المشاهدات والتعليق عليها. وهو عمل لم يسبق إليه من قبل. جمع ذلك كله في كتاب «الحاوي». وإذا قدرنا أن الحاوي ليس كتاباً بالمعنى المألوف، وأنه ليس إلا سجلاً لمشاهداته، فلن نجد غرابة في ضخامته، ونقص تربيته، واختلاف أسلوبه، فقد كان هو وتلاميذه يدونون المشاهدات دون ترتيب خاص.

ويكفي أن نشير هنا إلى الخصائص التي يتمتع بها الرازي من حيث هو طبيب معالج. ومن أظهر صفاته استقصاؤه أعراض المريض. وهو يغضب غضباً شديداً عندما يخطىء، ويكون خطأه راجعا إلى نقص من سؤال المريض ويقول عند ذلك: «يجب ألا نغفل غاية التقصي». ومن جميل قوله إنه «يضع ترتيبا للعلامات على قدر أهميتها»، وهو ما نسميه «هيراوشبة العلامات»، وهو يقول: «إن العلامات تختلف في دلالتها على قدر وقت حدوثها من تاريخ المرض». وهو يكبرأمر تقدمه المعرفة، ويضع لها قواعد فتراه يقول: «إجمع العلامات الجيدة والرديئة بمراتب قواها في ورقة وراقبها دواما».

وله عناية خاصة بالتشخيص المقارن. وله قول جيد في أمراض الجهاز البولي والقولنج والحميات، وهو أول من فرق بين مرض الحصبة، ومرض الجدري.

وليس لنا أن ننسب إلى الأطباء العرب معرفة بالعلم التجريبي كما نعرفه اليوم، ولكننا نرى في أقوال الرازي ما يدل على فهمه لبعض أسس التجربة بالمعنى الحديث. فنراه يقول: «فمتى رأيت هذه العلامات، فتقدم في القصد، فإني قد خلصت جماعة به. وتركت متعمدا جماعة أستدني بذلك رأيا فسر سموا كلهم»[١٣]. هذا القول يدل على إدراكه معنى (Controls) في العلم التجريبي، وإن يكن إدراكا غامضا.

على أننا يجب أن نذكر أن القدماء حين يتحدثون عن التجربة يعنون الخبرة.

ثم جاء علي بن العباس (المتوفي حوالي عام ٩٩٤م). وهو من تلاميذ الرازي، فوجد لديه علما نظريا غزيرا وعلما عمليا مستقرا. فبدا له أن يؤلف كتابا جامعا في الطب يكون أوضح من كتب أبقراط التي كان اختصارها سببا في غموضها، ويكون أقل إطنابا من كتب جالينوس. وهذا تطور طبيعي في تقدم الطب، ذلك أن كتب المراجع لا تكون لها قيمة إلا أن تكون مصداقا لخبرة مستقرة، وعلم غزير. وليس تأليفها بالأمر الهين لما تحتاج إليه من حسن الاختيار والتبويب والتنظيم، وخاصة ما يجب على مؤلفيها من تحديد ما هو نافع دائما فيؤكدونه، وما لا ينفع إلا نادرا فيتركونه.

كتب علي بن العباس كتابه «كامل الصناعة» وهو كتاب جيد. وكان أول ما ترجم إلى اللاتينية

من الكتب العربية حيث عرف بالكتاب الملكي.

ثم جاء ابن سينا (المتوفي حوالي عام ١٠٣٧م)، وهو من أذكياء العالم، وكتب كتاب «القانون»، وكان ابن سينا يفضل الأطباء بأنه فيلسوف ممتاز. ويفضل الفلاسفة بأنه طبيب ممتاز، جمع في كتابه بين أسلوب الفلسفة وحقائق الطب.

والواقع أن العرب كان فيهم الأطباء الفلاسفة، والفلاسفة الأطباء، ولا أريد أن أغض من قدر الفلسفة عند الأولين، ولا من قدر الطب عند الآخرين. ولكني أقول أن الفريق الأول كان شغلهم الشاغل — التشخيص — والعلاج، والتفريق بين الأمراض المتشابهة، وحسن تدبير المرضى، وتجنب الأخطاء في ذلك كله، يلتمسون ذلك عن طريق التفكير المنظم، والفريق الثاني كان أكبر همهم تنسيق الحقائق، واستقامة المنطق، وربط الأسباب بالمسببات، وصدق التقسيم والتبويب، ووضوح ذلك كله، يؤكدون أمورا قد لا يعنى بها الطبيب في عمله حين يرون ذلك ضروريا للعرض المنطقي الكامل.

وابن سينا بلغ الغاية في الفلسفة والطب، ولكنه مع ذلك كان أكثر ميلا بطبعه إلى الفلسفة. ومن هنا كان كتابه مقبولا عند المفكرين والدارسين، على حين أن كتب الرازي كانت أكثر قبولا عند الممارسين خاصة. ولعل ابن سينا لم يتفرغ لفحص الرضى واستنباط خير علاج لهم. ولا يعني هذا أن علمه بالطب كان ناقصا. ولكنه يعني أن تصوره للطب كان تصورا يليق بفيلسوف مثله. ولعله كان يرى ما كان يعتقده أكثر الناس إلى عهد قريب — أن ثقافة الطبيب الممارس ثقافة مهنية، وأن فلسفة الطب أصدق وأرقى من ممارسته.

وكتاب «القانون» من الكتب العالمية مثله كمثل فلسفة أرسطو، وهندسة أوقليدس، والماجسطي في الفلك، وكتاب سيبويه في النحو. هذه الكتب تمثل غاية العلم القائم على نوع خاص من التفكير. فيها حل لكل المشاكل المتعلقة بموضوعها بحيث لا يجد دارسوها حاجة إلى الزيادة فيها أو تغييرها. وهذه من خصائص العلم القويم القائم على كليات محدودة، فكان من الممكن للعباقرة أن يبلغوا غايته. أما العلم الحديث الذي يقوم على مشاهدات وتجارب فمن المستحيل أن يستوعبه عقل رجل واحد.

قصرنا بحثنا حتى الآن على المؤلفات الطبية، ولا يصح أن نهمل ما حققه المشتغلون بالعقاقير، فقد بدءوا هم كذلك بترجمة «ديوسقوريدس»، ثم فاقوه. جاب العشابون العرب الأمصار يصفون نباتاتها وخواصها. وكتبت كتب جيدة في العقاقير، وأشهرها ما كتبه ابن البيطار وداود الأنطاكي.

ولنذكر أن نهضة طبية مماثلة قامت في الأندلس، وتطورت على غرار طب الشرق، سوى أنهم عنوا عناية خاصة بالجراحة، وكتب فيها الزهراوي كتبا قيمة وصف فيها آلات جراحية من اختراعه، ووصف عمليات كثيرة وصفا دقيقا كالشق، والكي، والعقد، وتفتيت الحصى.

ومع أن الطب العربي لم يتقدم كثيرا بعد، ابن سينا وكتابه، إلا أن فن العلاج في البيمارستانات ظل يتقدم، وتحسنت حال المرضى في هذه المؤسسات وعني بها الأمراء والأطباء فبلغت مبلغاً تحدث به الرحالون.

ويلاحظ في النهضات العلمية أنها حين تبلغ الكمال تظهر فيها علامات الثورة على تعاليمها الكلاسيكية. ويبدأ الانتفاض عليها بالشك في بعض مسلماتها. من ذلك قول «البغدادي»: «إن جالينوس أخطأ في قوله أن الفك الأسفل عظمتان، وهو لا يكون إلا عظمة واحدة». وقال «ابن النفيس»: «إن جالينوس أخطأ في قوله إن بين البطين الأيمن من القلب والبطين الأيسر فتحة واحدة أو فتحات صغيرة» ووصف ابن النفيس — الدورة الدموية الصغرى وصفا صحيحا مخالفا في ذلك ما قال به الناس جميعا من قبله.

كان اعتراض العرب على جالينوس أكثره في أمور العلاج حين كانت خبرتهم تختلف عما قال به جالينوس. أما أن يكون جالينوس مخطئاً في وصف حقائق التشريح فالقول بذلك كان جرأة لم يقدم عليها أحد قبل ابن النفيس والبغدادي.

كانت هذه حال العلوم الطبية في الدولة الإسلامية الممتدة من فارس إلى الأندلس طوال سبعة قرون.

سمعت الأمم اللاتينية بتقدم الطب في هذه الدولة، وعلمت عنه الشيء الكثير. فجاءوا إلى

البلاد العربية يتعلمون فيها الطب على يد مشاهير الأساتذة في هذا الفن العظيم.

اتصلت الأمم اللاتينية بالحضارة العربية في ثلاثة مواضع:

في الشرق ــ أثناء الحروب الصليبية، ثم في صقلية، ثم في الأندلس. وتم هذا الاتصال في عصور مختلفة. وكان طبيعياً أن تفيد الأمم اللاتينية من الحضارة المزدهرة حينذاك. ولكنهم لم يفيدوا كثيرا من التقائهم بالعرب في أثناء الحروب الصليبية. أما في صقلية، فكان أثر العلوم العربية أكبر، ولكنه كان مضطرباً. أما في الأندلس فكان الاتصال وثيقا نافعا. ■

«الهوامش»

(١) يدل على ذلك ما ذكره الجاحظ في كتاب البخلاء من أن طبيبا اسمه أسد بن جاني قال له قائل: «السنة وبئة والأمراض فاشية وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن اين تؤتى من هذا الكساد؟ فقال: أما واحدة فإني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل ان اتطبب، لا بل قبل أن أخلق، ان المسلمين لا يفلحون في الطب، واسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون صليبا، او مرامل، أو يوحنا، وكنيتي ابو الحارث، وكان يجب ان تكون أبو عيسى او أبو زكريا او أبو ابراهيم، وعليّ رداء قطن ابيض، وكان ينبغي ان يكون رداء حرير أسود، ولفظي لفظ عربي، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة اهل جنديسابور».

(٢) ابن سينا، القانون، جزء ١، ص ٦.

(٣) نفس المصدر، ص ٢١.

(٤) مقالة «طب الرازي»، مجلة معهد المخطوطات العربية، الجزء الأول من المجلد السابع، ص ١٣٦.

(٥) نفس المصدر، ص ١٣٦.

(٦) الفصول، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد السابع، الجزء الأول، ص ٨٤.

(٧) نفس المصدر، ص ١٣٧.

(٨) روى في بعض الكتب العربية والفارسية أن الرازي جاءه مريض ينفث دما، فسأله عن رحلته وعلم منه انه شرب من عين في الطريق. فقدر أنه شرب مع الماء علقة. فسقاه طحلبا حتى انصرفت العلقة عن الالتصاق بجدار معدته لتأكل الطحلب وهو غذاؤها الطبيعي. ثم سقاه مقيئاً شديدا فخرجت العلقة وشفي المريض. هذا بالطبع خرافة. ولكن له اصلا ذلك أن الرازي يروى في بعض مشاهداته أن رجلا كان يقيء دما. ثم استفرغ مدة استفراغا شديدا، فخرجت قطعة لحم من معدته. وقدر الرازي أن هذه القطعة كان لها ساق دقيقة انقطعت عند القيء.. وواضح أن الحالة على هذا الوصف لا تكون إلا ورمة: (Polyp). وتصور الرازي لها صحيح تماما. ولكن القصاصين جعلوا من هذه الحالة الطريفة خرافة تقوم على العلق والطحلب.

(٩) معهد المخطوطات العربية ــ الجزء الأول من المجلد السابع، ص ١٣٥.

(١٠) من كتاب «محنة الطبيب»، نقلا عن مقالة طب الرازي ــ مجلة معهد المخطوطات العربية، الجزء الأول من المجلد السابع، ص ١٤٠.

(١١) نفس المصدر، ص ١١.

(١٢) نفس المصدر، ص ٧٥.

(١٣) مقالة طب الرازي، المصدر السابق، ص ١٤٤.



تعلموا العلم

● قال معاذ بن جبل رضي الله عنه:

تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وعبادة، ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، والانيس في الوحشة، والصاحب في الخلوة، والدليل على السراء والضراء والزين عند الاخلاء، والقرب عند الغرباء يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخلف قادة يقتدي بهم، وأئمة في الخلق تقتص اثارهم، وينتهي إلى رأيهم، وترغب الملائكة في حبهم بأجنحتها تمسحهم، حتى كل رطب ويابس لهم، يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه واسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى ونور الابصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأضرار، ومجالسة الملوك، والدرجات العلى، في الدنيا والآخرة، والفكر به يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عز وجل، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، امام العمل والعمل تابعه، يلهمه الصداء ويحرمه الأشقياء.



كيف رأيتم فراستي في الأعرابي*

قدم على الحجاج ابن عم له من البادية، فنظر إليه يولي الناس؛ فقال له: أيها الأمير؛ لم لا توليني بعض هذا الحضر؟ فقال الحجاج: هؤلاء يكتبون ويحسبون وأنت لا تحسب ولا تكتب!

فغضب الأعرابي، وقال: بلى، إني لأحسب منهم حسباً[1]، وأكتب منهم كتباً! فقال الحجاج: فإن كان كما تزعم فاقسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس، فما زال يقول: ثلاثة دراهم بين أربعة؛ ثلاثة بين أربعة، لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء! كم هم أيها الأمير؟ قال: هم أربعة، قال: نعم! أيها الأمير، قد وقفت على الحساب، لكل واحد منهم درهم، وأنا أعطي الرابع منهم درهماً من عندي! وضرب بيده إلى تكته[2]، فاستخرج منها درهماً، وقال: أيكم الرابع؟ فوالله ما رأيت كاليوم زوراً مثل حساب هؤلاء الحضريين!

فضحك الحجاج ومن معه، وذهب بهم الضحك كل مذهب، ثم قال الحجاج: إن اهل أصبهان أخروا خراجهم ثلاث سنين، كلما أتاهم والٍ أعجزوه، فلأرمينهم بهذا، فأخلق به أن ينجب!

فكتب له عهده على اصبهان!

فلما خرج استقبله أهل اصبهان واستبشروا به وأقبلو عليه يقبلون يده ورجله وقالوا: أعرابي بدوي! ما يكون منه!

فلما أكثروا عليه، قال: أما يشغلكم ما اخرجني له الأمير؟

فلما استقر في داره بأصبهان جمع أهلها، فقال: ما لكم تعصون ربكم وتغضبون أميركم، وتنقصون خراجكم؟ فقال قائلهم: جور من كان قبلك وظلم من ظلم! قال: فما الأمر الذي فيه صلاحكم؟ فقالوا تؤخرنا بالخراج ثمانية أشهر، ونجمعه لك! قال: لكم عشرة وتأتوني بعشرة ضمناء.

فأتوه بهم، فلما توثق منهم أمهلهم؛ وكلما قرب الوقت رآهم غير مكترثين لما ندبوا[3] إليه من الأجل! وطال به ذلك، فجمع الضمناء! وقال لهم: المال! فقالوا: أصابنا من الآفة ما نقض ذلك!

فلما رأى ذلك منهم آلى ألا يفطر — وكان في شهر رمضان — حتى يجمع ماله أو يضرب أعناقهم!

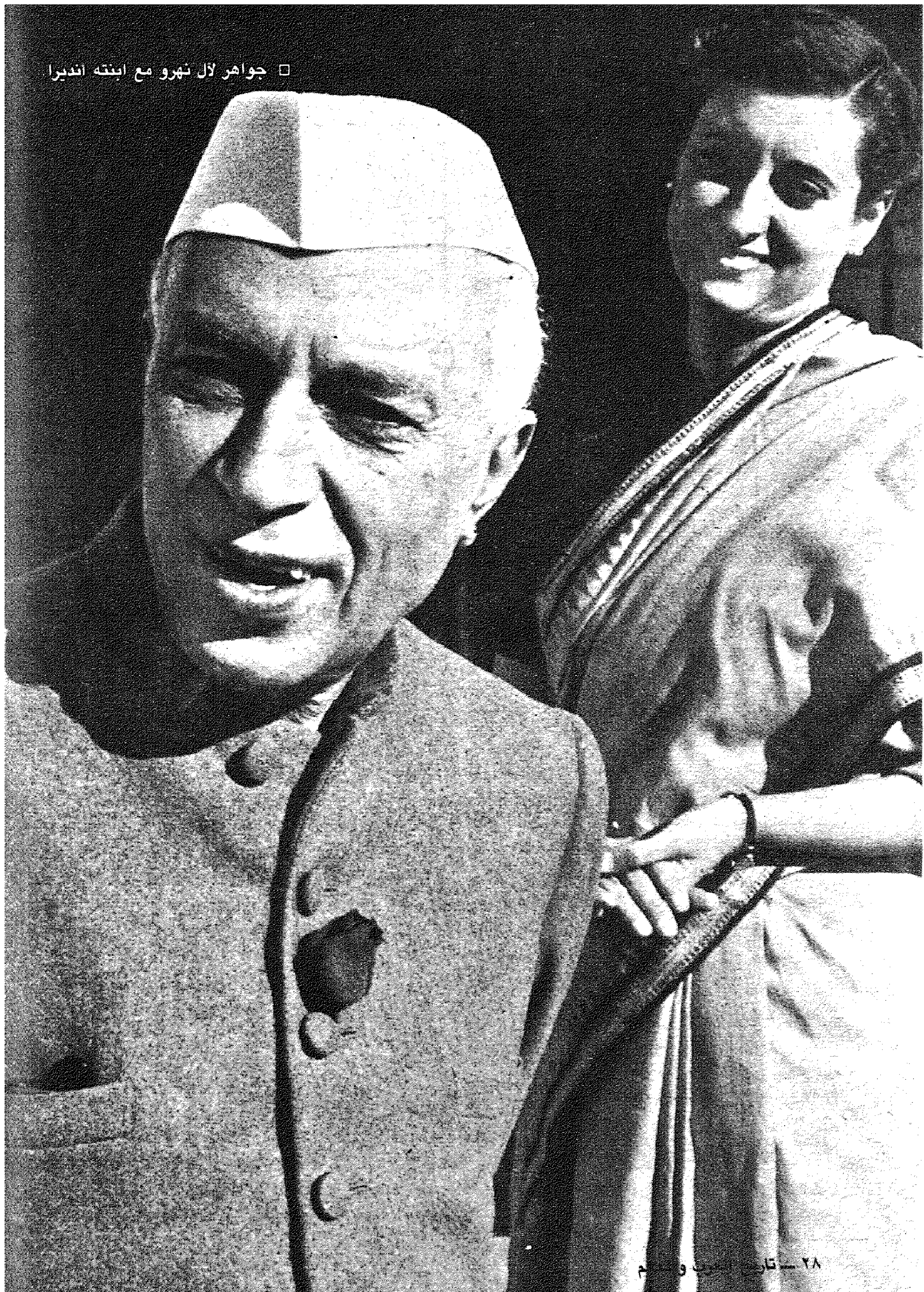
ثم قدم أحدهم وضرب عنقه، وكتب عليه. فلان ابن فلان أدى ما عليه! وجعل رأسه في بدرة[4]، وختم عليها، ثم قدم الثاني ففعل به مثل ذلك!

فلما رأى القوم الرؤوس تجز، وتجعل في الأكياس بدلاً من البدر، قالوا: أيها الأمير؛ توقف علينا حتى نحضر لك المال؛ ففعل، فأحضروه في أسرع وقت!

فبلغ ذلك الحجاج فقال. إنا معاشر آل محمد — يعني جدّه — ولدنا نجيب، فكيف رأيتم فراستي[5] في الأعرابي؟!

ولم يزل والياً عليها حتى مات الحجاج! ■

* المسعودي: ٢ — ١٦٠.
(١) حسابا.
(٢) التكة: رباط السراويل.
(٣) ندب القوم إلى الأمر ندباً: دعاهم وحثهم.
(٤) البدرة: كيس يوضع فيه عشرة آلاف درهم.
(٥) الفراسة: البصر بالشيء والعلم به.



□ جواهر لال نهرو مع ابنته أنديرا.

من رسائل نهرو إلى ابنته

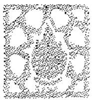
كيف فرضت انكلترا الأفيون على الصين؟

جواهر لال نهرو

لعل من المفيد وقد اصبح كلام نهرو الذي يمثل مرحلة تاريخية معينة في نضال شعوب العالم الثالث ـ وثيقة تاريخية بحد ذاته ـ لعل من المفيد ان نسترجع نموذجا من رؤية تاريخية للعلاقة بين الشرق والغرب وكيف يتمثل التاريخ، تاريخ الاستعمار وتاريخ العالم الثالث في فكر القيادات السياسية الشعبية لتلك المرحلة من تاريخ نضال شعوب آسيا.

وما ننشره فيما يلي هو عبارة عن رسائل لنهرو موجهة الى ابنته انديرا بتاريخ ١٤ ك١ (ديسمبر) ١٩٣٢.

١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢



لقد حدثتك في اسهاب عن التأثير الذي احدثته الثورة الصناعية وثورة الآلات الحديثة في الهند، كما حدثتك عن اساليب الاستعمار البريطاني في بلادنا.

ولكوني هنديا فأنا وطني متعصب لوطني، ومن اجل ذلك لا أستطيع ان ارى الأشياء الا بعين الوطني المتشيع لوطنه. ولكني حاولت، كما اود لك ان تحاولي، النظر الى هذه القضايا نظرة العالم الذي يختبر الحقائق بلا محاباة، لا نظرة الوطني الذي يركز كل همه في البرهنة على القضية من جانب واحد.

فالوطنية أو القومية حسنة في موضعها، ولكنها صديق لا يعتمد عليه ومؤرخ خطر لا يؤمن جانبه، فهي تعمينا عن رؤية كثير من الأحداث، وتشوه الحقيقة.. احيانا، ولا سيما اذا كانت هذه الحقيقة تتصل بنا أو بوطننا. ولهذا علينا ان نكون في غاية اليقظة والحذر عندما ننظر في تاريخ الهند الحديث، فلا نلقي بكل اللوم والتبعة في ضعفنا وتخلفنا ومتاعبنا على الانجليز.

لقد رأينا من قبل كيف استغل الهند رجال الصناعة ورجال المال الانجليز في القرن التاسع عشر. والآن دعينا ننتقل الى الصين اكبر قطر في آسيا، وصديق الهند القديم، والذي يعتبر من اعرق الشعوب واقدمها. فهنا سيطالعنا نوع آخر من استغلال الغرب.

فالصين لم يقدر عليها ان تصير مستعمرة او تابعة لدولة اوروبية كما حدث للهند. اجل، نجت الصين من هذا القدر، بفضل ما اتيح لها من حكومة مركزية قوية نوعا ما، حكومة استطاعت ان تبقي على البلاد متماسكة حتى قبيل منتصف القرن التاسع عشر.

اما الهند، كما رأينا، فقد تفتتت الى اجزاء قبل هذا التاريخ بأكثر من مائة سنة، وعلى التحديد عندما سقطت الامبراطورية المغولية.

ومع ان الصين بدا عليها الضعف في القرن التاسع عشر، فانها ظلت متماسكة الى النهاية. وتحاسد الدول الأجنبية وغيرة بعضها من بعض منعتها من ان تتدخل في شؤون الصين وتنتفع كثيرا من ضعفها.

وقد اخبرتك في رسالتي الرابعة والتسعين ان الانجليز قاموا بمحاولات كثيرة لزيادة تجارتهم مع الصين. وفي هذه الرسالة ايضا اقتبست لك نبذة طويلة[1] من الرسالة الشامخة التي رد بها امبراطور الصين «تشين لون» على رسالة ملك الانجليز جورج الثالث التي بعث بها مع السفارة التي اوفدها لانشاء علاقات تجارية بين الصين وانجلترة.

لقد حدث ذلك عام ١٧٩٢. وهذا التاريخ سيذكرك بالفترات العاصفة التي مرت بها اوروبا وقتئذ. سيذكرك بفترة الثورة الفرنسية، وفترة نابليون والحروب النابليونية، وبانشغال انجلترة بقتالها المستميت ضد نابليون. ولهذا لم يكن هناك بالنسبة لانجلترة تفكير فالتوسع التجاري مع الصين حتى سقط نابليون وتنفست هي الصعداء.

وفي عام ١٨١٦ نرى انجلترة توفد بعثة اخرى الى الصين، ولكن حدث ان قامت صعوبة بسبب طريقة استقبال هذه البعثة، فقد كان مفروضا ان تسجد البعثة امام الامبراطور اظهارا للخضوع والذلة، ولكن المبعوث البريطاني لورد امهيرست امتنع عن ذلك فرفض امبراطور الصين مقابلته وامره بالرجوع الى بلاده. وعلى ذلك لم تكلل مهمة هذه البعثة بالنجاح.

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت هناك تجارة جديدة تنمو نموا سريعا، هي تجارة الافيون. وقد لا يكون صحيحا ان تسمى هذه تجارة جديدة، لأن الصين كانت تستورد الافيون من الهند منذ القرن الخامس عشر. وقد ارسلت الهند الى الصين في الماضي اشياء كثيرة حسنة، وكان الأفيون في الحقيقة احد الأشياء السيئة التي ارسلتها الهند اليها. ولكن هذه التجارة كانت محدودة، ثم اخذت تنمو وتنتشر في القرن التاسع عشر على ايدي الاوروبيين، ولا سيما شركة الهند الشرقية التي احتكرت التجارة البريطانية.

ويقال ان الهولنديين في الشرق اعتادوا ان يخلطوا الأفيون بتبغهم ثم يدخنوه وقاية من الملاريا. وعن طريقهم انتقلت عادة تدخين الأفيون الى الصين، ولكن على صورة اسوأ، لأن الصينيين كانوا يدخنونه نقيا غير مخلوط. ثم ارادت الحكومة ان تحول دون انتشار هذه العادة، فقد رأت ان للأفيون اثرا بالغا وخطرا شديدا على الشعب، وان تجارته ايضا تمتص جزءا كبيرا من ثروة البلاد الى الخارج.

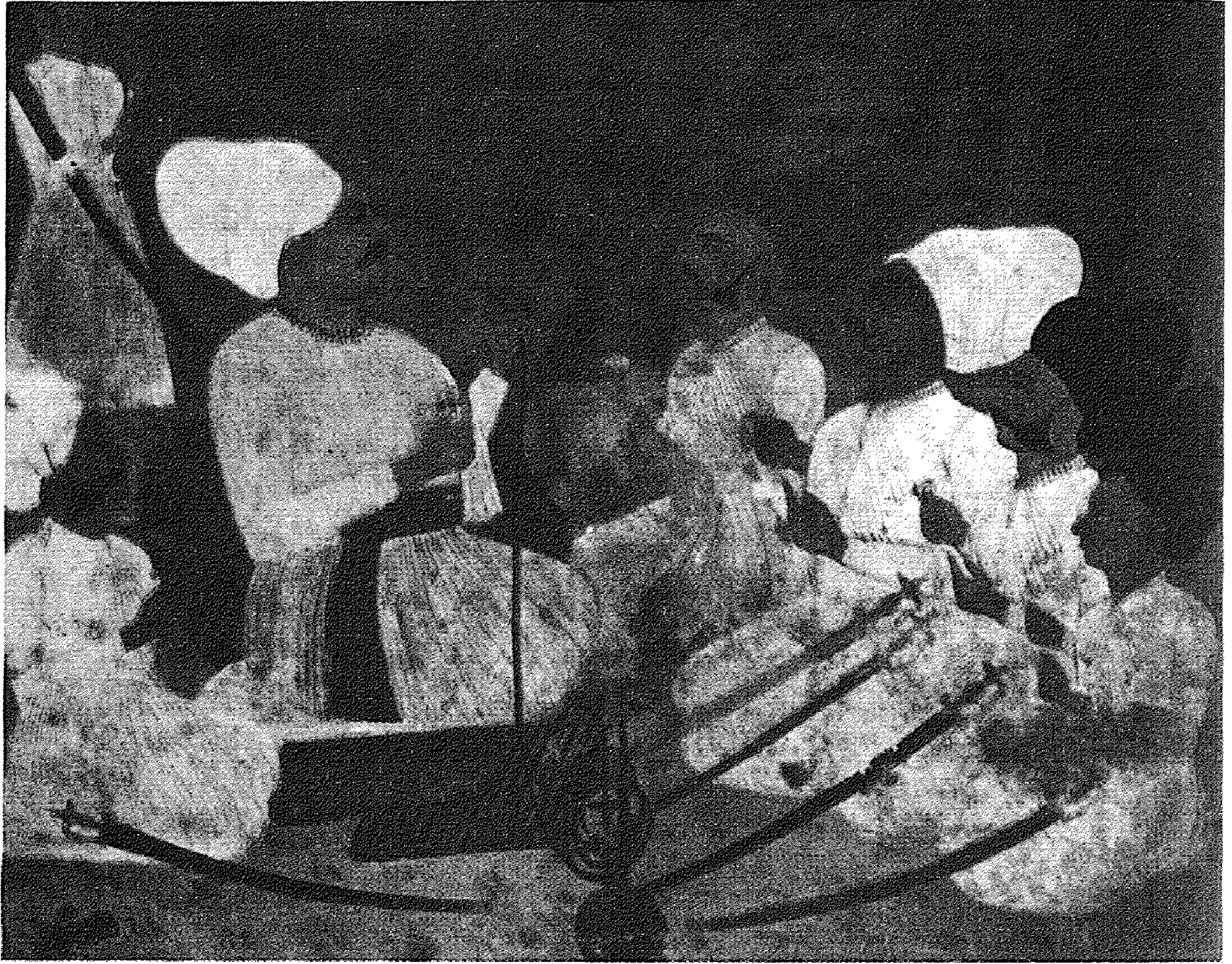
من أجل ذلك اصدرت الحكومة الصينية عام ١٨٠٠ مرسوما يقضي بتحريم استيراد الأفيون ودخوله الى الصين لأي غرض من الأغراض. ولما كانت تجارته رابحة جدا بالنسبة للأجانب فانهم اخذوا في تهريبه الى الصين، وفي رشوة الموظفين الصينيين ليتغاضوا عنه.

عندئذ اصدرت الحكومة الصينية امرا يحرم على موظفيها مقابلة التجار الأجانب ويفرض عقوبات صارمة على من يعلم اي اجنبي اللغة الصينية أو لغات المانشو. ولكن ذلك لم يجد نفعا في مقاومة تجارة الأفيون، فقد استمرت على الرغم من هذه القيود والعقوبات مستعينة في وجودها بالرشوة والفساد.

وقد تطورت هذه المشكلة بالنسبة للصين من سيىء الى اسوأ بعد عام ١٨٣٤ حينما انهت الحكومة البريطانية احتكار شركة الهند الشرقية لتجارة الصين وجعلت هذه التجارة حرة لكل التجار البريطانيين. وترتب على ذلك ان ازدادت فجأة حركة تهريب الأفيون لدرجة اضطرت الحكومة الصينية معها ان تأخذ اجراء قويا لقمعها.

وقد تمثل هذا الاجراء في اختيار الحكومة لرجل قوي من رجالها يدعى «لين تسي شي» وتعيينه رئيسا لادارة مقاومة حركة تهريب

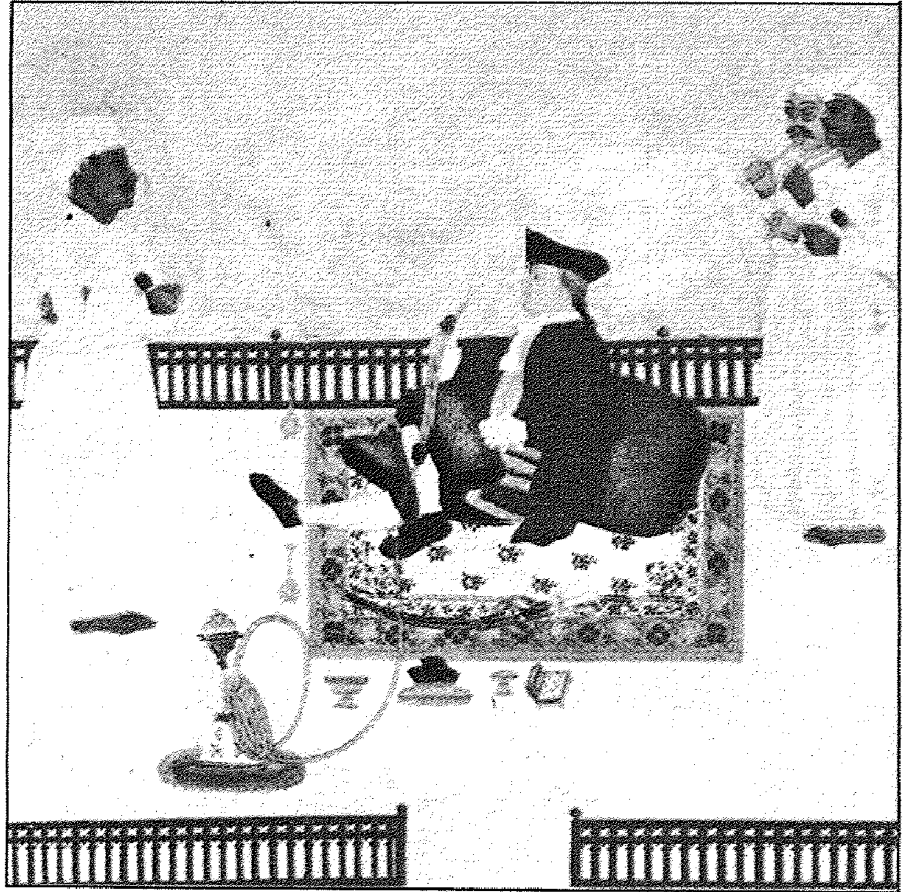
(١) هذه النبذة هي: «... انت ايها الملك الذي يعيش عبر بحار كثيرة مع ذلك تدفعك رغبة متواضعة للانتفاع من خيرات حضارتنا. انت يا من اوفدت بعثة تحمل في احترام رسالتك، ولكي تظهر ولاءك ارسلت ايضا هدايا من منتجات بلادك. لقد قرأت رسالتك التي تظهر عباراتها الجادة ذلة محترمة من جانبك تستحق عليها الثناء. ومع تحكمي في الدنيا الواسعة ليس لي غير أمل واحد هو ان احافظ على حكمي الكامل وان اضطلع بواجبات الدولة. اما الاغراض الغريبة الباهظة الثمن فلا تهمني. ولست في حاجة إلى استعمال مصنوعات بلادك. وانه ليليق بك ايها الملك ان تحترم عواطفي، وان تظهر لي في المستقبل ولاء اكثر، ولعلك بالولاء الدائم لعرشنا تضمن السلام والرفاهية لشعبك بعد اليوم..
واطعني في خوف ولا تظهر الاهمال وعدم الاكتراث».



□ لوحة تعود إلى القرن الثامن عشر، تظهر امير هندي (راجا) يدخن النارجيله، ويعود اول ظهور للافيون في الهند إلى عام ١٥١١م.

الأفيون. ولم يكد «لين تسي شي» يكلف بهذه المهمة حتى قام بعمل سريع قوي. لقد انتقل في الحال الى «كانتون» في الجنوب حيث كانت مركزا رئيسيا لهذه التجارة غير المشروعة، وأمر كل التجار الأجانب هناك ان يسلموه كل ما عندهم من افيون. ورفض هؤلاء التجار ان يطيعوا هذا الأمر اولا، ولكن «لين» أجبرهم عى اطاعته بعزلهم في مصانعهم، وبحمل عمالهم وخدمهم الصينيين على ان يتركوهم، وبمنع الطعام من الوصول اليهم من الخارج. وازاء هذه الشدة والصرامة وهذا التصرف المحكم لم يسع التجار الأجانب الا ان يسلموا مكرهين للمسؤولين الصينيين عشرين الف صندوق من الأفيون. وقد اخذ «لين» هذه الكميات الهائلة التي كانت معدة للتهريب واتلفها. ولم يكتف «لين» بهذا، بل اخبر التجار الأجانب بانه لن يسمح لأي سفينة بالدخول الى كانتون حتى يعطي ضابطها تعهدا بانه لا يحمل افيونا عليها. فاذا نقض هذا التعهد فان الحكومة الصينية تكون في حل من مصادرة السفينة بما عليها. ومما لا شك فيه ان «لين» كان شخصا كفئا، وانه قام بما اسند اليه من عمل خير قيام، ولكنه لم يدرك ان نتائج تصرفاته ستعود بالوبال على الصين.

وتتلخص هذه النتائج في اشتباك الصين مع بريطانيا في حرب، وفي هزيمة الصين في هذه الحرب، وتوقيعها معاهدة مذلة، وفي دفع الأفيون الذي حاولت الحكومة الصينية تحريمه الى حلوق الصينيين كرها. وسواء أكان الأفيون خيرا او شرا للصينيين فان هذا لم يكن امراً مهما. انما كان المهم هو أن تهريب الأفيون كا عملا مربحا للتجار البريطانيين، وان بريطانيا لم تكن مستعدة لأن تتسامح في ضياع هذا الدخل.



□ مستوطن انجليزي في الهند، ومن الأرجح ان يكون من تجار شركة الهند الشرقية، يدخن الشيشة ومن المعروف ان اسطول شركة الهند الشرقية ساهم في تجارة الأفيون.

ولما كان معظم الأفيون الذي اتلفه «لين» يخص التجار البريطانيين فان بريطانيا اشتبكت عام ١٨٤٠ في حرب مع الصين باسم الدفاع عن الشرف الوطني، وقد سميت هذه الحرب بحق «حرب الافيون» لأنها حوربت وكسبت بغية الوصول الى حق فرض الافيون على الصين.

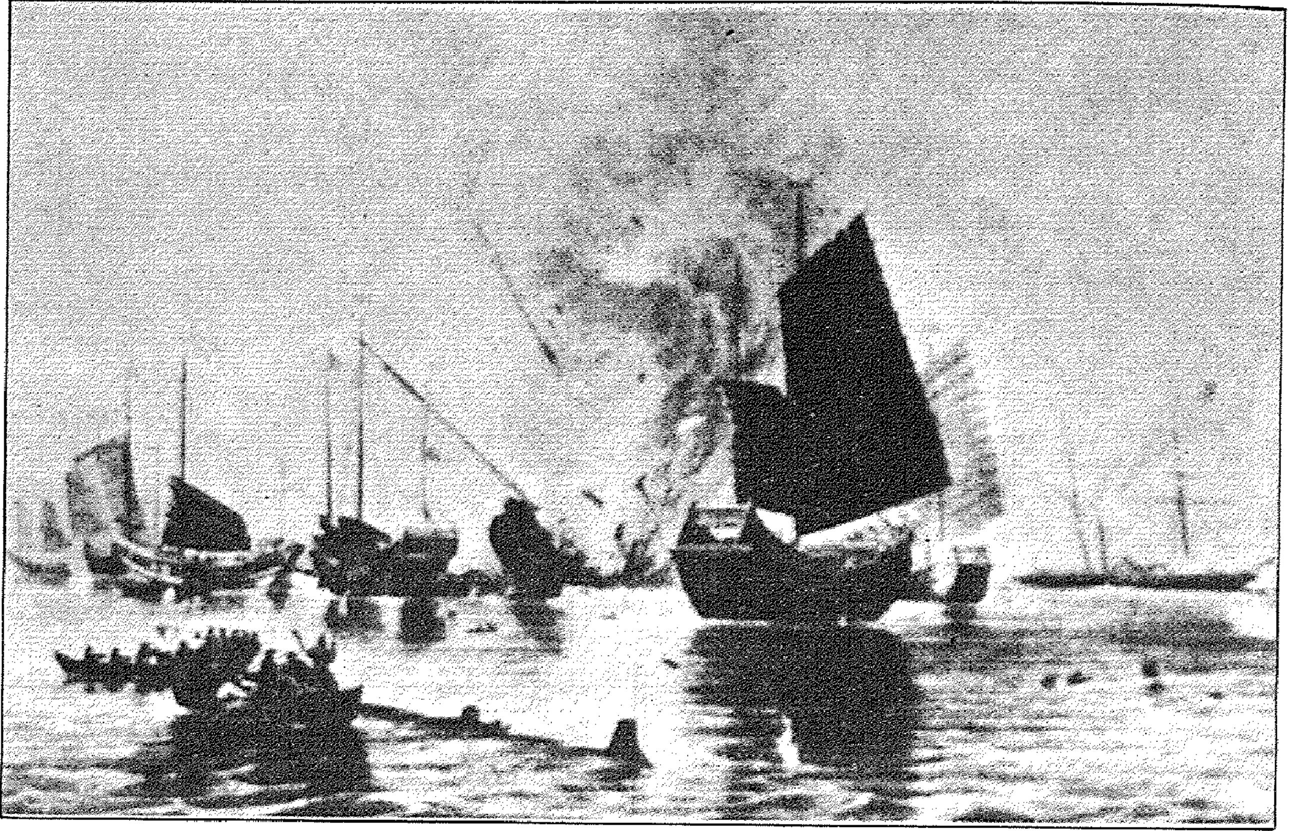
ولم تستطع الصين ان تفعل شيئا ضد الأسطول البريطاني الذي حاصر كانتون وموانىء اخرى. وقد اضطرت الصين بعد حرب دامت عامين ان تستلم. وفي عام ١٨٤٢ وقعت معاهدة نانكين التي نصت على جوب فتح خمس موانىء صينية للتجارة الأجنبية، وهذا يعني بوجه خاص فتحها لتجارة الأفيون حينئذ. وهذه الموانىء الخمس هي كانتون، وشنغهاي، واموي، وننجبو، وفوتشو. وقد سميت هذه بموانىء المعاهدة. ولم تكتف بريطانيا بذلك، بل استولت ايضا بمقتضى المعاهدة على جزيرة هونكونج بالقرب من كانتون، واغتصبت عنوة مبالغ طائلة كتعويض لأفيون تجارها الذي اتلف، ولتكاليف الحرب التي فرضتها فرضا على الصين.

وهكذا حقق البريطانيون انتصار الافيون. وقد بعث امبراطور الصين بالتماس خاص الى الملكة فيكتوريا ملكة انجلترة وقتئذ مبينا لها في ادب واحترام الآثار الشنيعة المنكرة الناشئة من فرض تجارة الافيون على الصين، ولكنه لم يتلق اي جواب من الملكة على التماسه. فما اعظم الفرق بين هذا الالتماس المهذب وبين الرسالة الشامخة التي بعث بها منذ نحو خمسين سنة احد اسلافه الامبراطور «تشين لون» الى ملك الانجليز جورج الثالث!

هذا كان بدء متاعب الصين ومشاكلها مع دول الغرب الاستعمارية. لقد انتهى عصر عزلتها، وصار عليها ان تقبل التجارة الأجنبية، وأن تقبل، بالاضافة الى ذلك، المبشرين المسيحيين الذين لعبوا دورا هاما في الصين، هو دور الطليعة في انتشار النفوذ الأجنبي.

ومعظم متاعب الصين التي تلت كا لها اتصال بالمبشرين. فكثيرا ما كان مسلك هؤلاء وتصرفهم وقحا مثيرا، ولكن لم يكن من المستطاع محاكمتهم امام المحاكم الصينية، لأن معاهدة

□ حرب الافيون فتحت الباب امام الاحتكارات والامتيازات الاجنبية.



نانكين الجديدة نصت على عدم محاكمة الأجانب الغربيين الموجودين في الصين امام المحاكم الصينية، أو بمقتضى قوانين الصين، وانما يحاكمون امام محاكمهم الخاصة، وقد سمي هذا بـ «الامتياز الخاص». ومن العجيب أن الصينيين الذين تحولوا الى مسيحيين على ايدي المبشرين ادعوا لأنفسهم هذه «الحماية الخاصة».. وهؤلاء لم يكن لهم بأي حال من الأحوال حق في هذه الحماية الخاصة، ولكن هذا لم يغير من الموقف في شيء، لأن المبشرين الكبار الذين يمثلون الشعب الاستعماري القوي كانوا يقفون من ورائهم.

وكان المبشرون احيانا يؤلبون قرية ضد قرية اخرى، وكان القرويون وغيرهم، اذا بلغ بهم الغيظ والسخط اقصاه، يثورون ويهجمون عى المبشرين، وفي بعض الأحيان كانوا يقتلونهم. عندئذ كانت الدولة الاستعمارية التي تقف من خلف هؤلاء المبشرين تنقض على الثوار وتأخذ منهم ما تشاء من تعويض.

وقد استغلت الدول الأوروبية الى اقصى الحدود بعض حوادث القتل التي وقعت في الصين على المبشرين من اجناسهم، فجعلت منها فرصا لمطالبة الصين بمزيد من الامتيازات والحصول عليها.

وثورة «تابن» التي تعتبر من افظع وأبشع الثورات التي ظهرت في الصين قد بدأها ايضا مرتد اعتنق المسيحية على ايدي المبشرين. وقد قام بها عام ١٨٥٠ شخص نصف مجنون يدعى «هن شو تشوان».. فهذا المجنون الديني نجح نجاحا بعيد المدى وانطلق في كل مكان يدعو الى الحرب صائحا: «اقتلوا عباد الأوثان». ونتيجة لذلك قتلت جموع كثيرة. وقد خربت هذه الثورة اكثر من نصف الصين، وقدر عدد من راحوا ضحيتها خلال اثني عشر عاما تقريبا بنحو عشرين مليونا من السكان. وليس من العدل في شيء ان نحمل المبشرين المسيحيين والدول الأجنبية وزر هذه الثورة ومن قتلوا بسببها، واذا كان يبدو ان المبشرين باركوها في اول الأمر فانهم يما بعد انكروا «هن شو تشوان».

ولكن الحكومة الصينية ظلت على اية حال



□ معاهدة نانكين لعام ١٨٤٢ فرضت على الصين تعويضات مالية ضخمة.

تعتقد ان المبشرين المسيحيين مسؤولون عنها. وهذا الاعتقاد يجعلنا ندرك مدى سخط الصينيين على نشاط المبشرين وقتذاك وبعد ذاك. فالمبشرون في نظر الصينيين لم يفدوا الى بلادهم كرسل دين ودعاة خير وسلام، وانما وفدوا اليها كعملاء للاستعمار، أو كما قال كاتب انجليزي: «المبشر اولا، ثم السفينة الحربية، ثم احتلال البلاد وخطفها». هكذا تنظر العقلية الصينية الى موكب الحوادث. وجدير بك ان تتذكري هذا لأن المبشر كثيرا ما يتسلل اكثر مما ينبغي في شؤون الصين ومشاكلها.

ومن الغريب المدهش ان ثورة يقودها متعصب ديني مجنون يتاح لها كل هذا النجاح قبل القضاء عليها نهائيا. والسبب الحقيقي في هذا هو ان النظام القديم في الصين كان قد بدأ في التداعي والانهيار. واذكر اني اخبرتك في آخر رسالة عن الصين عن عبء الضرائب فيها، وعن احوالها الاقتصادية المتغيرة، وعن ضجر الشعب المتزايد. فالجمعيات السرية كانت تثور ضد حكومة المانشو في كل مكان، وكانت بوادر التمرد والثورة العامة تلوح في الجو.

وما من شك في ان التجارة الأجنبية، وتجارة الأفيون والسلع الأخرى قد زادت الأحوال سوءا. لقد كانت التجارة الأجنبية ترد طبعا الى الصين في الماضي، ولكن الأحوال كانت قد تغيرت في العصر الذي نتحدث عنه.

فمصانع الغرب الحديثة الآلات بدأت تنتج في سرعة كثيرا من السلع التي لا يمكن بيعها كلها في بلادها. لهذا كان على الدول الغربية ان تجد لمنتجات مصانعها اسواقا في اماكن مختلفة من العالم. فهذه المنتجات وبخاصة الأفيون قلبت نظم التجارة القديمة راسا على عقب، ومن ثم زاد الاضطراب الاقتصادي سوءا على سوء. وكما حدث في الهند بدأت اسعار السلع في الأسواق الصينية تتأثر بالأسعار العالمية. وكل هذا زاد من بؤس الصينيين وضجرهم وقوى من ثورة «تابن».

تلك كانت الأوضاع في الصين عندما بدأت الدول الغربية تتدخل في شؤونها وتدل عليها بقوتها وعظمتها. فليس عجيبا اذن ان ترى الصين نفسها غير قادرة على الصمود امامهم ورفض مطالبهم. ولم تكد الدول الغربية — واليابان حديثا جدا كما سنرى فيما بعد — يرون ما عليه الصين من حيرة واضطراب وما تعانيه من متاعب وقلاقل حتى استغلوا هذه الفرصة السانحة كل الاستغلال، بالاستيلاء على امتيازات جديدة منها واغتصاب اجزاء من اراضيها ايضا.

وكان من الممكن حقا ان تسير الصين في نفس الطريق التي سارت فيها الهند فتصبح



□ صورة زيتية لحرب الافيون، رسمها احد الانجليز، من الذين شاركوا في الهجوم البحري على «تشين ــ كيانغ».

امبراطورية لليابان ولدولة او أكثر من الدول الغربية لولا ما كان بين هذه الدول من المنافسة والتحاسد والغيرة المتبادلة.

لقد حدثتك عن حالة الصين العامة خلال القرن التاسع عشر، كما حدثتك عن انهيارها الاقتصادي، وعن ثورة «تابن»، وعن المبشرين والاعتداء الغربي عليها. وأشعر اني بذلك قد انحرفت عن مجرى القصة الرئيسي، ولكن يجب على الانسان ان يعرف شيئا عن هذا حتى يستطيع ان يتتبع بفهم سرد الحوادث. اقول ذلك لأن حوادث التاريخ لا تقع كالمعجزات، وانما تحدث لأن اسبابا شتى تتضافر على وجودها، وكثيرا ما تختفي هذه الأسباب وتكمن تحت سطح الحوادث.

ولا بد ان حكام الصين الذين كانوا الى عهد قريب في غاية القوة والعظمة قد اعترتهم الدهشة للتغيير المفاجيء الذي طرأ على عجلة الحظ بالنسبة لهم. ولعلهم لم يتبينوا ان جذور انهيارهم تمتد بعيدا في ماضيهم، ولعلهم ايضا لم يقدروا تقدم الغرب الصناعي ونتائجه الخطيرة على نظام الصين الاقتصادي.

ولم يملكوا ازاء كل ذلك الا ان يحنقوا كل الحنق على هجمات الأجانب «البرابرة» واعتداءاتهم عيهم. ويروى ان امبراطور الصين في ذاك العصر استعمل في معرض الاشارة الى هذه الهجمات والاعتداءات تعبيرا لطيفا من تعابير اللغة الصينية الفصحى معناه انه «لا يسمح لأحد ان يغط ويشخر بالقرب من سريره»! ولكن حكمة اللغات القديمة او فكاهتها لا تستطيع، مع ما تعلمه من ثقة مطمئنة وشجاعة فائقة وضبط للنفس في ساعات المحن والشدائد، ان تصد الأجنبي وترده.

لقد فتحت معاهدة نانكين الباب لبريطانيا في الصين، ولكن بريطانيا ما كان ليسمح لها ان تفوز بأطايب الغنيمة وحدها، ففرنسا والولايات المتحدة دخلتا الصين ايضا واكرهتاها على توقيع معاهدة تجارية معهما. لقد كانت الصين وقتئذ ضعيفة مغلوبة على امرها. ولكن هذا الاكراه الذي فرض عليها لم يجعلها تحب الأجانب او تحترمهم. اجل، كان حنقها وسخطها شديدين على وجود هؤلاء «البرابرة» بين ظهرانيها ، بيد ان الأجانب كانوا ابعد ما يكونون عن الرضا بما ظفروا. فشهوتهم في استغلال الصين قد بدأت تنمو وتقوى، وكانت بريطانيا اسبق الدول الأخرى في هذا المضمار.

وقد كان هذا الوقت مناسبا جدا للأجانب لتحقيق مآربهم منها، فقد كانت مشغولة بثورة «تابن»، ومن ثم لم يكن في مقدورها ان تقاوم هؤلاء الدخلاء. وحدث في عام ١٨٥٦ ان قبض والي كانتون على بحارة صينيين بتهمة القرصنة.

وكانت السفينة التي يعمل فيها هؤلاء البحارة سفينة صينية لا صلة لها بالدولة الأجنبية، ولكنها كانت ترفع العلم البريطاني بتصريح من حكومة هونكونج، ومع ان هذا التصريح كانت مدته قد انتهت فان الحكومة البريطانية ممثلة دور الذئب والحمل في القصة المشهورة، اعتبرت هذا الحادث عذرا كافيا للحرب.

لهذا ارسلت بريطانيا جنودها الى الصين، ولكن حدث وقتئذ ان قامت في الهند ثورة ١٨٥٧ فحولت بريطانيا هؤلاء الجنود من الصين الى الهند، واضطرت حرب الصين ان تنتظر حتى تفرغ بريطانيا من القضاء على ثورة الهند.

وفي عام ١٨٥٨ بدأت حرب الصين الثانية، وقد اكتشفت فرنسا في مقتل مبشر فرنسي في مكان ما في الصين تكأة وعذرا لها للاشتراك في هذه الحرب. ولهذا انقض الانجليز والفرنسيون على الصينيين الذين كانوا مشغولين بمكافحة ثورة «تابن».

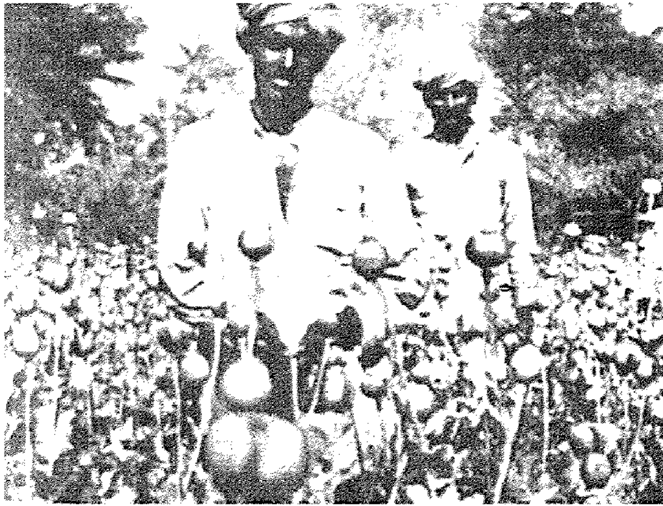
وحاولت حكومتا انجلترة وفرنسا ان تستميلا روسيا والولايات المتحدة الامريكية للاشتراك ايضا في هذه الحرب، ولكنهما لم توافقا، وان كان لم يكن لديهما مانع من المشاركة في الغنائم والأسلاب!

وقد اضطرت الصين ان تنزل في النهاية عل ارادة هذه الدول الأربع فتوقع معها معاهدات جديدة اكرهت بمقتضاها على ان تعطيهم امتيازات اكثر من قبل، وعلى ان تزيد في عدد الموانىء الصينية المفتوحة امام التجارة الأجنبية.

ولكن قصة حرب الصين الثانية لم تنته بعد الى هذا الحد، فقد كان لا يزال هناك فصل آخر من المأساة اثاره ونتائجه اشد ايجاعا وايلاما. فالعادة عندما تعقد معاهدات بين الحكومات ان تصدق عليها او تؤكدها الدول المتعاقدة، ولهذا اتفق عند عقد هذه المعاهدات الجديدة ان يتم التصديق عليها بين الصين من جهة، وانجلترة وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الامريكية من جهة اخرى في مدينة بكين. فلما حان موعد هذا التصديق حضر ممثل روسيا مباشرة الى بكين بطريق البر، بينما حضر ممثلو الدول الثلاث الأخرى بطريق البحر. وقد ارواد ان يحضروا بسفنهم الى بكين عن طريق نهر البيهو (Peiho)



□ حياة القصور، وما اتسمت به في انغماس في الترف والمجون ساهمت في سقوط الأسرة الحاكمة.



الذي اقيمت عليه وقتذاك استحكامات وتحصينات دفاعا عن هذه المدينة التي كانت مهددة بثوار تابن.

من أجل ذلك طلبت الحكوما الصينية الى ممثلي انجلترة وفرنسا والولايات المتحدة ان يتفادوا الحضور الى بكين عن طريق النهر وان يحضروا اليها عن طريق البر. ولم تكن الصين في طلبها هذا متعنتة او غير معقولة.

وقد استجاب ممثل امريكا لهذا الطلب، اما ممثلا بريطانيا وفرنسا فرفضاه وحاولا ان يشقا



طريقهما بالقوة في نهر البيهو الى بكين غير عابئين بوجهة نظر الحكومة الصينية. عندئذ اطلق الصينيون النيران على سفنهما وأكرهوهما على العودة بعد خسائر فادحة.

ولكن حكومتي بريطانيا وفرنسا المتعجرفتين المتغطرستين اللتين لم تقبلا حتى مجرد الاصغاء الى التماس الحكومة الصينية لم تستطيعا ان تغتفرا لها هذا التصرف أو تحتملاه منها. ولهذا ارسلتا فرقا كثيرة من جنودهما للانتقام. وفي عام ١٨٦٠ زحفت هذه الجنود على مدينة بكين القديمة، وتمثل انتقامهما في صورة تدمير ونهب وحرق لمبنى من اجمل واعجب المباني في المدينة. ذلك المبنى هو قصر الصيف الامبراطوري المعروف باسم «يوان مين يوان» (Yuen-Ming-Yuen) والذي أكمل بناؤه في عهد «تشين لون». لقد كان هذا القصر حافلا بذخائر الفن والأدب النادرة، وبأعمال قديمة من البرونز ذات جمال فائق، وبقطع فنية من الخزف الصيني التي تستولي على الألباب، وبمخطوطات وصور نادرة. وعلى الاجمال كان حافلا بكل لون من الوان الفنون وبأرفع وارقى ما أنتجته الصين واشتهرت به منذ الف سنة.

فهؤلاء الجنود البريطانيون والفرنسيون، او هؤلاء الونداليون الجهلة المغرمون بتخريب الآثار القديمة واعمال الفن النادرة قد نهبوا من هذه الذخائر القيمة ما نهبوا ثم دمروا ما بقي منها وأضرموا فيه النيران التي ظلت مشتعلة اياما كثيرة!

فهل يكون امرا عجبا ان ينظر الصينيون ومن خلفهم ثقافة الاف السنين، الى هذه الوندالية بألم مبرح في قلوبهم، وان يعتبروا هؤلا المحطمين جهلة برابرة لا يعرفون الا كيف يقتلون ويخربون؟ ولا بد ان ذكريات الهون (Huns) والمغول وكثيرين غيرهم من المخربين وبرابرة العصور القديمة قد عادت اليهم.

ولكن البرابرة الأجانب لم يهتموا اي اهتمام برأي الصينيين فيهم. لقد شعروا بالحماية والأمن في ظل سفنهم الحربية ومع اسلحة الحرب الحديثة. وماذا يهمهم اذا كانت الذخائر الثمينة النادرة اللتي جمعت خلال مئات السنين لم يعد لها وجود أي وجود؟ وماذا يعنيهم من امر الفن الصيني والثقافة الصينية؟ وكأني بهم يتمثلون بقول القائل: «مهما يحدث فقد حصلنا على حكمة المدفع، اما هم فلم يحصلوا على هذه الحكمة!». ■

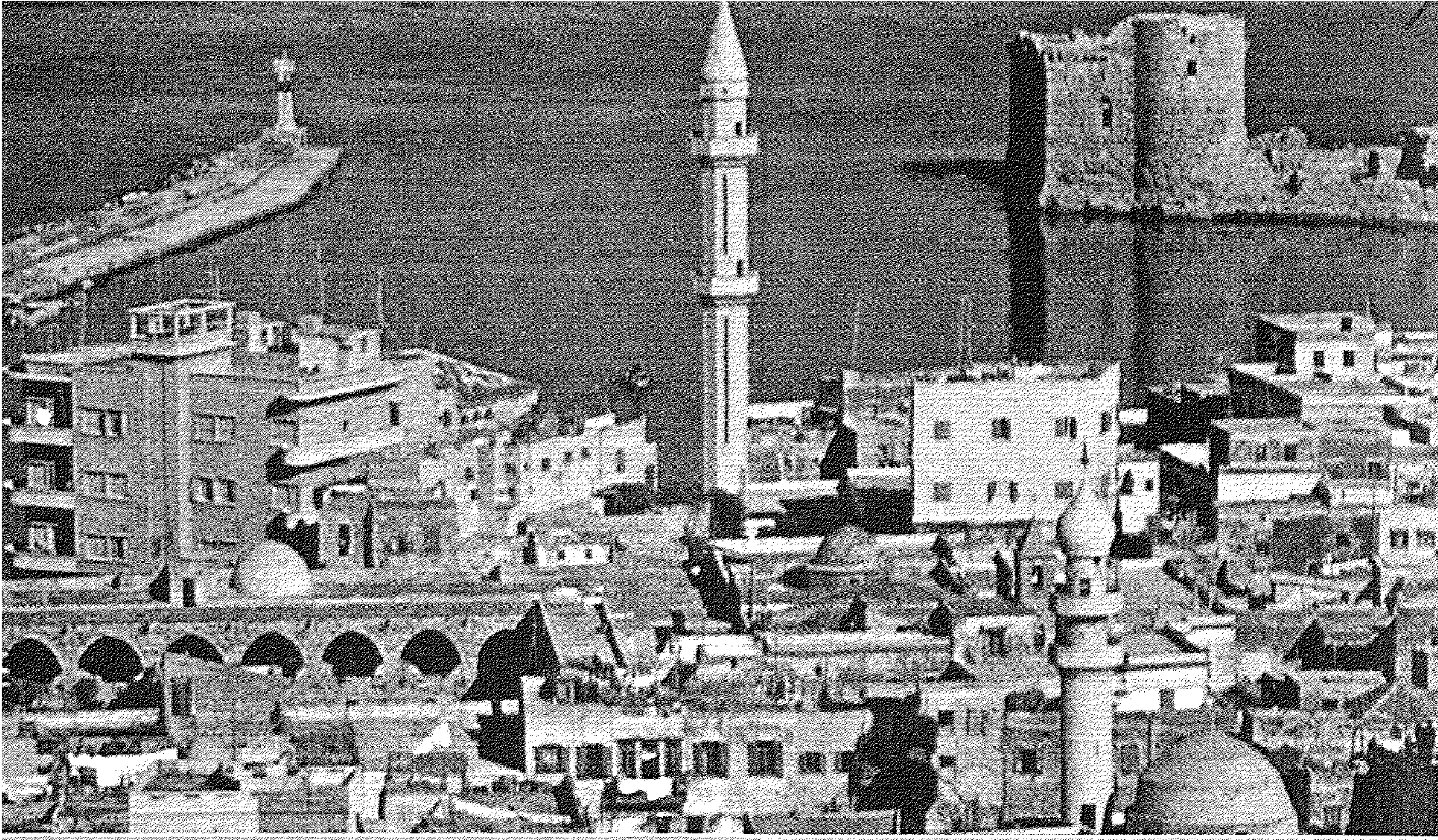
المبادلات التجارية لبلدان

(الربع الأول من القرن التاسع عشر)

منذ العصور الغابرة اشتهرت مدن الساحل السوري بتجارتها، المزدهرة نتيجة لموقعها المتوسط بين العالم المعروف آنذاك، واتصالها السهل بالقارات الثلاث، ووقوعها على طرق التبادل التجاري الكبرى. وكان لهذه الميزات الطبيعية دور فعال في دفع السكان لأن ينشطوا في ميدان تبادل السلع والبضائع، ونالوا شهرة واسعة في هذا المضمار. فقد عملوا منذ عهد الفينيقيين في تطوير سبل التجارة ووسائلها، وفتحوا بلادهم لمنتوجات العالم، وأجادوا العمل كوسطاء بين أجزائه المتباعدة. واستمرت البلاد قرونا طويلة محافظة على نشاطها التجاري المزدهر حتى مطلع القرن السادس عشر، حين توطدت الطرق التجارية الجديدة التي اكتشفها البرتغاليون عبر رأس الرجاء الصالح، فضعفت قيمتها التجارية بتحول الطرق الرئيسية لبضائع الهند عنها، وقد تم هذا التحول في الوقت نفسه الذي دخلها فيه العثمانيون فاتحين[١].



وكان جانب من التجارة الداخلية يتم محليا في المخازن الثابتة في القرى، حيث كان يجري تبادل المحاصيل الزراعية والحيوانية والمنتجات المعدنية الخام والمصنعة مباشرة من المنتج إلى المستهلك في الأسواق الأسبوعية التي كانت تقام في المدن والمراكز الزراعية، والتي كانت تعقد خلال أوقات زمنية معينة في مناطق التقاء القرى، وتتوزع هذه الأسواق وفقاً لمعطيات اقتصادية وجغرافية واجتماعية تتلاءم مع إمكانات وحاجات السكان.



المشرق والمغرب العربي

د. حسين سلمان سليمان

وفي بعض المناطق لا يزال حتى اليوم كما في الماضي، تقام الأسواق في المكان والوقت نفسيهما، الاثنين في النبطية والثلاثاء في خان حاصبيا والخميس في الخيام والجمعة في مرجعيون. وبالرغم من افتتاح مناطق مكشوفة في المدن الساحلية في القرن التاسع عشر، فلا تزال هذه الأسواق تشكل سلسلة تبادل ذات كثافة مرتفعة. ويقصدها سكان القرى المجاورة، وحتى تلك البعيدة عن السوق لمسافة يوم(٢). ففي سوق النبطية كان يتم حوالي الخمسين ألف عقد بيع وشراء، وكل ذلك بالقول ويتم بكلمتين «بعت واشتريت»(٣).

كما كانت تتم التجارة الداخلية في الأسواق الرئيسية للمدن الكبرى، التي كانت مزودة بشكل دائم ومستمر بمنتجات الصناعات المختلفة والزراعات العديدة في المدينة والأقاليم، وما يحمل إلى تلك المدن من البلاد الخارجية(٤). وامتلكت تلك المدن إقطاعات واسعة في الأرياف المجاورة، فلم تكن تدفع ثمن ما يصدر إليها، بل كانت تقتطعه كريع من الأرض التي تمتلكها، أو كفائدة عن الدين المعطي للفلاح، وتحقق أرباحاً طائلة على حساب الأخير. فالمستثمر هو الذي كان يحدد الأسعار، في حين كان الفلاح مضطراً بدافع الدين والحاجة إلى تصريف إنتاجه بسرعة، وإذا اضطر لشراء حاجياته فإنما يتم ذلك في نهاية الموسم الزراعي وبأسعار مرتفعة. وعلى مر السنين وإذا كانت المواسم وفيرة اختنق السوق المحلي، ولا ينال الفلاح سوى دخل ضئيل من محاصيله، وفي سنوات المحل كان مجبراً على شراء المؤن والبذار من المدينة وبأسعار مرتفعة قد تعرضه للجوع، وبذلك يضطر للاستدانة من جديد، ويسيطر سوق المدينة على الفلاح ويستعبده، بصورة دائمة(٥).

وبالرغم من ازدهار حركة التجارة الداخلية،

والتجارة القائمة بين الأقاليم المجاورة، كانت تعوقهما عوامل عدة من بينها:

* تأخر وسائل المواصلات والنقل، وعدم اطمئنان المسافرين باستمرار، بسبب تهديد قطاع الطرق واللصوص، مما جعل السفر لا يتم إلا بأوقات معينة وبمصاحبة القوافل(٧).

* الضرائب المفروضة على الاستيراد والتصدير، كانت بمثابة حملا ثقيلا حين تكون في أيدي مندوبين لا ضمير لهم في أوقات القلاقل السياسية(٨).

* المصاعب التي كانت تواجه التجار المسلمين، لعدم توفر النشاط المصرفي المنظم، فيضطر إلى التهرب من الشرع والاستدانة بالربا، في حين كان منافسه الأوروبي يستفيد من نظام المصارف الأكثر مرونة(٩) مما أدى إلى حلول هذا الأخير ومن يحتمون به، محل التجار المسلمين ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر(١٠).

اما بالنسبة إلى تنظيم طوائف التجار، فإن (جب وبون)(١١) يعتقدان بأنها في مصر وسوريا لم تكن جامدة مثل طوائف أرباب الحرف، فقد تجمع التجار في وحدات تنظيمية على نفس نمط نقابات أو أصناف الصناع، ولكن تنظيمهم لم يخضع لنفس القيود التزمتية والتقاليد المحافظة. فهناك مثلاً بائعو الصابون والطباق والأقمشة وتجار البن والبهارات والغلال، وقد كان تجار كل سلعة يتجمعون في أسواق خاصة بهم تسمى باسمهم ولكل سوق شيخه. ولكن لم يترك لنا المؤرخون معلومات عن إجراء احتفالات «الشد» عند قبول المرشحين في طوائف التجار، تماثل الاحتفالات التي كانت تجري في نقابات الحرف، وقد تكون هذه الطوائف مجرد تجمعات إدارية. وعادة يكون رئيس هيئة التجار من أغنى التجار ويعرف بالقاهرة باسم «الشهبندر»، في حين عرف بدمشق باسم «المتقدم بين التجار»، وكانت مهامه أن يباشر سلطانا على كل التجار وأرباب الحرف وتجار القطاعي، فيحل الخصومات بينهم وينظم أمورهم الداخلية.

وبرغم أن التجار لم ينجوا بأي حال من الابتزاز والمغارم من قبل السلطات الحاكمة بين فترة وأخرى، وبخاصة عندما تفتقر الخزينة إلى



□ تاجر عربي.

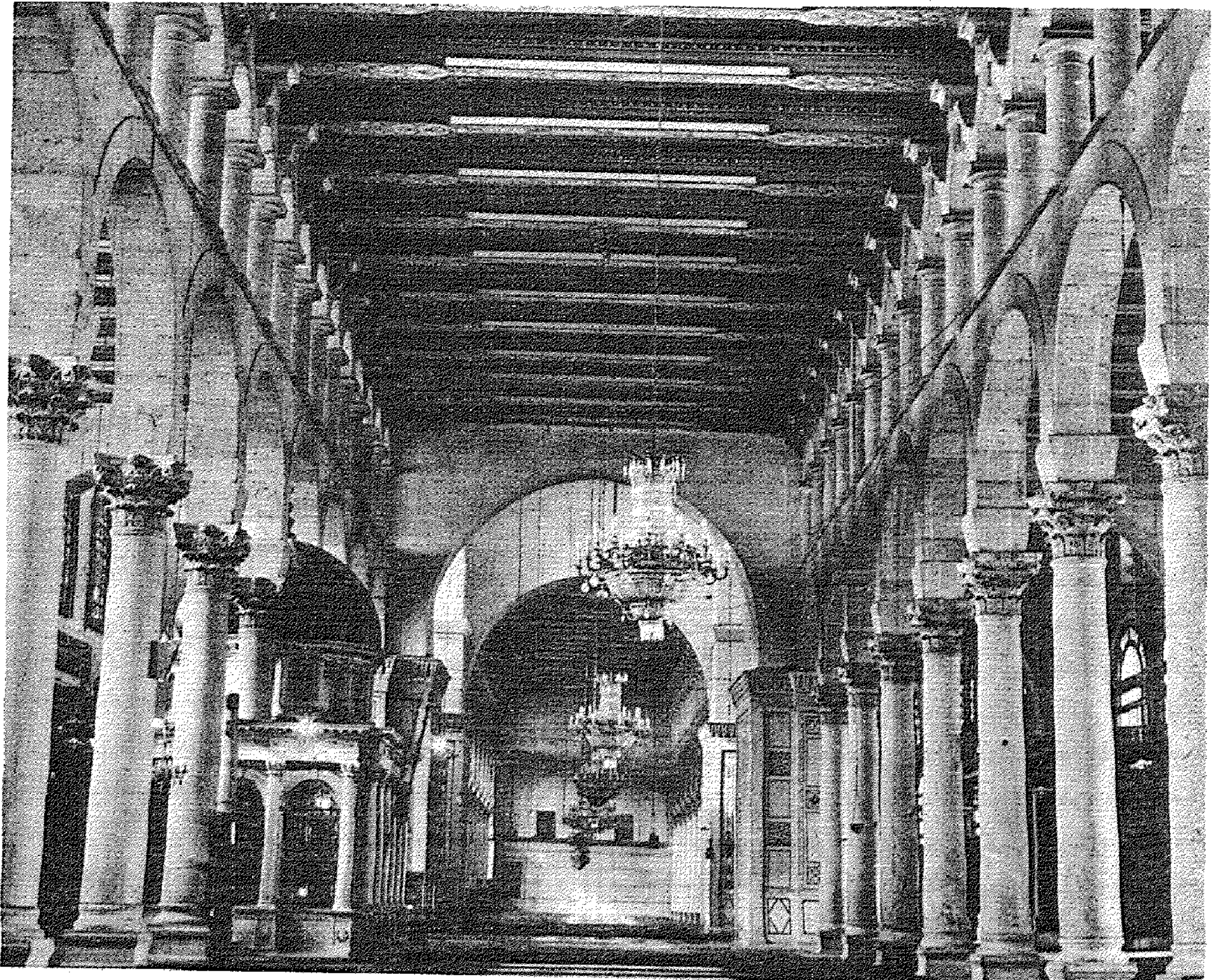
المال، فإنهم كانوا يكونون طبقة اجتماعية غنية ومحترمة ومتنفذة. فهم مع الكتبة وبعض العلماء يكونون الطبقة المتوسطة الحقيقية، التي يمكنها أن تؤثر في سير الحكم وتضغط على الحكومة في مناسبات معينة. وكان كبار التجار يعتبرون أنفسهم من بين «أعيان» مدينتهم وتمكنت كثير من الأسر التجارية أن تكون ثروات ضخمة وأن ترتبط مع الاستقراطية الحربية الحاكمة وأسر المشايخ بصلات التزاوج والمصاهرة. وقد ترك مؤسس أسرة الشرايبي في القاهرة ــ وهو محمد الدادة (المتوفي في عام ١٧٢٤) ١,٤٨٠ كيساً ذهبياً وكمية من الأملاك الثابتة والمنقولة، بما في ذلك أسطول من ثلاث سفن في البحر الأحمر. وأقامت أسرة السفرجلاني في دمشق عدة مساجد وأوقفت عليها الأموال. ولذا فقد كان من الطبيعي جداً أن تكون لتلك الأسر التجارية فروع أو وكالات في مدن أخرى، كما كان بعضهم يسيّر قوافل خاصة بتجارته، يزودها بحراس أشداء مسلحين لتجنب مخاطر الطريق. لم يكن غريبا بالنسبة إلى أسر المشايخ أن تمارس العمل التجاري، وأن تجني من وراء ذلك أرباحاً طائلة، إلى حد أن بعض تلك الأسر وبخاصة أتباع مذهب ابن حنبل، كانت تفضل أن تقوم بالتجارة

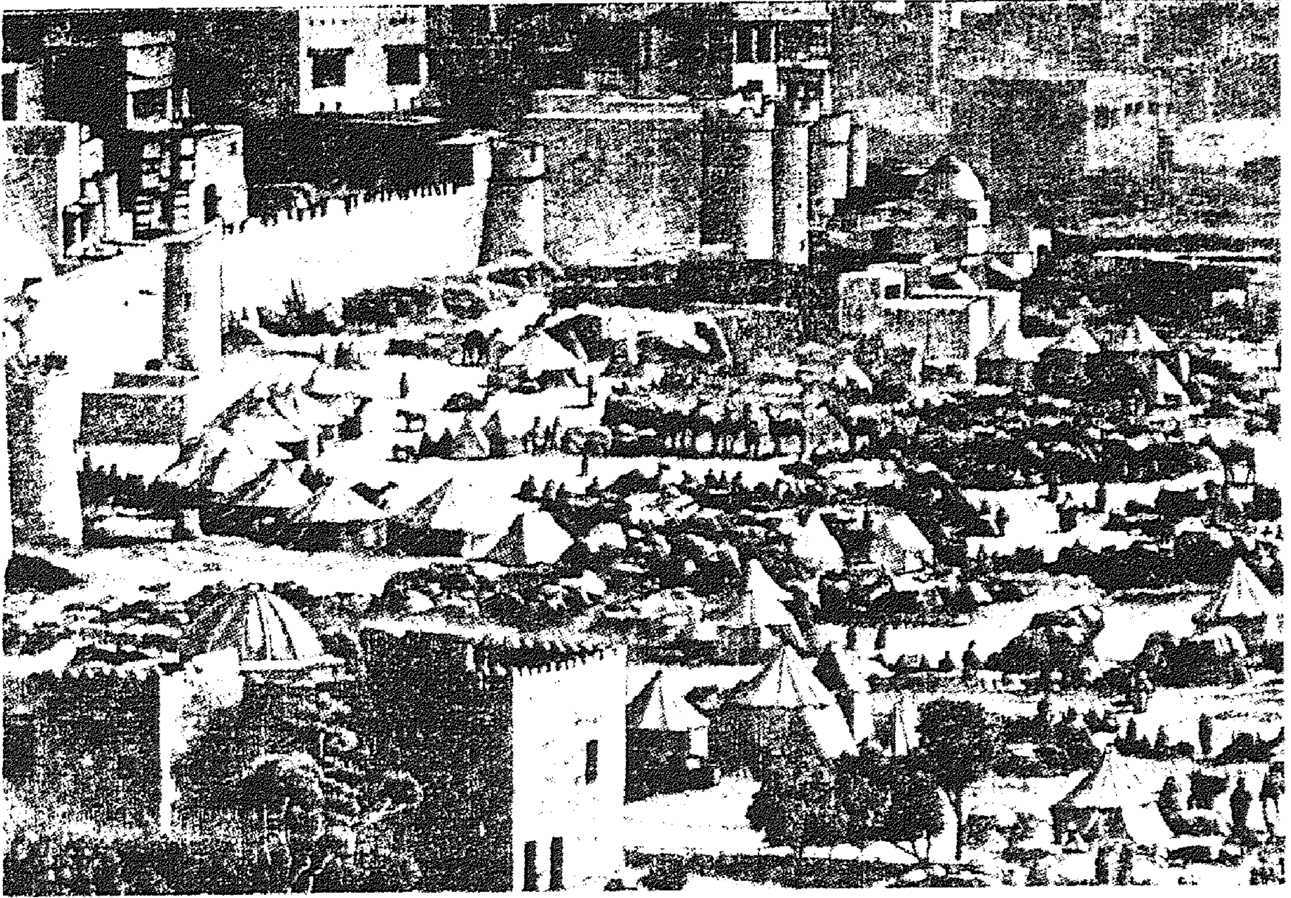
«الشريفة»، على شغل وظائف ينفق عليها من مداخيل يتم الحصول عليها، بطرق يشك انها لا تتمشى مع أحكام الشرع[١٢].

وقد زودتنا الوثائق الدبلوماسية الفرنسية بلمحة عن حركة المبادلات التجارية، التي كانت تربط في الربع الأول من القرن التاسع عشر ما بين مصر وبلاد الشام والمغرب وبلاد العرب الجنوبية. فقد كان ميناء صور يستقبل سنويا من قرى جبل[١٣] عامل ما قيمته ٨٠٠ ألف قرش، ويصدر بحرا إلى دمياط التبغ وأخشاب البناء والفحم على متن أربعمئة مركب وسفينة، تعود محملة بالأرز والجلود والأنسجة المغربية والسكر والبن وقلانس تونس والبلح والحمص والقطران والفضة. كما كانت تصدر صور إلى مدينة دمشق القطن وخيوطه والزبدة والزيت والشمع والعسل والعفصة والعرق سوس وحجر الطاحون، ينقلها برأ بواسطته القوافل حوالي أربعة آلاف جمل وبغل وحمار[١٤].

وأشارت الوثائق الفرنسية المعاصرة إلى النشاط التجاري، الذي ربط كسروان وصيدا من جانب ومصر من جانب آخر، وقدرت قيمته سنة ١٨١٤ بحوالي ٢٥ مليون قرش[١٥]. وكانت صيدا تستورد من دمياط الأرز والجلود والقمح والثمر والسكر، وتصدر إلى هذه أحجار الطاحون والتبغ والعرق سوس والقمصان[١٦]، ويتم التبادل التجاري لصيدا مع دمشق عن طريق القوافل البرية، فقد كان هناك حوالي ألفي بغل، تنقل إلى هذه الأخيرة ما تنتجه صيدا وجبل[١٧] الدروز من قطن وأعشاب وجذور للطبابة والصباغ[١٨]، وما يرد إلى ميناء هذه المدينة من سلع مستوردة من الخارج لصالح تجار دمشق، وتعود القوافل حاملة التنباك والسماق وجلود

□ الحرم مع الروضة ـ الجامع الأموي ـ دمشق.





□ موكب الحجاج عند ابواب المدينة المنورة نقلاً عن: Dr. Gustave Le Bon., A Civilizeo. Arabe.

الماعز والقهوة ما قيمته ٩٥٠٣٦ قرشاً لسنة ١٨١١[١٩].

وتزود المرتفعات اللبنانية الجبلية مدينة بيروت وفقاً لحساب دقيق بـ ١٨٠٠ قنطار حرير ثمن القنطار[٢٠] ٨٠٠ قرش، ويتم تصديرها بمراكب غربية أو محلية يذهب معظمها إلى دمياط والاسكندرية وأربعة إلى المغرب وتونس والجزائر. وتعود محملة بالأرز والأنسجة والكتان وجلود الأبقار والجواميس من القاهرة، والعباءات من تونس، والحصر والحمص والقهوة من مخا، وبضائع اوروبية، ويقدر مجموع ما كانت تستورده سنويا ما قيمته ٢٠٠ الف قرش تقريباً[٢١].

وتقوم من بيروت قوافل برية منظمة إلى المرتفعات الجبلية اللبنانية وإلى دمشق وحلب والمناطق الداخلية من جبال نابلس والقدس، يقوم بنقلها حوالي ٢٠٠ ألف دابة من جمال وحمير وبغال، تستعمل جميعها في نقل البضائع المصدرة والمستوردة والمؤلفة من الحرير والقطن والحلي والزيت والنبيذ والقطران والتين المجفف والأخشاب والفحم والصوف وساتان دمشق وأحجار الطحن والمشمش المجفف وبقسماط[٢٢] دمشق والحامض والبرتقال والحديد والمربيات والزعفران وجميع أنواع الفاكهة. وكانت تشتري المغرب ما قيمته ثلاث ملايين قرش من حرير بيروت، وتصدر بالمقابل إلى المدينة من العباءات وباقي السلع ما قيمته مليون قرش تقريباً. وتستورد بيروت من أزمير بضائع بقيمة ثلاث ملايين قرش، كما كانت تمتلك الحكومة وأهالي البلاد حوالي مئة وخمسين مركباً وسفينة[٢٣].

وكانت تستورد طرابلس من مصر نسيج الكتان والجلود والجواميس والأبقار والأرز والقهوة وملح الأمونياك والصمغ وباقي الأدوية، وتبادل عليها بتصدير الحرير وخيوطه والأعلاف، وغالباً ما تكون هذه السلعة الأخيرة مربحة للغاية، وتعطي ارباحاً تتراوح من ١٥ ــ ٢٥ ٪[٢٤]. كما كانت تقوم من المدينة حركة تبادل تجاري بواسطة القوافل البرية مع بيروت وكسروان، وثلاث أو أربع قوافل سنوية مؤلفة

من ثلاثين إلى أربعين دابة تقوم بالرحلة بين حلب وطرابلس، وحاملة إلى حلب الحرير والصابون والزيت والبرتقال والأرز والليمون وكل سلع أوروبا والمستعمرات المطلوبة في المدينة، وتعود حاملة أقمشة حلب وبغداد وفارس والهند. وكان يصل إلى طرابلس ثلاث قوافل من دمشق تنقل أقمشة دمشق وبلاد فارس والهند من تنباك وثمار مجففة وبقسماط وتفاح وأجاص، وتعود حاملة من طرابلس كل السلع المصرية والاوروبية والمستعمرات المطلوبة في دمشق من حرير وليمون وأحياناً الصابون. وكان يقصد طرابلس من حمص حوالي اثني عشر قافلة سنوياً مؤلفة من ما يقارب الألف جمل، وتعود حاملة القلي والأرز والصابون والزيت والبرتقال والليمون لحمص وحماه. وكان هناك حوالي ستة قوافل صغيرة تنتقل بشكل مستمر بين طرابلس من جهة وحمص وحماه من جهة أخرى، حاملة إلى المدينة العدس والحمص وأثواب القطن الناعمة والخشنة، وتعود من طرابلس حاملة سلع مصر وأوروبا والمستعمرات والصابون والزيت والملح[٢٥].

ومما ينبغي الإشارة إليه بأن القوافل البرية كانت تسافر بطمأنينة تامة من طرابلس إلى عكا ودمشق واللاذقية وحماه، في حين كانت تلك القوافل تخشى عرب الصحراء عند الانتقال من حماه إلى حمص. ولذا قد كانت كل قافلة تتوجه من طرابلس إلى حلب، تنتظر في حماه قافلة دمشق الكبيرة العدد، فتسافران معا لكي تدخلا في الوقت نفسه إلى حلب، فغالباً ما كان الاعراب يتبعون هذه القوافل حتى أبواب المدينة[٢٦].

أما عن التبادل التجاري مع بلاد العرب الجنوبية فقد كان يتم عن طريق قافلة الحج الشامي، ففي كل سنة كان يتجمع في دمشق عشرات الألوف من الحجاج ليشكلوا القافلة الكبرى إلى مكة. وفي الأساس هذه الرحلة هدفها ديني فقط، ولكنها مع الوقت اتخذت طابعاً تجارياً وحضارياً، فهي سوق حقيقي مستمر يحمل كل مسافر منتجات بلاده الغذائية، التي يبادلها أما على الطريق أو في مكة مقابل الموسلين وأنسجة الهند وشالات كشمير، وأحياناً مقابل لؤلؤ سيلان وبهارات سومطرة وقهوة اليمن. وعدد كبير من هؤلاء الحجاج سماسرة قدماء للقوافل قطعوا ما يزيد عن عشرات مرات طريق الحج، وحققوا منها مكاسب ضخمة[٢٧].

وأشارت الوثائق الفرنسية المعاصرة بأنه كان يلتقي في دمشق كل سنة حوالي ثلاثين ألف مسلم، يقودهم والي دمشق إلى مكة ثم يعود بهم، وتقوم فرص للمتاجرة وإقامة علاقات نادرا ما تتمكن مدينة أخرى أن تقدمها بنفس الدرجة. وقد جاء في إحصاء جمعه دبلوماسي فرنسي من الجمرك سنة ١٨١٥، بأن المدينة استقبلت منتجات آسيوية بقيمة ١٨,٥٢٨,٠٠٠ فرنك فرنسي، ويساوي هذا المبلغ ضعف ما تستقبله كل سوريا من البضائع الأوروبية، ويستخدم في نقل هذه البضائع ٥٣٣٦ جملا و ٢٢٨٩ بغلا[٢٨] وأدى هذا النشاط التجاري إلى جعل مدينة دمشق، أكبر مدينة استهلاكية في سوريا[٢٩].

وإذا كانت قافلة الحج الشامي تلعب دورا فعالا، في تنشيط الحركة التجارية في دمشق ومدن سوريا الجنوبية، فإن قوافل الحج المسيحية القادمة من بلاد الامبراطورية العثمانية نفسها أو من بلاد أوروبا، لزيارة بيت المقدس أو الأماكن المقدسة الأخرى في فلسطين، كانت تلعب دوراً مماثلا وإن لم يكن بالاتساع والقوة نفسيهما. فقد كانوا يحملون معهم أحياناً بضائع من البلاد القادمين منها، كما كانوا يشترون من البلاد منتجاتها، وبخاصة البضائع الدينية كالمسابح والصلبان وغيرها[٣٠].

وهكذا رغم اكتشاف البرتغاليون لرأس الرجاء الصالح واستخدام الطريق التجارية الجديدة عقب الاكتشاف المذكور، ورغم جمود السلطات العثمانية الحاكمة لبلدان المشرق والمغرب العربي وابتعادها عن كل ما من شأنه تطوير الحياة الاقتصادية لم تفقد هذه البلدان أهميتها التجارية، وارتبطت فيما بينها بحركة واسعة للمبادلات التجارية. فحافظت على حياتها الاقتصادية كما كانت عليه في نهاية عهد المماليك، دون أن تتمكن من تحقيق ازدهارا اقتصاديا لامعا، كما كان ينظر منها بعد دخولها في نطاق امبراطورية شاسعة مترامية الأطراف.

■

مصدر الوثيقة: وزارة الخارجية الفرنسية.
وحدة حفظها: المراسلات التجارية والقنصلية (.C.C.C)، مجلد ٧٩ (Constantinople) صادرة عن ترابيا بتاريخ ١٧/١٠/١٨١٦.
موضوعها: من سفير فرنسا لدى الباب[١] العالي إلى رئيس وزراء فرنسا الدوق ريشيليو. والي عكا ووالي مصر يحتكران تجارة ولايتيهما، يجب إفشال مخطط محمد علي القاضي بإقامة صناعة وطنية في مصر.

صدرت أوامر من الباب العالي إلى ولاة المشرق لحماية وتشجيع تجارة فرنسا، فبالرغم من ان الزيت والحرير هما المحصولان الرئيسيان اللذان يصدران من اساكل[٢] شبه جزيرة المورة وقادش، فقد منع خروجهما. وليس ما يدعو إلى الدهشة، بان الولاة الذين يحكمون يمكن أن يحققوا دخلا حين يسمحون بالتصدير، لكن هؤلاء الباشاوات هم غرباء عن البلاد وليس لهم أملاك.

والي عكا (اي سليمان باشا) غريب وهو أغنى ملاكي سوريا، وكل الأرض التي تنتج القطن هي ملكا له، وهو البائع الوحيد ويفرض القانون على المشترين. وحتى هذه الأثناء لم ينجح في التوصل إلى درجة إجبار وكلاؤنا على شرائها، في الأسعار التي تناسبه، ولا يمارس عليهم سوى ضغط معنوي لأنه يشعر جيداً ان مصلحته تفرض عليه ان يجاريهم، وان يعرف كيف يجب ان يمارس مهام سلطته. صار من المرغوب فيه لجني المكاسب الكبرى لتجارتنا، ضرورة عدم وجود هذه الأمور في سوريا. وبما ان تعليمات الباب العالي تمنع الاستغلال، فسوف احاول ان اجعله يوجه اوامر (اي الى باشا عكا) بان يقوم بالمهام الملقاة على عاتقه بطريقة لائقة، وان يوقف احتكار إنتاج اراضي ولايته، وعدم عرقلة تجارة الفرنسيين المقيمين في ولايته. ولكن لا اكتم عليك بان الباشا سوف يعرف كيف يتخلص من تنفيذ هذه الأوامر، وبانه لن يكون للباب العالي لا الوسيلة ولا القدرة على معارضته، لأنه بعيد عن متناول سلطته المباشرة.

وفي مصر يحتكر الباشا (اي محمد علي) شراء وبيع كل ما تنتجه وما تستورده مصر، ويرغب أن ينتزع من الأوروبيين العمولة، لأنه يقوم بالاستيراد والتصدير عن طريق وكلائه ومراكبه، ويحاول زيادة ثرائه لإنشاء جيش من عدة فرق لصد الأعراب[٣]، وقد فشل الباب العالي في ضربه.

ويمد محمد علي نظره ابعد من ذلك، وهو التخلص من صناعتنا، ويخطط لذلك بان يرسل مئات من الأطفال إلى فرنسا وايطاليا، لتعلم مختلف المهن والسلع المنتجة في معاملنا. يجب اتخاذ إجراءات في إيطاليا وفرنسا لإفشال هذه الخطط.

سفير فرنسا لدى الباب العالي
شارلز ماركيز دي ريفيار

وثيقة مترجمة عن الأصل الفرنسي من مجموعة الدكتور حسين سلمان سليمان

(١) الباب العالي، كناية عن مبنى كبير فخم اقيم في عهد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ ــ ١٦٨٧)، خصص جناح منه ليقيم به الصدر الأعظم مع اسرته وخدمه وحرسه، وخصصت باقي الأجنحة لاجتماعات كبار موظفي الدولة الذين يقومون بتصريف مهامها. وغدا إسم هذا المبنى «باشي قابيسي» أي بوابة الباشا، و «بابي عالي» أي بوابة عليا، ثم اكتسب إسم الشهرة في التاريخ وهو الباب العالي.

(٢) الأسكلة، من الايطالية (Scala) دخلت التركية بصيغة أسكلة، وتطلق في التركية على رصيف الميناء البحري، ثم صار تطلق على الميناء.

(٣) اي قهر الدولة السعودية الاولى (١٧٤٥ ــ ١٨١٨) التي قامت في شبه الجزيرة العربية على التعاليم السلفية النجدية التي دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

الهوامش

(١) ليلى الصباغ. المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني. دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٣، انظر ص ٨٣.

(٢) إدوارد روبنصون. يوميات في لبنان، تاريخ وجغرافيا. فصول اختارها وترجمها عن الانجليزية أسد تشيخاني. بيروت، ١٩٤٩. انظر ص ١٤٨.
Touma, toufic, paysants et institutions féodales chez les druses el les Marointes du Liban du XVIIe. Siécle a 1914. 2 t. Beyrouth 1971-1972. voir V. 2p. 419; Burckhardt, John Lewis; Travels in Syria and the Holly Land. London, 1822. See p. 34.

(٣) شاكر الخوري. مجمع المسرات. بيروت، ١٩٠٨، انظر ص ٣٧.

(٤) هاملتون جب وهارولد بون. المجتمع الإسلامي والغرب. جزءان، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠ انظر ج ٢ ص ١٤٧.

(٥) Weuleresse, Jaques. Le pays des Alaouites tours, 1940. Voir p. 142.

(٦) جب وبون. مرجع سابق، ج ٢ ص ١٤٧ ــ ١٤٨.

(٧) فرنسوا شاسبوف فولني ــ سوريا ولبان وفلسطين في القرن الثامن عشر، جزءان، تر. حبيب السيوفي. المجلة المخليصية، صيدا، ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩، انظر ج ٢ ص ٩٣؛ دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (Acre) مجلد ٩٧٩ تاريخ ١٩٨٣/٧/١٦.

(٨) Perrier, Ferdinand, La Syrie sous le gouvernement de Mehemet Ali jusqu'en 1840 Paris,1842.,voir pp. (86-88).

(٩) Dambman et Noel,Verney. Les puissances étrangéres dans le Levant en Syrie et en Palestine. Paris, 1900. voir pp. (156-160).

(١٠) جب وبون. مرجع سابق، ج ٢ ص ١٤٩.

(١١) المجتمع الإسلامي والغرب. مرجع سابق، ج ٢ ص (١٥٠ ــ ١٥١).

(١٢) المرجع نفسه. ص (١٥١ ــ ١٥٢).

(١٣) أطلق إسم جبل عامل على المنطقة الممتدة من نهر الأولي شمال مدينة صيدا حتى الراس الأبيض جنوبا، ومن البحر المتوسط غربا حتى بحيرة الحولة بعرض ثمانين كيلومترا شرقا، وهي منطقة منبسطة تشمل هضاباً وسهولاً داخلية وساحلية وتخترقها انهار وجداول.

(١٤) Ismail, Adel., Documents Diplomatiques et consulaires, relatif à L'histoires du Liban et des Pays du Proche-orient du XVII Siécles à nos-jours. 28 tomes, Editions les oeuvres politiques et historiques. Beyrouth, 1975-1983. voir t.3 pp. (96-97).

(١٥) Ibid. p. 114.

(١٦) Ibid pp. (62-65).

(١٧) لا يقصد بجبل الدروز هنا جبل الدروز الذي هو جزء من الجمهورية السورية حاليا، ويطلق عليه الآن إسم جبل العرب. وإنما يقصد به جبل لبنان وكان أكثر اهله يومئذ من الدروز. وهو يتألف من المرتفعات الغربية اللبنانية الممتدة من نهر الكلب شمالا حتى نهر الأولي جنوبا.

(١٨) Ibid p. 114.

(١٩) Ibid pp. (62-68).

(٢٠) وحدة وزن يختلف مقدارها وفقا للسلعة والمناطق المستخدمة فيها، كانت تعادل في موانىء بلاد الشام بين ١٨٠ إلى ١٩٠ كلغ في حين كان يزن في حلب ٢٢٨ كلغ وكذلك في حماة. لمزيد من المعلومات انظر: نوفان رجا الحمود. العسكر في بلاد الشام في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١.

(٢١) دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (F 12 1850) صادرة عن قنصلية فرنسا في طرابلس تاريخ ١٨١٢/١١/٢٦.

(٢٢) البقسماط في التركية (بكسماد، بالباء المشربة وهو خبز جاف يابس يتزودو به المسافر.

(٢٣) دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (F 12 1850) صادرة عن قنصلية فرنسا في طرابلس بتاريخ ١٨١٢/١١/٢٦.

(٢٤) Ismail op.cit. t. 3 p. 372.

(٢٥) Ibid t. 4 pp. (395-397).

(٢٦) Ibid p. (397-398).

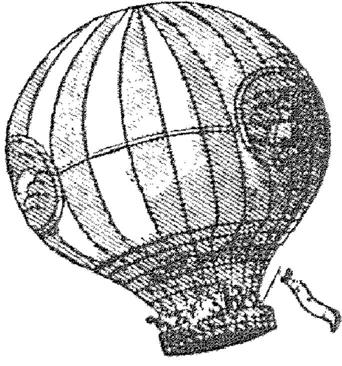
(٢٧) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة Turquie (M. et D.) مجلد رقم ٢٠ وثيقة رقم ٣٦ تاريخ ١٨٣٣/٩/١.

(٢٨) (Ibid).

(٢٩) أرشيف غرفة التجارة والصناعة في مرسيليا مجموعة Damas (A.C.C.M.) مذكرات عند تجارة دمشق تاريخ ١٨٢٦/١/٢٠.

(٣٠) ليلى صباغ. مرجع سابق ص ٩٠.





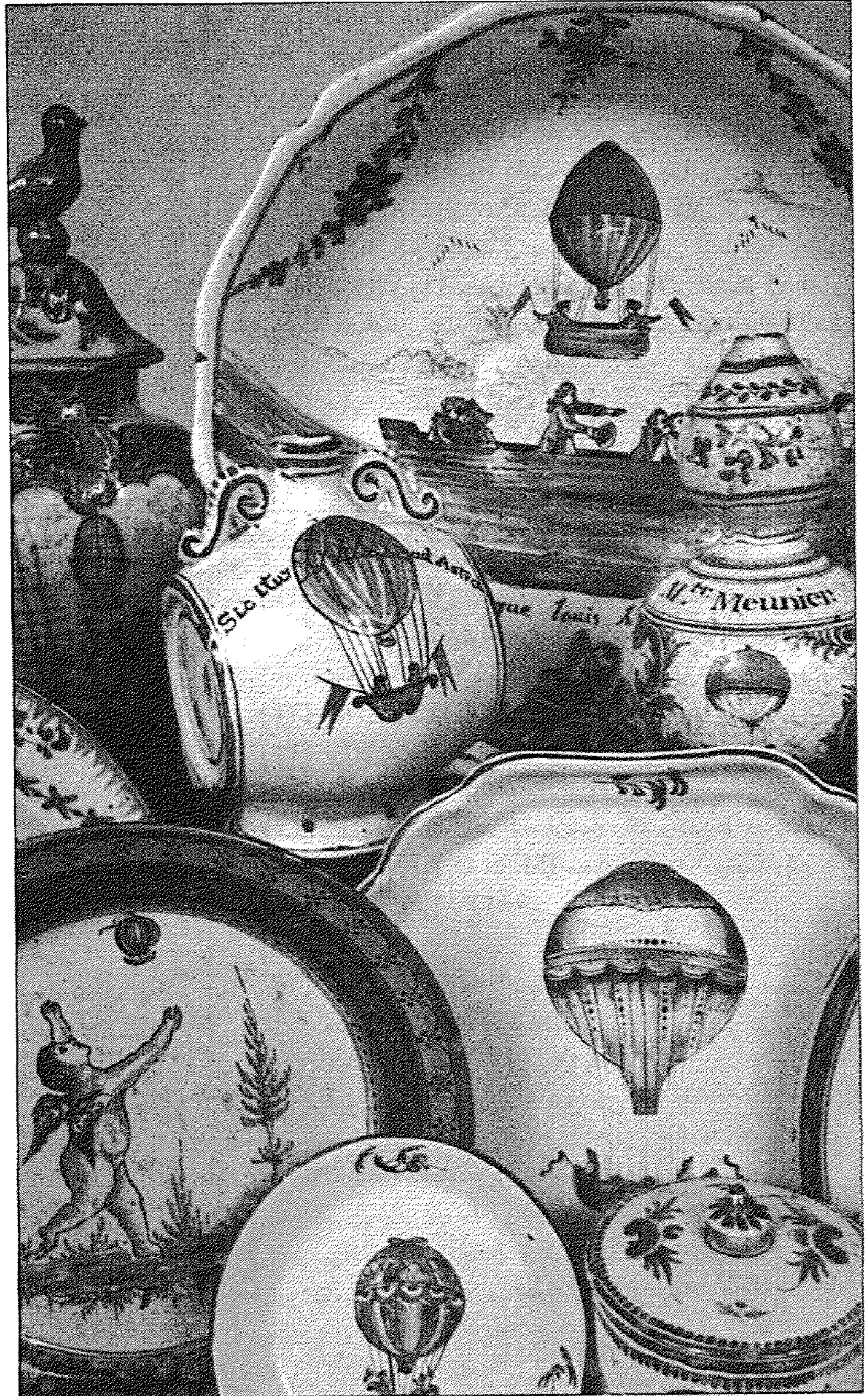
تحف تعرض لأوّل مرّة في الذكرى المئويّة الثانيّة لأول منطاد



الرابع من حزيران ١٧٨٣، في الحقل الواقع خلف الكنيسة، كان الأخوان مونغولفيي قد نفخا منطاداً، هو عبارة عن كرة كبيرة قطرها أحد عشر متراً،من نسيج مضاعف مبطن بالورق. وكانت القرية هناك، معلم المدرسة، وأطفال الكورس، والبواب.. الخ.. الواقع انه لم يبق احد في بيته. كان الجميع ينتظرون مشاهدة العجيبة، وأيديهم على قلوبهم، خوفاً على الأخوين مونغولفيي.

في الوقت المحدد، بدأت التجربة. ترجح المنطاد قليلا، ثم علا في الجو، وبقي هناك عشر دقائق، وكأنها الأبدية.

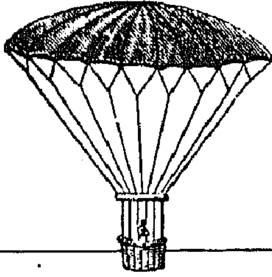
سار كل شيء بسرعة، بعد ذلك. لويس السادس عشر نفسه، أهمل واجباته وانشغل بالمنطاد. وأمر أن تعاد التجربة تحت اشرافه، في فرساي. وفي التاسع عشر من ايلول، الساعة الواحدة بعد الظهر، أعلن احد المسؤولين ان المنطاد سينفخ. ثم اعلن آخر، بعد احدى عشرة دقيقة ايقاف التجربة، ذلك ان



□ **مجموعة من الخزفيات تعرض انواع المناطيد بين ١٧٨٣ و١٧٨٥.**

احتفل العالم في اوائل ايار ـ ١٩٨٣ ـ بذكرى مرور مائتي عام على طيران أول انسان في المنطاد. وقد أقيم معرض هام جدا للتحف والأواني التي غلب على تزيينها أو شكلها، طابع المنطاد، الذي غدا نموذج العصر ـ قبل مائتي عام ـ للتحف والأعمال الفنية، بل النسيج نفسه.

فمتى كانت أولى تجارب الطيران بالمنطاد؟



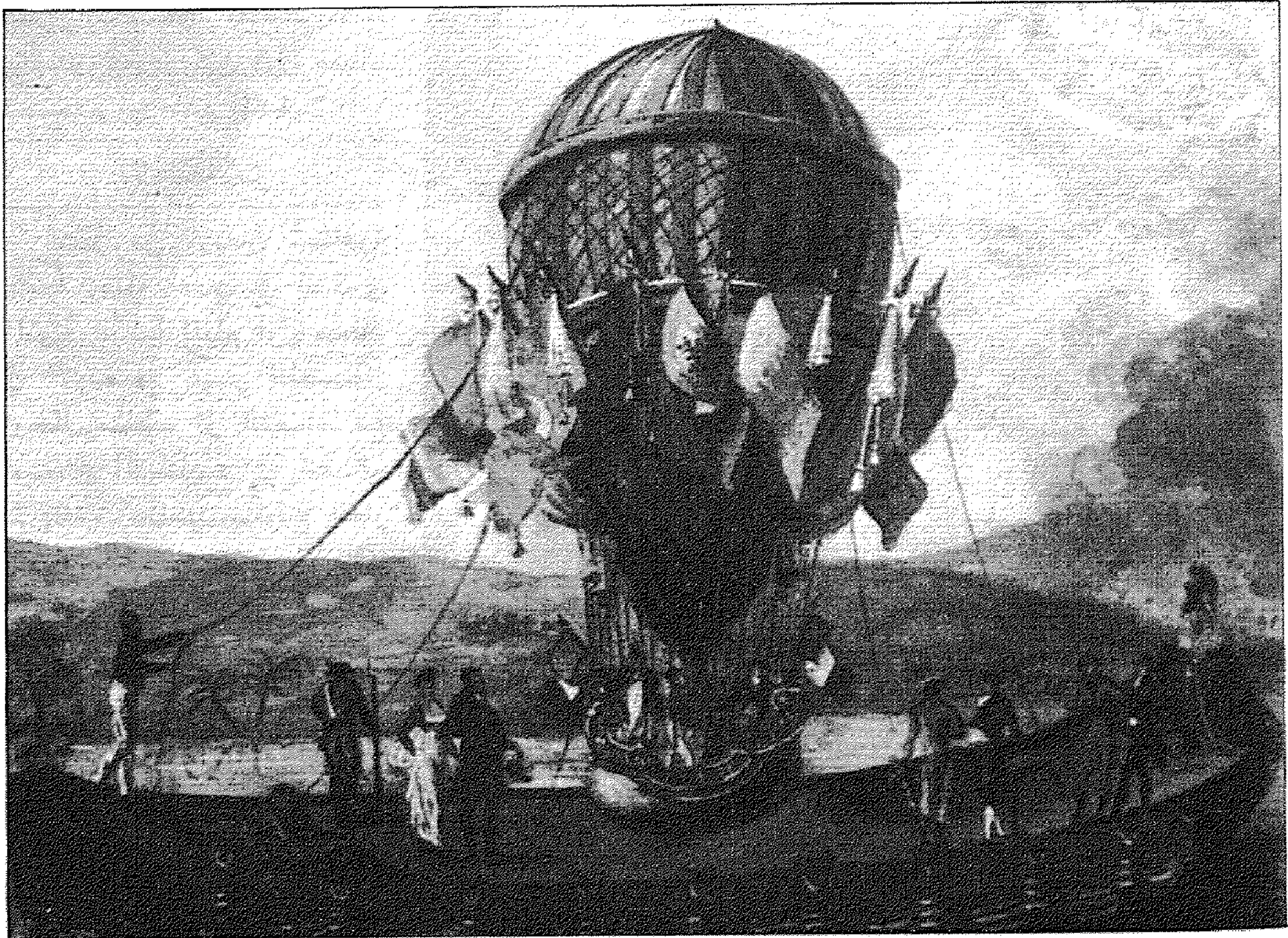
د. سامي زكي

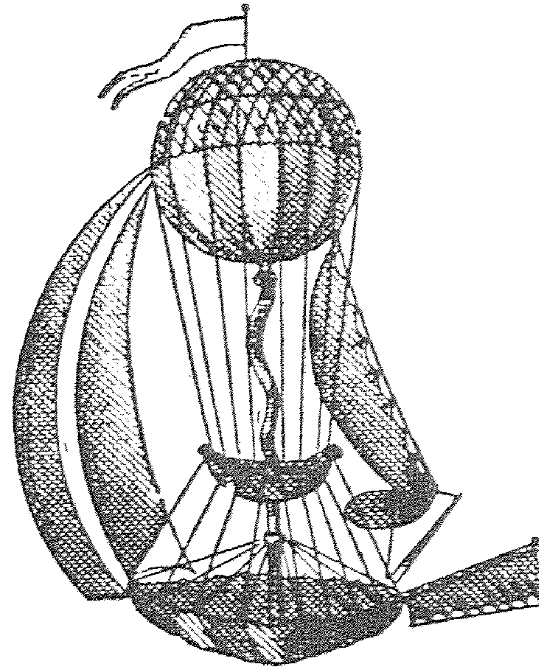
أحد الأخوين (مونغولفيي) قرر أن يمتطي المنطاد. فاعترض لويس السادس عشر على ذلك، ونصح بتجربة ارسال حيوانات بدل الانسان (ديك، أو بطة، أو خروف).

كان بين الجمهور المحتشد في فرساي، رجل حالم النظرات، لا يكترث له احد، ولكنه كان يتأمل التجربة بدقة متناهية. كان اسمه مجهولا حتى ذلك الوقت. ولكنه بعد شهرين من ذلك، اصبح اسمه على كل لسان: انه بيلاتر دوروزي. فقد حقق، مع مغامر آخر، هو الماركيز دارلاند اول طيران انساني بالمنطاد.

في الساعة الثالثة عشرة وأربع وخمسين دقيقة، من ٢١ تشرين الثاني، ارتفع المنطاد ذو اللون السماوي المذهب، في الفضاء بكل جلال. ارتفع خمسين مترا، ثم مائة.. وراح الرائدان يحييان الجمهور. ثم أججا النار فصعّد المنطاد حتى صار على علو الف متر. وخلال خمس وعشرين دقيقة

□ صعود منطاد ١٨ برومير السنة العاشرة.





حلقا فوق السين، والمدرسة الحربية، وشارع سيفر، ثم حطا على (بوت اوكاي) (على بعد خطوات من باب ايطاليا).

بعد اسبوعين قام طياران آخران بالصعود بمنطاد نفخ بالهيدروجين. وكان اول منطاد تستخدم فيه هذه المادة.

الاحتفالات

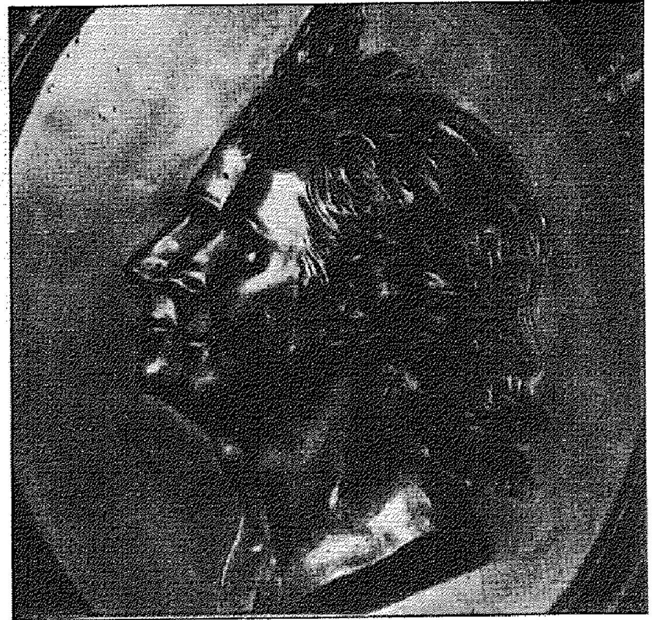
اكثر من اربعين تظاهرة علمية وفنية اعدت في الذكرى المئوية الثانية لقيام اول منطاد في الارتفاع عبر الفضاء: إرسال مناطيد الى الفضاء، مع ابطال المناطيد في العالم — إطلاق مناطيد بأنواع الغاز الت استعملت منذ الاطلاق الأول — حلقات علمية في اكاديمية العلوم — تدشين متحف البالونات في «مودون» — توزيع كاتالوج مجموعة شارل فولتون — عرض تحف أثرية لها علاقة بالمنطاد (اربعمائة قطعة: طوابع، لوحات، أوان، بورسلان، خزفيات..الخ). يتبع ذلك معرض في (غران بالي) على مساحة ١٣٠٠٠م٢، تعرض فيه نماذج لأدوات غزو الفضاء، منذ منطاد مونغولفيي حتى الأقمار الاصطناعية. وسيعرض نموذج مونغولفيي بالحجم الطبيعي الذي اطلقه الأخوان مونغولفيي، ومنطاد من عام ١٨٧٠ قطره ستة عشر مترا، والمنطاد (لافرانس) (١٨٨٤) الذي ما يزال على حاله تقريبا، وطوله ٥٤ مترا هذا بالاضافة الى تحف فنية استوحت المنطاد.

لقد كان المنطاد واوائل من صنعوه أو طاروا به مصدر وحي لكثير من الفنانين والحرفيين وصانعي الأواني: أثاث البيوت، الساعات، القماش، الخزفيات، البورسلان، اللوحات الجدارية، الطوابع. ثمة لوحات غدت نادرة الآن، ومرتفعة الأسعار. كذلك الطوابع والخزفيات. ذلك ان كل متحف يطمح الى ان يضم بعض تلك التحف. مع العلم ان

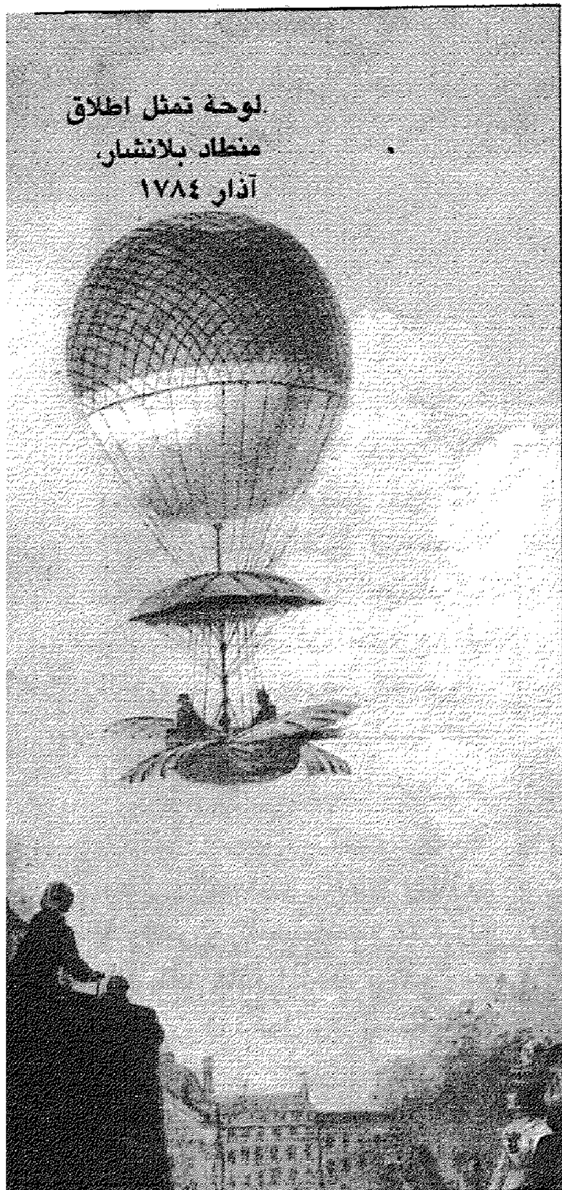


□ كل محاولات الطيران بالمنطاد منذ ١٧٨٣ مرسومة على علب خزفية في متحف بورجي.

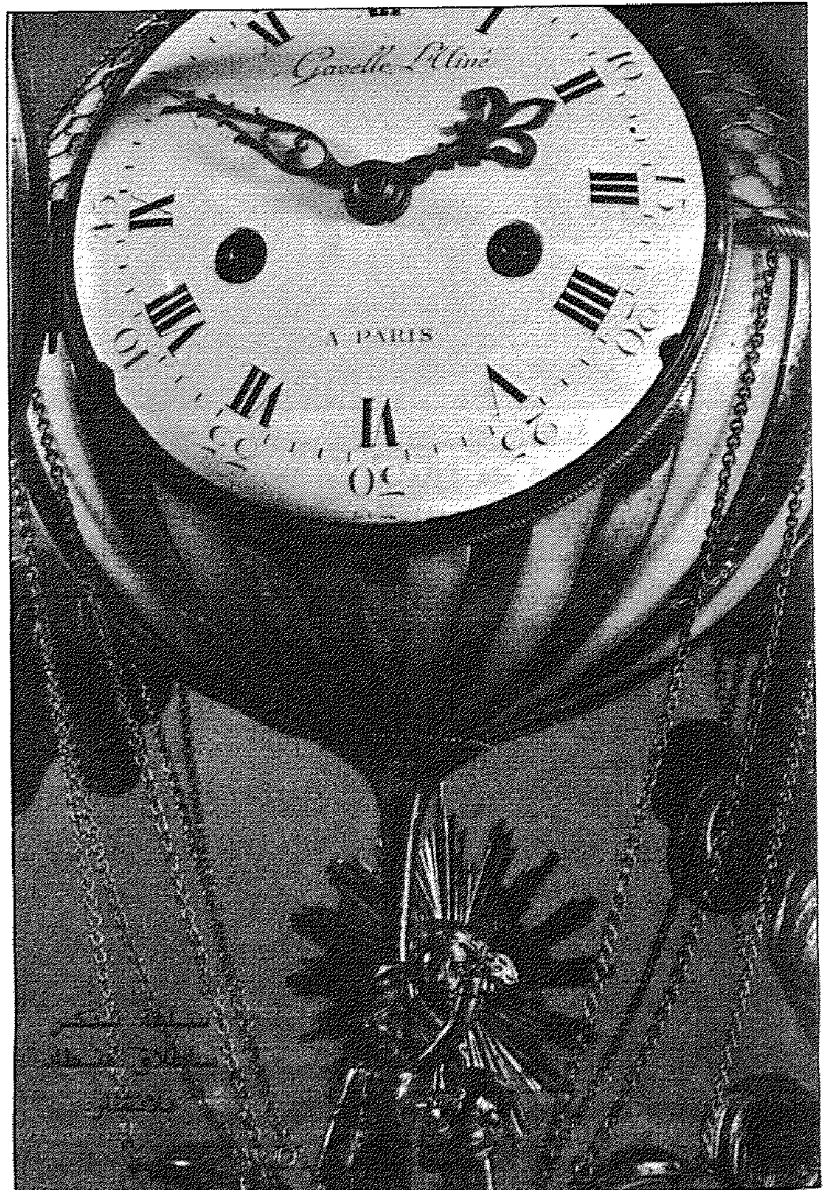




□ رواد الفضاء: الأخوان مونغولفيـي على ميدالية برونزية ـــ بيلاتر دوروزيي: تمثال نصفي.



لوحة تمثل اطلاق منطاد بلانشار، آذار ١٧٨٤

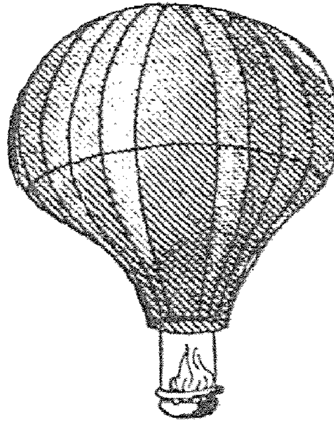


□ اول معرض في (غران بالي) عام ١٩٠٩، للمناطيد. في هذا المكان يقام المعرض الحالي في الذكرى المئوية الثانية لاطلاق المنطاد.

متحف بورجي لا يمكن ان يجارى في ما يضم من تلك الآثار الفنية. غير ان معظم مقتنياته ما تزال في الصناديق، ولم يتح لها ان تخرج الى النور، لذلك ستعرض كجزء من التظاهرات الفنية بمناسبة هذه الذكرى.

ثمة منحوتات تروي قصة رجال الجمارك الذين جاؤوا يراقبون البضائع المنقولة بالمنطاد، فاذا المنطاد يرتفع وهم واقفون في ذهول ولا يستطيعون أمرا.

وثمة منحوتات اخرى تصور احتفاء الجمهور مع الملك



بطيران المنطاد، والوليمة على شرف الرواد، و«الكريما الفضائية» التي قدمت، وغير ذلك من الطرف التي اوحتها المناطيد.

من المجموعات الشهيرة الفنية، تلك التي امرت ماري انطوانيت بصنعها: واشهرها الساعة التي كانت تضعها الى جانب سريرها. كذلك ساعة مونغولفيي المصنوعة من المرمر الأبيض والبرونز المذهب، وقد رفعت على عمودين صغيرين.

هذا الى مجموعات كثيرة تصور حالات مختلفة: الغذاء، النزهة، الشراب، الخ.. وكلها ثمين جدا. ■

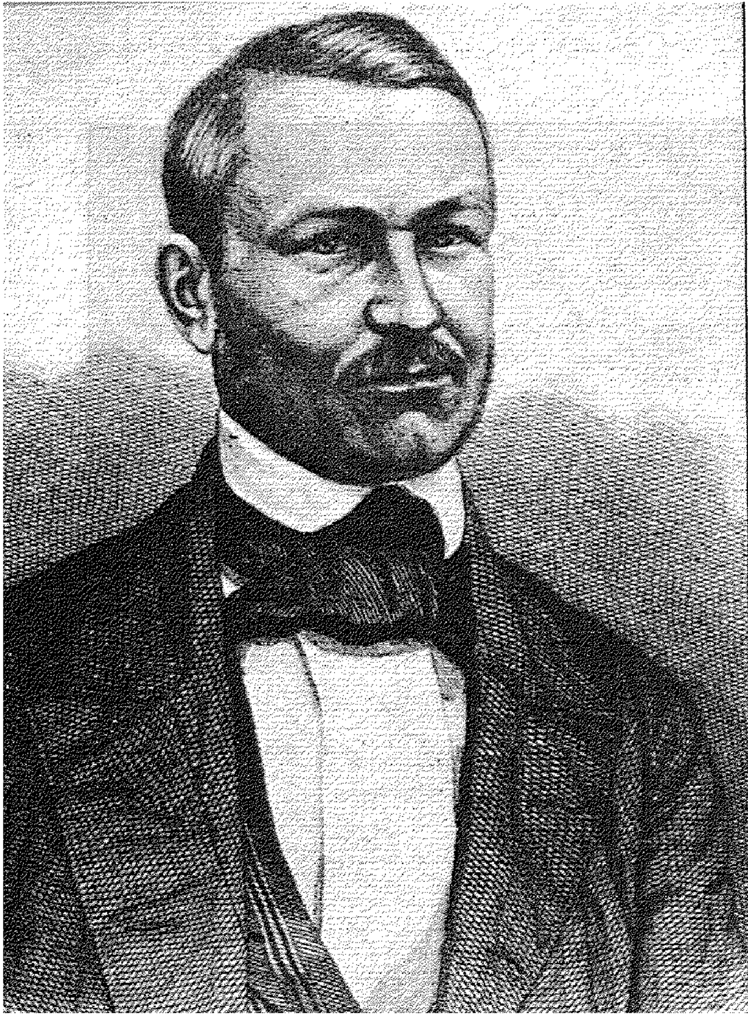
أبحاث

هاينريش بارت

في تاريخ الإسلام وانتشار اللغة العربيّة في افريقيا

ميلكس كلاين فرانكه

الحلقة الأولى



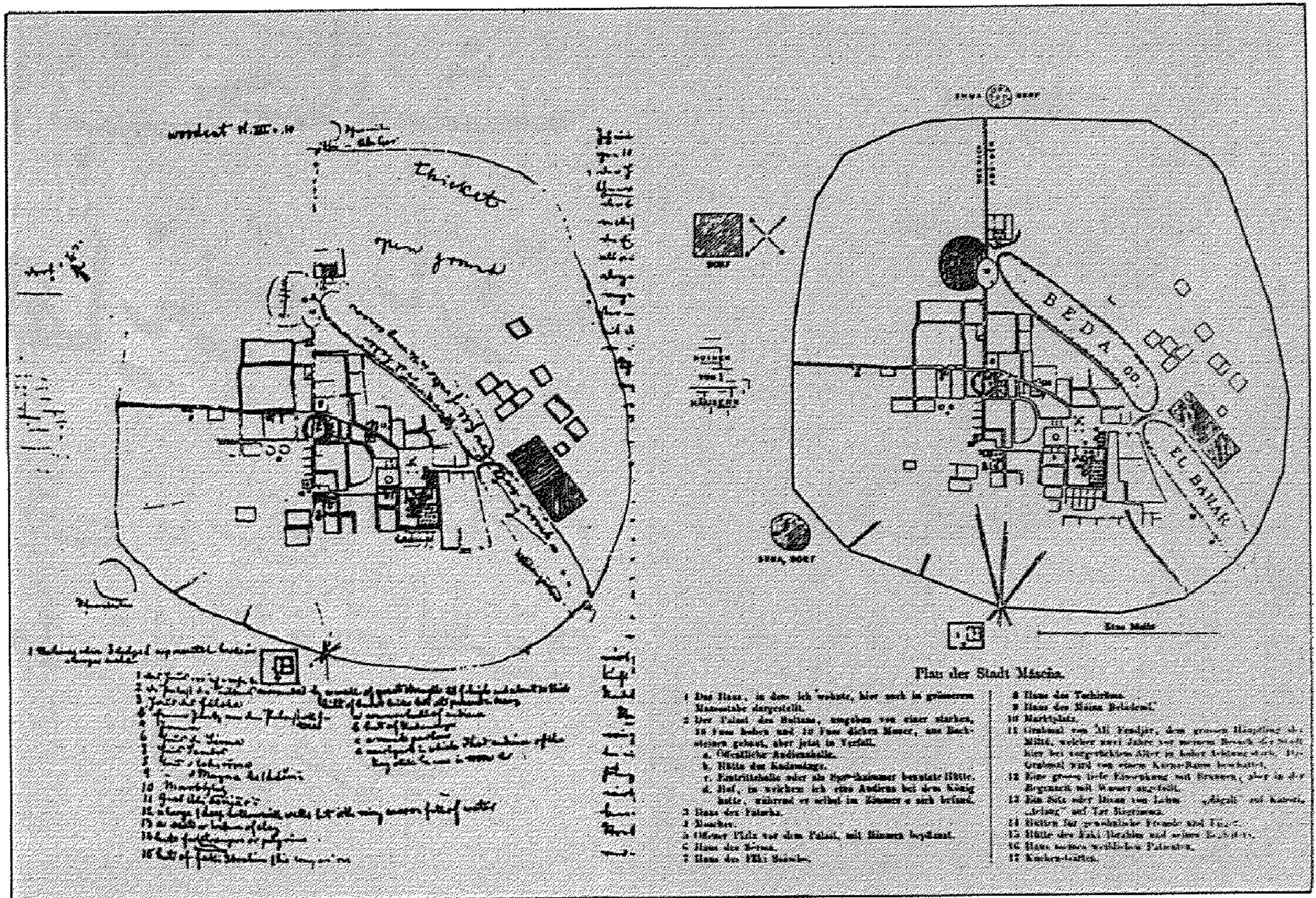
□ تصوير هاينريش بارت (Heinrich Barth) عن كتاب: Frühe Wege zum Herzen Afrikas Turris-Verlag, Darmstadt, 1969.

ولد هاينريش بارت البحاثة والرحالة الألماني عام ١٨٢١، وتوفي عام ١٨٦٥، وقد نشرت دار نشر فرانس شتاينر بقيسبادن في عام ١٩٦٧ كتاباتذكارياً لمناسبة مرور مائة سنة على وفاته. ومع أن بارت كان يكثر من التجول والترحال في الاناضول واوروبا الشرقية والجنوبية وقد الف عن رحلاته ما الف من الكتب والمقالات، فسياحته الأكثر شهرة هي الرحلة التي قام بها في افريقيا بين عامي ١٨٤٩ و١٨٥٥، والتي جمع اثناءها معلومات كثيرة حول تاريخ أهل افريقيا الشمالية والمركزية وعاداتهم وتقاليدهم كما انه جمع الأخبار الجغرافية والمتعلقة بالعلوم الطبيعية على العموم وهذا اول كتاب الف في اوروبا حول هذه المنطقة غير المعروفة.

ونظن ان اكتشافات بارت في افريقيا وملاحظاته في حضارة السكان المسلمين في منطقة تشاد والنيجر مهمة جدا في يومنا هذا حينما نشاهد الاسلام في افريقيا ينتشر ويزداد قوة. لذلك نود أن نقدم لقرائنا ورقة من تاريخ الاكتشافات الألمانية في افريقيا الغربية والشرقية.

وعلى القارىء الا ينسى ان كلمة «السودان» كانت تستعمل في زمان بارت لتشير الى المنطقة المركزية في افريقيا، أي ما يلي تشاد حتى مملكة نيجيريا غربا ومالي شمالا، ولم تطلق ابداً على السودان الذي نعرفه اليوم!(*)

(*) عن كتاب: *Heinrich Barth. Ein Forscher in Afrika. Leben. Werk. Lesitung* Herausgegeben von Heinrich Schiffers. Franz Steiner Verlag, Wiesbaden 1967.



□ خريطة لمدينة «ماسينيا» (Masena)، مركز الحكومة في مملكة باغرمي، عام ١٨٥٢: على اليسار صورة تخطيطية كما رسمها بارت في يومياته ١٨٥٢: على اليمين نسخة مصححة مطبوعة منها كما نشرت في كتاب بارت حول سياحته.



عندما جاب هاينرش بارت (Heinrich Barth) في منتصف القـرن المـاضي ربوع السودان وراح يستكشف بقاعه، لم تكن هذه البلاد الواسعة معروفة جيداً في اوروبا ولا تاريخها القديم والحديث ولا أوضاعها الاجتماعية والثقافية المعقدة. وكان علم اللغات الشرقية لا يزال حقلا علمياً فتيا، كما استطاع بارت أن يعتمد في حالات قليلة جداً على أبحاث ودراسات تمهيديـة سابقـة. فقبل بـارت كان الرحالون قد اخترقوا افريقيا حتى اواسطها. ولكن بارت يتفوق عليهم جميعا كعالم حق. فقد جمع ما بين البحث النظري والعملي على أحسن وجه.

— ١ —
سيرته

ولا نعرف الشيء الكثير عن دراسات بارت الشرقية. فكما كتب ستانلي ــ بول (Stanley Lane-Poole) عن حيـاة حميه، المستشـرق المعـروف والمعاصر لبـارت، إدوارد ويليام لين (Edward William Lane)، فقد قام صهر بارت، شوبرت (Schubert)، بكتابة سيرة حياة حميه بارت، وفيما عدا خبراً مختصرا مفاده ان بارت كان قد درس مدة اربعة أشهر على يدي استاذ للاستشراق في لندن، فاننا لا نعرف شيئا اكثر من ذلك عن دراسته الشرقية. وكان بارت على صلة بعدد من المستشرقين: كجون نيكولسون (John Nicholson) في بنريث (Penrith)، وبلاو (Blau) ورالفس (Ralfs). ولا نعرف إن كان قد تعرف أيضاً على لين (Lane) في انكلترا. وكان بارت قد قرأ كتابه «عادات وتقاليد المصـريين الحديثين» (Manners and Customs of the Modern Egyptians) الذي كتبه بعد أن اقام عامين في مصر، كما أشار إليه واقتطف منه في كتابه «رحلات في افريقيا» (Reisen in Afrika) ويتشابه الباحثان كثيرا في موقفهما الذي ينطوي على احترام الحضـارات الغريبـة عليهما. وفي مقدمة كتاب لين المذكور، يقول المؤلف (ص XI):

«لقد عاشرت المسلمين من جميع طبقات المجتمع بوجه خاص: فكنت اعيش كما يعيشون واتكيف لعاداتهم العامة؛ ولكي أجعلهم يألفونني ويتخلون عن أي تحفظ تجاهي في كل موضوع، فقد كنت اظهر موافقتي لهم في الراي كلما سمح ضميري بذلك، وكنت، في أغلب الحالات الأخرى، أتحاشى التعبير عن مخالفتي في الرأي، كما أتحاشى القيام بأي عمل من شأنه أن يثير اشمئزازهم؛ فكنت امتنع عن تناول الطعام الذي يحرمه دينهم، وعن احتساء الخمر، وما شابه ذلك؛ كما كنت اتجنب العادات التي لا تروق لهم كاستعمال السكاكين والشوكات أثناء تناول الطعام».

وبطريقة مشابهة لذلك يتحدث بارت في مقدمته (ص XXIX وما تلاها)، فيقول إنه يرى أن من «الفطنة أن اتكيف في الملابس والأمور الأخرى لعادات أهل البلاد، وذلك بارتدائي زياً نصفه عربي ونصفه سوداني، يكون اكثر ملاءمة لمناخ البلاد، كما يبدو في نظر أهل البلاد أكثر حشمة من ملابس الأوروبيين. بل تبدو بعض التصرفات في حياة الأوروبيين اليومية عملا مشينا في نظر المسلمين، بحيث أن الرحالة المنفرد الذي لا حول له ولا قوة والذي يسعى إلى النجاح في مشروع لا يخلو من النبل، سيكون بعيداً عن الحكمة إذا رفض التكيف بهذا الخصوص مع مشاعر أهل البلاد وأعرافهم.. ومن الجهة الأخرى فإن بعض عادات المسلمين مليئة بالورع الحقيقي، بحيث انني اعتقد أن الرحالة المسيحي يستطيع ان يتكيف بازائها دون ان يؤثر بذلك على خلقه المسيحي بأي شكل من الأشكال».

أما ما يتعلق بدراسات بارت الشرقية، فقد كان، بوجه عام، وعلى ما يبدو، عصاميا. وكانت اللغة العربية بالنسبة له وسيلة للتعرف على البلاد وأهلها. ولو استخدم اللغة العربية الفصيحة في السودان لما استطاع التفاهم مع أهل البلاد، حيث أن السكان المسلمين لم يكونوا يتمتعون بوجه عام بمستوى ثقافي رفيع. ولذا فقد كان عليه أن يتعلم اللهجة العامية للوصول إلى غايته. وكان بوسع بارت التفاهم بدون جهد بالعربية. وبمناسبة مثوله بين يدي السلطان عبد القادر في ميسينيا، يكتب بارت[1]: «ألقيت كلمتي بالعربية، بينما راح صديقي الأعمى سمبو يترجم حديثي إلى لغة البغرمي كلمة كلمة، كما كان يعطيني ايماءة بين حين وآخر، كلما بدا له انني استخدمت تعابير قوية جداً». أما هذه «التعابير القوية جداً» فهي على ما يبدو اصطلاحات لغوية من العربية الفصحى، ممزوجة باللغة العامية، كانت تبدو مثيرة جدا لمترجمه.

وبالاضافة الى العربية كان بارت يتحدث كذلك لغات الفولبه والهاوسا[2] والكانوري[3]. ورغم موهبته الكبيرة لتعلم اللغات فانه لم يقم بنشر النصوص العربية التي جمعها وإنما كلف المستشرقين المذكورين أعلاه بذلك. وبطبيعة الحال فان تصحيحات بارت لهذه الترجمات التي كلف بها غيره لم تكن صحيحة دائما؛ كما أن الوثائق والايصالات التي كتبها بارت بالعربية لا تخلو أحيانا من اخطاء تتنافى وقواعد اللغة العربية. ولكن بارت كان على أي حال قادرا على قراءة كتابات ومؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب وكذلك المخطوطات التي ذكرها، كتزيين الورقات[4]، وتاريخ السودان[5]، والانفاق الميسور[6] مثلا، قراءة فاحصة نقادة ومتمكناً من تقييمها لأغراض أبحاثه الخاصة ـــ وهذا مجهود لا يجوز الاستهانة به. وهناك عدد قليل من الرحالين العلماء الذين يستطيعون ان يتباهوا بميزة اتقان اللغات واللهجات المختلفة للبلاد التي يجوبونها لأغراض الاستكشاف ونذكر في هذا المجال بوجه خاص المستشرق ماكس فرايهر فون اوبنهايم (Max Freiherr von Oppenheim) الذي عين عام ١٨٩٤ رئيسا لبعثة استكشافية الى بحيرة تشاد، والذي أشاد في كتابه «رابح ومنطقة تشاد» (Rabeh und das Tschadgebiet) (Berlin, 1902) بأعمال بارت واكتشافاته[7].

لقد قام بارت بتصحيح كثير من التصورات الخاطئة عن السودان. ولم يستفد من أبحاثه واكتشافاته حقلا الجغرافيا والاثنولوجيا فحسب، وانما أفاد الاستشراق من ذلك بنفس القدر. فلم يبحث أحد من قبله تاريخ الاسلام في السودان كما فعل هو. ولكن كتابه «رحلات في افريقيا» لا يعتبر مصدرا لا ينضب بالنسبة للمؤرخ فحسب، بل وكذلك بالنسبة لعالم اللغة بين المستشرقين. ولو اعتبرنا الأمر من وجهة نظر

البحث العلمي الحديث فان لدينا اليوم، وخاصة في علم اللغة، معرفة تفصيلية اكثر دقة. وقد زادت المصادر الجديدة المكتشفة في عشرات السنين التالية من معرفتنا هذه. ومن الجهة الأخرى، لا بد أن نأخذ بنظر الاعتبار أن بارت اراد نتيجة الالحاح الشديد من جميع الجهات ان ينشر كتابه «رحلات في افريقيا» في أسرع وقت ممكن — فقد طبع عمله المكون من خمسة مجدات بعد عودته بعامين، بل ان النسخة الانجليزية من مؤلفه ظهرت قبل ذلك. ولذا فان بعض الأمور التي تستحق اهتماما اكبر لا تظهر الا في الهوامش.

ليس الغرض من هذه الدراسة سد الثغرات الموجودة في تفاصيل بارت بطريقة منظمة، ولا تصحيح هذه التفاصيل حيثما يبدو ذلك ضروريا. إذ يجب ان ينظر الى عمل بارت أولا من زاوية عصره، وإنه لمن غير المجدي قياس هذا المؤلف بمقياس غير المقياس التاريخي. وسأقتصر فيما يلي على معالجة الحقلين اللذين يعتبر استكشافهما على يدي بارت ذا أهمية قصوى بالنسبة للاستشراق، واعني بهما: تاريخ الاسلام، وانتشار اللغة العربية في السودان.

— ٢ —

الدراسات الخاصة بالاسلام والمسلمين في السودان

عند ذكر كلمة الاسلام، يجب ان نميز هنا امرين مختلفين: الاسلام كدافع تاريخي سياسي، والاسلام كنظام ديني. ومنذ بدايته الأولى انطبع الاسلام بصلة قوية بالحياة الدنيا. فلم يكن الدين الجديد مجرد «صراط مستقيم» يسير عليه المؤمن بثقة وأمان إلى سعادة الآخرة وجنة الخلد فحسب، وانما تعهد بالاهتمام بحياة المؤمنين الدنيوية ونظم علاقاتهم ومعيشتهم الاجتماعية بنظم وقوانين دقيقة. وكانت المجتمعات الاسلامية الفتية منظمة تنظيما شديدا، كما انها شكلت، بالنسبة للخارج على الأقل، جبهة موحدة — وصارت بذلك سلاحا قويا تجاه شعوب كانت وهي في ذروة تطورها متماسكة تماسكاً ضعيفا بفعل تقاليد قديمة، مما أدى الى انهيارها امام موجة الفتح الاسلامي.

وتمت الفتوحات الاسلامية بصورة عاصفة في شمالي افريقيا التي اعتنقت دين الفاتحين بسرعة. وبلغ سلطان الفاطميين في القرن العاشر من فلسطين حتى المغرب الأقصى. اما في اتجاه الجنوب، نحو قلب افريقيا، فقد كان تقدم الاسلام ابطأ بكثير. وظلت ممالك سونغاي وغانا وكانم القديمة — كما ظلت غيرها ايضا — في مأمن من التغيرات السياسية الجارية في شمالي افريقيا، تحميها صحار يصعب اختراقها. غير ان التجار والرحالين خلقوا شيئا من الاتصال منذ القرن التاسع بين العرب في الشمال والسكان السود في داخل القارة الافريقية. ولكن الغزوات الحربية لم تبدأ إلا بظهور المرابطين. وكان هؤلاء من البربر القاطنين في الصحراء الكبرى من قبائل اللمتونة، التي أخذت تزيد من عنف غزواتها الحربية باسم الجهاد في سبيل الله وتحت راية الدين الجديد. وأقام هؤلاء على امتداد الحدود الجنوبية للبقاع التي فتحوها لدين الاسلام حصونا وروابط[٨] عسكرية، كانوا يتدربون فيها تدريبا دينيا وعسكريا، وكانت تخدمهم كقواعد ينطلقون منها في غزواتهم للبلاد المجاورة.

وحتى أيام حياة بارت كان بعض العرب في هذه البقاع يتفاخرون بكونهم من نسل المرابطين، ويذكر بارت نفسه كيف أنه قابل عربيا زعم انه سليل بربر اللمتونة المذكورين[٩]: «... وبعد ذلك قابلتنا فئة اخرى من المسافرين، كان بينهم رجل لمتوني، وهو مغربي، مزيج من دم عربي وبربري من قبيلة اللمتونة القديمة، التي، بعد أن كانت في الماضي تشكل العنصر الرئيسي للمرابطين الأقوياء، استوطنت الآن في مجموعات صغيرة على شاطىء المحيط الأطلسي».

ويخبرنا بارت كذلك ان سلالة هذه القبيلة البربرية تعيش منفصلة عن بقية السكان، في أماكن سكنية خاصة. وبلغ بارت أثناء ركوبه في الصحراء أحد مرابع «المرابطين» ويقول حول ذلك[١٠]: «وكنا قد قطعنا ميلين في هذا الوادي عندما نزلنا في مكان فسيح مكشوف محاط بأشجار الأبيسكا الخضراء. وكان يقع في الجانب الآخر من تين طرح عوده، وهي قرية المرابطين أو الأينسلمين، وهي تمتد في صف طويل على امتداد الهضاب المنخفضة عند بداية السلسلة

على أوضاع البلاد».

وفي مكان آخر يصف بارت خلف المرابطين المزعومين اولئك على الشكل التالي[١١]: «وكانت ثياب اغلب الرجال بيضاء كذلك، ولكن اكثر صفة مميزة لهم كانت ان كثيرا منهم كانوا يرخون شعورهم في جدائل طويلة. وهذه علامة على انهم من الأينسلمين، أو المرابطين (أي الأولياء)، وهي صفة يدعونها لأنفسهم رغم عاداتهم البعيدة عن الصرامة والتزمت. ورغم انه لا مدرسة لهم، الا انهم فخورون بتنصيبهم معلماً في مسجدهم الذي لا حاجة به أن يكون فخماً عظيماً».

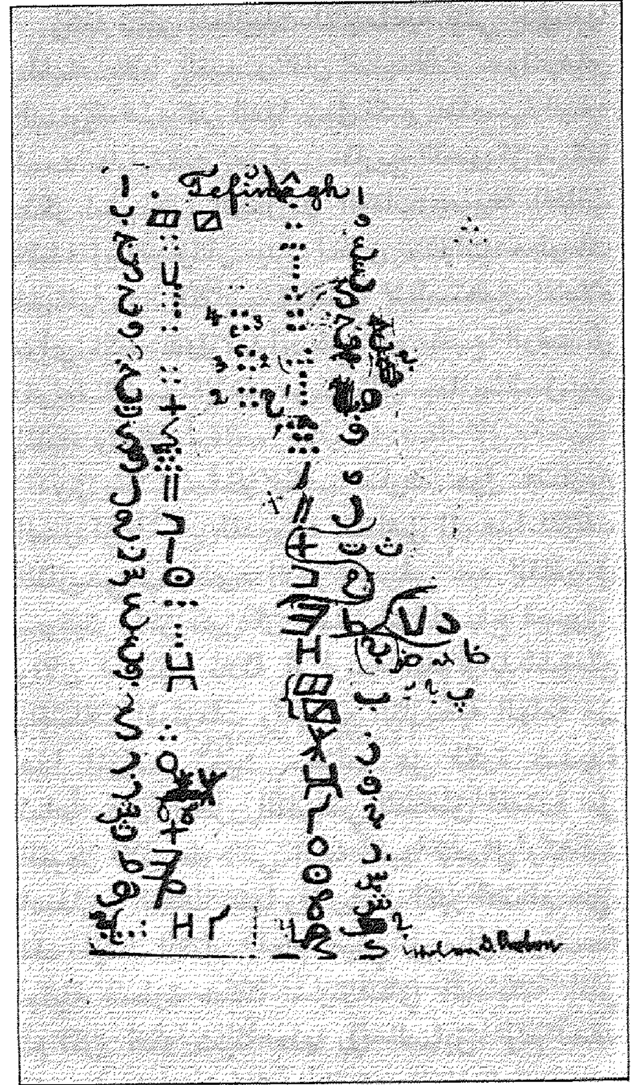
ولكن لنعد من النسل إلى المرابطين الأصليين في القرن العاشر الذين خضعت لغزواتهم وما تلاها من غزوات ممالك سونغاي وغانا وكانم القديمة. واعتنق رعايا هذه الممالك الوثنية العقيدةالجديدة ــ رسمياً على أي حال ــ سواء أتم ذلك بالاختيار أم بالقسر أم بالانتهازية. ونحصل على خبر حول ذلك في تاريخ البربر[١٢] لابن خلدون[١٣]. وبحث بارت باهتمام وعناية كبيرين التاريخ المتحرك للممالك القديمة في السودان واثبت جداول اجمالية ادرجت فيها الأحداث التايخية في السودان الغربي من أول أخبار المصادر التاريخية حتى العصر الحاضر بشكل واضح شامل.

المصادر

واستخدم بارت كمصادر لتاريخ السودان القديم أعمال المؤرخين والجغرافيين العرب بالقدر الذي كانت منشورة فيه في عصره. وهي مؤلفات ابن حوقل[١٤]، والبكري[١٥]، والادريسي[١٦]، وابن بطوطة[١٧]، وابن سعيد[١٨]، والوزان الزياتي[١٩].

والى جانب هذه الأعمال النموذجية فقد استخدم بارت كمصادر له مؤلفات «رحالي القرن الرابع عشر»[٢٠] إلا انه لا يذكر المؤلفين ولا عناوين الكتب مع الأسف.

إن ابحاث بارت في تاريخ السودان ذات قيمة لا تقدر لأنها تعتمد الى حد بعيد على مصادر مخطوطة لم تنشر بعد وكانت مجهولة في اوروبا تقريبا. وقد قام بارت بفحص النصوص ومقارنتها وبالتدقيق في صحة معلومات الجغرافيين العرب



□ حروف (Tefinagh) للطوارق في الصحراء الوسطى كما رسمها هاينرش بارت في يومياته وقايسها بالحروف العربية. وهذه اليوميات محفوظة الآن في باريس.

الجبلية. وتتألف القرية من حوالي المائة منزل، وهي في الغالب اكواخ بنيت من الاعشاب وسعف النخيل، بينما لم يبن الا القليل منها من الحجر. ورغم صغرها، الا ان القرية هامة بالنسبة للمواصلات بين شمالي افريقيا ووسطها، تلك المواصلات التي لا تتم الا بحماية اعتبار أولئك الرجال العلماء المتدينين وذلك بأمان يثير الدهشة اذا ما اعتبرنا الطبيعة الوحشية اللصوصية التي يمتاز بها سكان هذه البقاع... ورغم ان الاينسلمين يسمون أنفسهم «اتقياء ورعين»، إلا انهم لم يحرموا انفسهم من حاجات هذا العالم؛ بل على العكس من ذلك، فهم يحافظون على حياتهم ووجودهم بطموحهم، ومكائدهم وتصرفاتهم العامة بحيث يمارسون تأثيرا هاما

وبتقديم افتراضات وتعليلات وتصويبات حيثما اعتقد بوجود تناقض أو اختلاف في المعلومات. اما هذه المخطوطات فهي ما سبق وذكرناه: «تاريخ السودان»، و«تزيين الورقات بجمع بعض ما لي من الأبيات»، و«الانفاق الميسور في تاريخ بلاد تكرور»[٢١].

ولم تتح لبارت أثناء رحلته في افريقيا امكانية دراسة المخطوطات في جميع تفاصيلها. ولو أخذنا بنظر الاعتبار الظروف الصعبة التي احاطت به للتمكن من القاء النظر على هذه المخطوطات لدهشنا لاقتطافه منها وتقييمها بهذا التفصيل والتوسع. وهذا ما يفسر ايضا الأخطاء التي وقع فيها بارت بسبب اسراعه في الاطلاع على المخطوطات، وهي الأخطاء التي نتعرض لها فيما بعد.

«تاريخ السودان»

يكتب بارت فيما يكتب حول هذا المؤلف[٢٢]: «قبل سفري في مناطق النيجر لم تكن تعرف أية معلومات تتعلق بتاريخ هذه البقاع المتسعة الهامة، باستثناء بعض الأوضاع المتفرقة القليلة التي جمعها الجغرافي الانجليزي الرفيع العلم والحاد النقد ويليام ديسبورو كولي (William Desborough Cooley) بكثير من النبوغ مما أوجزه واستقاه استاذي ومعلمي الممتاز كارل ريتر (Karl Ritter) من البكري، وتاريخ ابن خلدون، ورواية ليو الغامضة المشوشة عن الإيشيا الكبير ومن تلميح موجز جداً عن احتلال مولاي احمد الذهبي لتمبوكتو وجارو مما أورده بعض الكتاب الاسبان[٢٣]. ولكنني كنت محظوظا جدا إذ سنحت لي فرصة الاطلاع على تاريخ مملكة سونرهاي الكامل ابتداء من اول اثار الوثائق التاريخية المسجلة حتى عام ١٦٤٠ من تاريخنا الميلادي. ولكن الظروف حالت لسوء الحظ دون حصولي على نسخة كاملة من هذه المخطوطة التي تشكل مجلداً من حجم رباعي ضخم، وكان بوسعي فقط خلال الأيام القليلة التي اتيحت لي للاطلاع على هذا المؤلف اثناء اقامتي في غاندو ان اقتطف نصوصاً قصيرة من فصول الكتاب التي بدت لي الأكثر اهمية من الناحيتين التاريخية والجغرافية.

وكما تذكر المعلومات الاجماعية التي يدلي بها علماء بلاد النيجر فان سجلات سونرهاي السنوية هذه قد ألفها رجل كبير المنصب اسمه احمد بابا تحت عنوان: «تاريخ السودان»، كما يذكر اسم هذا الرجل في الكتاب بصيغة الغائب فقط. ويبدو وكأن يداً اخرى سجلت معلومات اضافية في الكتاب، ولكنني لا أستطيع الادلاء برأي اكيد حول هذا، حيث لم يتسع الوقت لي لقراءة القسم الأخير من المؤلف بما يستحق من انتباه وعناية».

وفي مكان آخر يكتب بارت حول «تاريخ السودان»[٢٤]: «لقد وجه انتباهي الى هذا المؤلف التاريخي في بادىء الأمر صديقي عبد القادر في سوكوتو ولكن دون أن يتمكن من اشباع فضولي. والآن امضيت ثلاثة أو أربعة ايام وأنا استمتع باقتطاف المعلومات والمقاطع التاريخية الهامة من هذا المؤلف، بحيث حصلت على فكرة جديدة تماماً حول التطور التاريخي للمناطق الممتدة على النيجر الأوسط، التي اتجه اليها تجوالي وكشفت أسفاري النقاب عنها وأثارت في أكبر اهتمام حي. فقد أيقظ الكتاب امام عيني وبخطوط واضحة جليلة سطوة مملكة سونرهاي السابقة التي لم أكن أفقه شيئاً عنها في السابق، ولم آسف لشيء أسفي لعدم توفر الوقت الكافي لدي لنسخ المخطوط بكامله، بحيث اكتفيت باقتطاف المقاطع التي بدت لي الأهم من الناحية الجغرافية والتاريخية دون أن اتمكن من اعارة الاهتمام الكافي للترابط الخارجي بين هذه المقاطع»[٢٥].

اما مؤلف هذا الكتاب فليس احمد بابا[٢٦]، كما اعتقد بارت خطأ[٢٧]، وإنما تلميذه السعدي من تمبوكتو[٢٨]. ويحتوي الكتاب اخباراً هامة عن شعوب السودان، السونغاي، والميللي والطوارق[٢٩].

تزيين الورقات

إن مؤلف هذا العمل هو عبد الله[٣٠]، اخ غير شقيق للمصلح الكبير عثمان بن فوديو. وبعد وفاة هذا عام ١٨١٧ ورث عبد الله المناطق الغربية لمملكة فولبه. وتزيين الورقات هو موجز لتاريخ مناطق فولبه هذه. وعندما مكث بارت في ربيع عام ١٨٥٣ في سوكوتو وقعت بين يديه

مخطوطة لهذا المؤلف. ويكتب حول ذلك[٣١]: «وخلال هذه الفترة كلها كنت اقضي اوقات فراغي بقراءة نصوص مخطوط اتاح لي أول اطلاع على تاريخ الجزء الغربي من مناطق فلاني هذه. اما المؤلف فهو عبد الله، اخو عثمان، المصلح، الذي حصل على الجزء الغربي من المنطقة المفتوحة كنصيب له. ومع أن الكتاب[٣٢]، الذي عنوانه «تزيين الورقات»، يحتوي بالاضافة إلى مادة دينية كثيرة، على بعض المعلومات التاريخية الهامة، إلا أنه لم يكف مطلقاً لارواء ظمئي الشديد إلى المعرفة». وخلافا لهذا القول، فان المؤلف موجز تاريخي يعالج تاريخ مملكة الفول سوكوتو منذ عام ١٧٨٤، بينما لا تلعب المادة الدينية فيه، كما يقول (A. Brass)[٣٣]، إلا دوراً ثانوياً مع الأسف.

الانفاق الميسور

إن هذا المؤلف التاريخي الذي كتبه محمد بيللو، أحد أبناء عثمان بن فوديو، كان قد نشر بصورة مقتطفات على يد (A.V. Salame) مع ترجمة انجليزية في كتاب (Denham-Clapperton): «قصص الرحلات والاكتشافات في شمالي ووسط افريقيا»، (Narrative of travels and discoveries in Northern and Central-Africa)، لندن، ١٨٢٦، كملحق على الصفحة ١٦٦.

وقد اتيحت لبارت الفرصة في سوكوتو ايضا لدراسة المؤلف بكامله. وهو يكتب حوله[٣٤]: «بكثير من الجد سعيت الى الحصول على كتاب بيللو وعنوانه: «الانفاق الميسور في فتح بلاد التكرور»، وهو الكتاب الذي أوصاني به بكثير من التوكيد صديقي الفقيه عبد القادر في كتسنا؛ ولكنه لم يصل إلي إلا قبل مغادرتي المدينة ببضعة ايام. وعندها وجدت ان القسم الاكبر من محتوياته الذي يحمل اهمية تاريخية او جغرافية ينطبق على الوثائق التي احضرها الكابتن كلابرتون من رحلته الأولى والتي قام السيد سالام بترجمة جزء منها كملحق لقصة تلك الرحلة الهامة على الدوام».

ومن المخطوطات العربية فإن «تاريخ السودان» يعتبر أهمها جميعا كمصدر لتاريخ شعوب السودان كما أن بارت قد اهتم بمعالجتها بتفصيل خاص.

واعتمادا على مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب تمكن بارت بوجه عام من تحديد موعد ومكان انتشار الاسلام في السودان على وجه الدقة. فمنذ القرن التاسع ثبت أن الاسلام قد تغلغل في بعض مناطق السودان. ولم يتوقف تغلغل الاسلام في السودان حتى بعد ألف عام من هذا التاريخ. وتاريخ السودان زاخر بالحروب العقائدية والاضطرابات التي كانت تشتعل بشرارة التعصب الديني. وبوجه عام يمكن القول بأن الاسلام اصطحب معه تغيرات واضطرابات سياسية. ويصور بارت آخر ثورة دينية كبيرة اصبح شاهدا لتأثيراتها الثورية: وهي حركة عثمان بن فوديو الاصلاحية[٣٥].

لقد أدى مطلب الجهاد في الاسلام الى عيش سكان السودان الوثنيين في اضطراب دائم. وتؤيد انطباعات بارت، الذي عاش بين القسمين من السكان، هذا الرأي. وقد أيد الاسلام اقامة دول على أسس سياسية واجتماعية موحدة. إلا ان سكان السودان الوثنيين كانوا مقسمين الى قبائل وعشائر صغيرة، كانت متخاصمة فيما بينها في الغالب بحيث لم تكن قادرة على مقاومة المسلمين. وكان هذا هو الموقف عندما ثارت الفولبه في بداية القرن الماضي. ولكن قبل أن نتناول تاريخ السودان في القرن التاسع عشر، نود أن نذكر شيئاً حول التاريخ القديم كما سجل في تواريخ المؤلفين العرب.

ومن أقدم الممالك الاسلامية في السودان مملكة البورنو. ومن سجل بورنو التاريخي عرف بارت[٣٦]، ان اول ملك لهذه المملكة اعتنق الاسلام كان هوميه (أو أوميه)، ابن عبد الجليل. وقد حكم في الأعوام ما بين ٤٧٩/١٠٨٦ و٤٩٠/١٠٩٧. وباعتناقه الاسلام فقد اسس اسرة مالكة جديدة. وقد وجد بارت هذه الملاحظة عند الجغرافي العربي المقريزي[٣٧]: «وكان اول ملوكهم الذي اعتنق الاسلام محمد بن جبل[٣٨] بن عبد الله بن عثمان بن محمود بن ابي...، وهم يزعمون انهم من سلالة سيف بن ذي يزن». ولذا فقد افترض بارت — على خطأ طبعا، كما يقول بيكر[٣٩] — أنه حدث اختلاط





□ تعويذة من «كانو» (Kano) (نجيريا).

هنا بين أول سيف في الاسلام وملك بلالا الأول[٤٠]. والأغلب أن يكون محمد بن جبل هو هوميه (أو أوميه) بن عبد الجليل. وفوق ذلك فمن التناقض أن يكون اسم والد اول ملك اعتنق الاسلام اسما اسلاميا هو عبد الجليل.

«إن مملكة كانم، وهي في الأصل جزء من مملكة بورنو، كان لها كذلك منذ القدم سكان كثيرون كانوا مسلمين في الغالب»[٤١].

ومن أقدم الممالك القديمة ايضا مملكة سونغهاي حيث ان البكري يتحدث عن تقاليدها الاسلامية[٤٢]. وحسب تاريخ السودان للسعدي فان تاريخ الاسلام في مملكة سونغهاي يعود الى بداية القرن الرابع الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

وقد تسرب الاسلام الى السودان من اتجاهات مختلفة: فبالنسبة لغانا نقله المرابطون من قبيلة اللمتونة وغيرها من قبائل البربر[٤٣] من الشمال.

وفي الممالك القديمة حول بحيرة تشاد يحتمل كثيرا ان يكون الاسلام قد جاء من الشرق من نفس الطريق التي جاء منها البدو القادمون من جنوبي شبه الجزيرة العربية، كما جاء فيما بعد عبر مصر أيضاً من خلال طرق التجارة. وكانت الطريق الى مكة تمر بمصر. وكما يذكر ابن خلدون[٤٤] فان مفتي غانا اتخذ عام ٧٩٦/١٣٩٣ طريق الحج التي مرت بمصر قبل بلوغ مكة. وكانت هذه الطريق نفسها طريق الحج المألوفة على زمن بارت ايضاً كما يؤكد لنا في كتابه. وهكذا فبفضل فريضة الحج الدينية قامت بين السودان ومصر صلة وتبادل دائمان لم يساعد على تطوير التجارة بين البلدين فحسب، بل وأثر تأثيراً كبيراً على المستوى الفكري والثقافي لشعوب السودان الاسلامية. وندرك هذه الصلة القديمة بمصر، كما يذكر بارت[٤٥]، من وضع مدينة كوكو (Gögö)، عاصمة سونغهاي،

التي «كانت في العهود الماضية تتألف من حيين منفصلين، أحدهما لعبدة الأوثان (على الشاطىء الغربي أو شاطىء كورما) والحي الملكي أو الاسلامي (على الشاطىء الشرقي، باتجاه مصر، المكان الذي جاء منه الاسلام وما صاحبه من مدنية)»[٤٦].

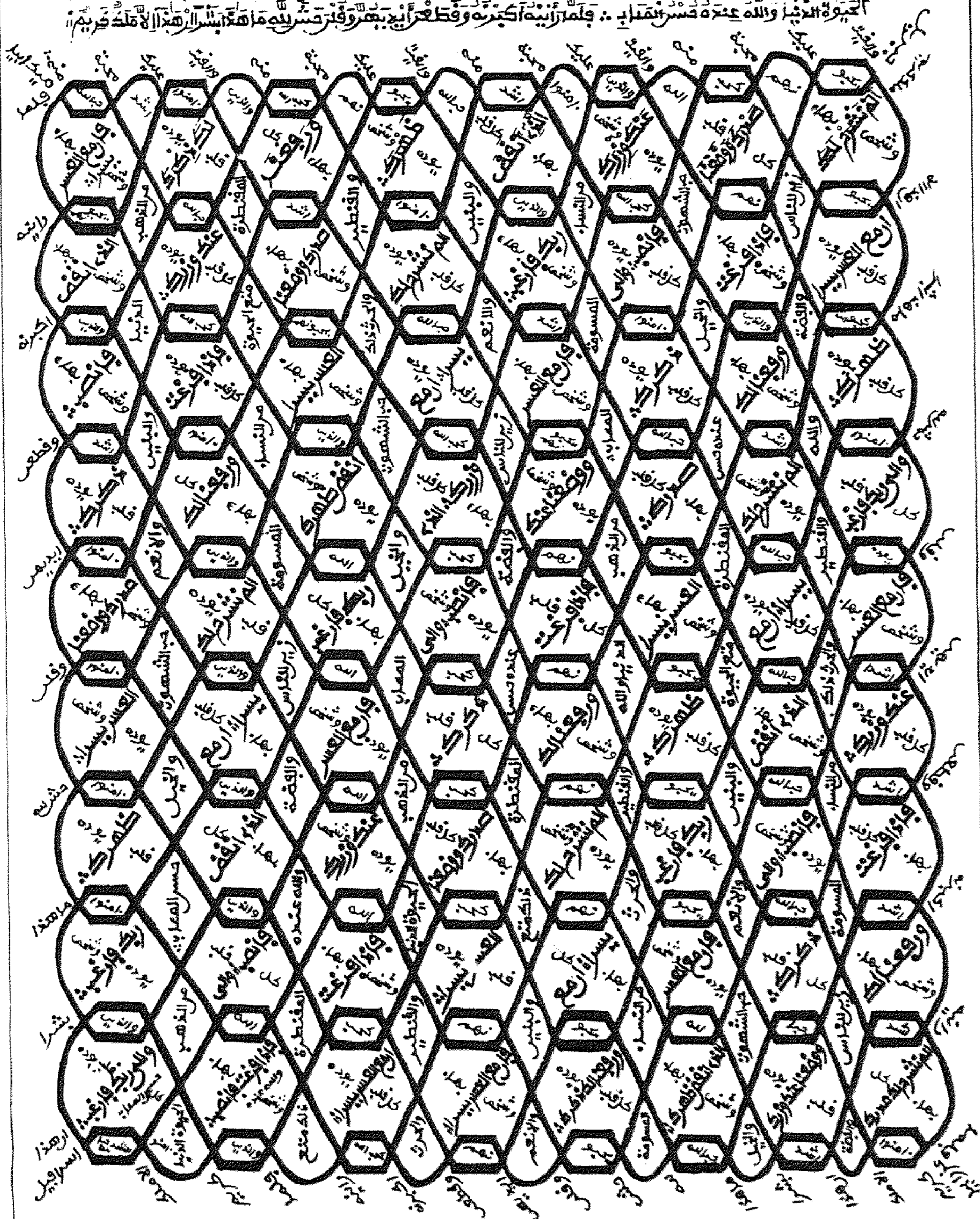
ولم ينتشر الاسلام في السودان بالنار والسيف. بل كثيرا ما كان من الأنفع لأهل البلاد أن يعتنقوا الاسلام؛ إذ أن من دخل في الدين الاسلامي لا يمكن أن يتخذ أو يصبح عبداً. وقد جلب الاسلام معه مستوى معيشيا رفيعا بحيث كان من هذه الناحية أيضا جديرا باعتناقه. وهناك امثلة على أن سيرة بعض الرجال الشبيهين بالقديسين اكسبت الدين الجديد كثيرا من الأنصار. وكانت باغرمي قبل القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي منطقة وثنية تماماً. وكما يقول بارت[٤٧] فان انتشار الاسلام هنا تم بوجه خاص بفضل «شيخ من شيوخ الفيلاتا وقديس من بيد ديري (قرية على مسافة ٩ أميال شرقي ماسينيا) كان له، رغم انفراده وعزلته، تأثير كبير جداً في ادخال الاسلام الى هذه البقاع».

ويعود الفضل في نشر الاسلام في مناطق واسعة الى محمد بن عبد الكريم بن مرحيلي[٤٨]. ويسميه بارت رسول بلاد الزنج الوسطى[٤٩]. وكان صديقا للسيوطي، من اعظم عباقرة الكتاب العرب. واكثرهم تنوعا في حقول الثقافة[٥٠]. ويكتب بارت[٥١] انه اطلع في تمبوكتو على رسالة طويلة من ابن مرحيلي يعالج فيها مسائل دينية. ومن المؤسف ان بارت لا يفيدنا المزيد عن محتويات هذه الرسالة التي يقول إن لها اهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الاسلام في السودان. وكان ابن مرحيلي هو الذي أثر على ابرهيم ماكي، ملك كاتسينا، لاعتناق الاسلام[٥٢]. وبعد ذلك بقليل دخل ملك واداي الاسلام ايضا[٥٣].

وتنتهي مصادر بارت الأدبية مع «تايخ السودان» عام ١٦٥٥. ولم يكن يعرف المصادر التالية التي يذكرها (A. Brass)[٥٤]. وكان على بارت ان يعتمد بخصوص تاريخ السودان الحديث على الروايات الشفهية والانطباعات الشخصية.

وتشهد في نهاية القرن الثامن عشر حركات وثورات دينية خطيرة النتائج. فبينما لاقى الاسلام في دولة لوكونه استقبالا فاترا وسطحياً[٥٥]، أشعل الدين الجديد بين الفولبه في كوبر[٥٦] واداماوا[٥٧] تعصباً شديداً ملتهباً. وبعد مرور فترة قصيرة على بدء الحركة الوهابية الرشيدة في جنوبي الجزيرة العربية، هبت الفولبة، وعلهم متأثرون بالأحداث الجارية في جنوبي الجزيرة العربية[٥٨]. ولم يكن قد مضى على دخولهم الاسلام زمن طويل حتى بدأوا بنشره باذلين في سبيل ذلك اقصى الجهود، حتى شنوا فيما بعد، عندما قويت شكيمتهم، حروباً دينية دموية، في سبيل ذلك. وكان الرجل الذي تزعم الفولبه، والذي فتح عهد مملكة للفولبة، والذي اعتبره انصاره نبياً وخصومه مستبداً مخيفاً، هو المصلح عثمان بن فوديو[٥٩]. وقد أيد أخوه عبد الله[٦٠] سياسته بخضوع وتفان زائدين، واستمر ابنه محمد بيللو على تلك السياسة وثبت دعائمها بتطرف أشد واعنف. وبعد أن نقل محمد لبيو الاسلام المجدد المصلح إلى قبائل الفولبه التي تقطن على ضفاف النيجر الأعلى[٦١]، اصبح الفولبه بوجه عام طلائع المجاهدين في سبيل الاسلام[٦٢].

وقد شهد بارت هذه الأحداث ونتائجها بصورة مباشرة، ولذا فان كتابه (رحلات في افريقيا) (Reisen in Afrika) يعتبر مصدراً لا يقدر بثمن بالنسبة لتاريخ الاسلام الحديث في السودان أيضاً. وكما تثبت روايات البكري والوزان الزياتي (ليو أفريكانوس)[٦٣] فإن للاسلام في السودان جذوراً في بعض اجزائه ولكنها ليست عميقة في كل انحائه. وكما ورد في كتاب بارت أيضاً[٦٤]، فقد كان الاسلام في عهده ايضاً تقليداً ظاهرياً في بعض الوجوه، ظلت العادات والتصورات الوثنية كامنة خلفه. وهناك حاجة الى مثل كتاب فيلهاوزن (wellhausen) «بقايا الوثنية العربية» (Reste Arabischen Heidentums) يعالج الموقف في السودان. ويقدم بارت هنا عدداً كبيراً من الملاحظات تقع مهمة تنسيقها وايضاحها وتفسيرها على عاتق المستشرقين. ونذكر في هذا المجال مثلا يشير الى ضرورة اعزاء بعض ملاحظات بارت الى اسبابها



تعويذة من «كانو» (Kano) (نيجيريا).

الدينية الثيولوجية الحقيقية: يوضح بارت بمثل[٦٥] «غرابة مبالغة سكان الصحراء المتمدنين هؤلاء في اعتبار الحشمة الاسلامية. فعند التبول يبتعدون على مسافة كبيرة من الطريق ويجلسون القرفصاء الى الجانب ويحفرون جحراً صغيراً في الأرض». والحقيقة ان ليس في الأمر حشمة ولا مبالغة وإنما التقيد باتباع مطلب اسلامي قديم يقول بأن يجلس المرء «لقضاء حاجاته فلا يقضيها قائماً»[٦٦].

وعند وصف فتاتين يقول بارت: «لقد ظهرتا بزي محتشم وذلك بارتداء مريلة من القماش القطني المخطط حول اردافهما. ولا شك ان ذلك جرى بتأثير الاسلام»[٧٧]. وتعود هذه العادة فعلا الى تعليم اسلامي يوجب «على المكلف ستر عورته»[٦٨].

■

الهوامش

(١) Reisen in Afrika ‏(R.i.A.)، المجلد ٣، ص ٢٧٠.
(٢) R.i.A.، ١، ٤٤١.
(٣) R.i.A.، ٣، ٢٥٨.
(٤) R.i.A.، ٤، ١٨٨.
(٥) R.i.A.، ٤، ٢٠٢.
(٦) R.i.A.، ٤، ١٨٨.
(٧) لقد الغيت البعثة الاستكشافية لأسباب تكتيكية وسياسية؛ غير أن الكتاب يعتمد على أخبار الرحالين إلى افريقيا الوسطى الموجودين في مصر.
(٨) جمع (رباط) وهذا هو اصل تسميتهم.
(٩) R.i.A.، ٤، ٢٣٦.
(١٠) R.i.A.، ١، ٣٥٢ ــ ٣٥٣.
(١١) R.i.A.؛ ١، ٥٩٩.
(١٢) النص مقتطف من الترجمة الفرنسية:
Histoire des Berbères, Paris 1927, II, 110.
(١٣) المتوفي في ٨٠٨/١٤٠٦ ــ تاريخ الأدب العربي GAL، ٢، ٢٤٢.
(١٤) المتوفي حوالي ٩٩٧.
(١٥) المتوفي ٤٨٧/١٠٩٤، GAL، SI، ٨٧٥.
(١٦) ٥٤٨/١١٥٤ ــ GAL، I، ٤٧٨.
(١٧) المتوفي ٧٧٩/١٣٧٩ ــ GAL، II، ٢٥٦.
(١٨) كما ورد في اعمال ابي الفداء المتوفي ٧٣٢/١٣٣١ ــ GAL، II٤٤؛ وعند ابن خلدون؛ وعند المقريزي المتوفي ٨٤٥/١٤٤٢ ــ GAL، II، ٣٨.
(١٩) المعروف بـ «ليو افريكانوس»؛ المتوفي حوالي ١٥٥٠ ــ GAL، SII، ٧١٠؛ ويرجع بارت كثيرا الى كتابه: Descrittione del l'Africa.
(٢٠) R.i.A.، I، ١٥.
(٢١) قام بنشره C.E.J. Whitting في لندن عام ١٩٥١.
(٢٢) R.i.A.، IV، ٤١٤ وما تلاها.
(٢٣) Cooley, Negroland of the Arabs, 1841.
(٢٤) R.i.A.، IV، ٢٠٢.
(٢٥) المكان نفسه.
(٢٦) المتوفي بعد ١٠٦٦/١٦٥٦ ــ GAL، II، ٤٦٧ وما بعدها.
(٢٧) راجع، بيكر: Becker, Zur Geschichte des östlichen Sudan, Der Islam I, 166.
(٢٨) ذيل الديباج.
(٢٩) بعد أن نشر المخطوط على شكل مقتطفات، كما سبق وذكرنا، قام (O. Houdas) بالتعاون مع (E. Benoist) بنشر العمل بكامله عام ١٨٩٨ مع ترجمته الفرنسية:
Paris, Publ. de l'Ecole des langues or viv. XII, Documents arab. rel. à l'histoire du Soudan I.
راجع كذلك GAL، II، ٤٦٨.
(٣٠) المتوفي عام ١٨٢٩ ــ GAL، SII، ٨٩٤.
(٣١) R.i.A.، IV، ١٨٨.
(٣٢) قارن (A. Brass) المخطوطين الموجودين في مكتبة خاصة ثم نشر وترجم اجزاء مقتطفة منهما في مجلة (Der Islam) المجلد ١٠، الصفحات ١ ــ ٧٣ (١٩٢٠).
(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٠.
(٣٤) R.i.A.، IV، ١٨٨.
(٣٥) R.i.A.، IV، ١٥٢ وما بعدها.
(٣٦) نفس المصدر، II، ٣٠٩.
(٣٧) Hamaker, specim. catalog. p. 206؛ راجع Der Islam، ١، ١٧١.
(٣٨) قل جيل.. كذلك بارت II، ٢٨٩.
(٣٩) Der Islam، I، ١٧١.
(٤٠) راجع بارت II، ٣٠٩.
(٤١) ١٥٩، Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères II, 109.
(٤٢) بارت، ١٧، ٤١٧.
(٤٣) Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères, II, 64.
(٤٤) نفس المرجع، ص ١١٠.
(٤٥) R.i.A.، V، ٢١٨.
(٤٦) نفس المصدر، ص ٤٣٤.

(٤٧) R.i.A.، III، ٢٨٧.
(٤٨) المتوفي ٩٤٠/١٥٣٣.
(٤٩) R.i.A.، IV، ٦٣٦.
(٥٠) ٨٤٩/١٤٤٥ ـ ٩١١/١٥٠٥؛ GAL، II، ١٤٢ وما بعدها.
(٥١) R.i.A.، II، ٨٣ (ملاحظة ٢).
(٥٢) نفس المصدر، II، ٨٣.
(٥٣) نفس المصدر، III، ٤٨٥ وما بعدها.
(٥٤) Der Islam X.
(٥٥) R.i.A.، III، ٢٧٠.
(٥٦) نفس المرجع، IV، ٢٥٨.
(٥٧) نفس المرجع، V، ٦٢٤.
(٥٨) Hitti, History of the Arabs, p. 741.
(٥٩) ١٧٩٤ ـ ١٨١٧؛ R.i.A.، IV، ١٥٢ وما تلاها؛ GAL، SII، ٨٩٤.
(٦٠) المتوفي عام ١٨٢٩.
(٦١) R.i.A.، IV، ٢٥٨.
(٦٢) نفس المرجع، II، ٢٠٨ ـ ٢٠٩.
(٦٣) نفس الرجع، IV، ٤٣٤.
(٦٤) نفى المرجع، II، ٥١٥؛ III، ٢٣٥؛ III، ٣٦٥.
(٦٥) R.i.A.، I، ٢٩١، ملاحظة.
(٦٦) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، القاهرة، ١٣٥٥/١٩٣٦، قسم العبادات، ص ٣٥.
(٦٧) R.i.A.، II، ٣٧٥/٣٧٦.
(٦٨) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، قسم العبادات، ص ١٤١.



إلى المشتركين الكرام

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.
وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

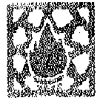
الإدارة

الشيخ محمد كامل البابا

١٢٩٧ - ١٣٩٠ هـ
١٨٨١ - ١٩٧١ م


الشيخ
محمد كامل البابا.

فضل المقدم


ما بين مولده ووفاته، رحمه الله، أخذت تبرز أسماء الرعيل الثاني من رجال النهضة الحديثة، حملة رسالة اساتذتهم الأقطاب[1]. وقد أثروا جميعهم الحياة العلمية والأدبية في طرابلس، والعالم الإسلامي. فكان منهم المفكر والعالم والأديب والشاعر والصحافي والمؤرخ... وجلهم كانوا (موسوعيين)، وكلهم كانوا متعلمين، في المدارس والمساجد. ولقد توافر على كتابة التاريخ، مؤلفين ومترجمين، عدد من النهضويين، لمعت فيه أسماء من آل نوفل وصدقة وبني وشريف يكن والبابا[2]. إلا ان اثنين من هؤلاء خصا تاريخ طرابلس بكتاب، هما حكمت شريف يكن والشيخ محمد كامل البابا، وكتاباهما ما زالا مخطوطين! وانقطع شيخنا موضوع هذه الدراسة، إلى تاريخ بلده، فعرف بمؤرخه الكبير[3].

أبوه الحاج محمود البابا، مثر بالوراثة، مجازف بالطبع، جمع ثروة من الاتجار ما بين طرابلس ومرسدين، من بلاد الأتراك، وبدد ما ورث وما جمع!

وأمه بهيجة غندور، من أسرة تقية ثرية، عرفت بالصدق والصبر وعفة النفس، صفات أورثتها الفتى كاملا، وستلازمه كل حياته، كما سنرى.

كانت هذه الأم الصبور تحسن القراءة والكتابة، على قلة من كن يحسنهما آنذاك، فكانت مربية أولادها، ومعلمتهم الأولى. فظهرت عليه في سن مبكرة مخايل الذكاء، تسعفها حافظة عجيبة! ثم دخل «الكتاب» على عادة أقرانه في ذلك الزمان. وسرعان ما اجتذبته الدروس التي تلقى في المساجد و (المدارس). فحضر على الشيخ حسين الجسر (١٨٤٥ ـ ١٩٠٩م)، والشيخ

عبد الفتاح الزعبي (؟ ــ ١٩٢٣)، والشيخ محمد الحسيني (١٨٦٠ ــ ١٩٤٠) والشيخ عبد الكريم عويضة (١٨٦٥ ــ ١٩٥٥)... وانقطع إلى هذا الأخير. وعرف الأستاذ النباهة في تلميذه فقربه إليه، فاتخذ سبيله إلى علوم الدين، وتبحر في اللغة والفقه والسيرة... ولما بلغ الحادية والعشرين، تزيا بزي المشايخ، وحج واعتمر. وفي زيارته المسجد النبوي الشريف عزم على (المجاورة)، وشرع في كتابة تاريخ لمدينة الرسول (صلعم)، ولم يتم. فقد حدث في أسرته في طرابلس ما أوجب عودته على وجه السرعة! عاد ليتابع (ما خلق له). ومما حدثتني به والدتي، رحمها الله، وهي كبرى شقيقاته، عن هذه الحقبة من التحصيل، أنه كثيرا ما كان يلتف حوله رفاقه الطلاب، إذا ما فرغ الشيخ الأستاذ من درسه ليجلو لهم بعض ما أشكل، أو ليزيدهم إيضاحاً فيما أجمل. فقد كان يحفظ أكثر القرآن الكريم بتفاسيره، والسنة الشريفة بأسانيدها، ويستظهر كل ما يلقى عليه من أخبار وأشعار، بأسماء رواتها وناظميها ونقلتها، لا ينسى تاريخا، ولا يغفل اسما، وهكذا ظل طول حياته، يجتذب الكافة للاستفادة، والخاصة للاستزادة.

ولكثرة تردده على المساجد والمدارس الأثرية، لفتت نظره تلك الكتابات التي تزدان بها، وكانت أحاجي لا تكاد تقرأ. فعمل بصبر وإناة على فك رموزها، وحل عقدها، حتى أصبح ذا ملكة فريدة في قراءة كل ما استعصى، مما نقش على الحجر، أو سطر في الطروس، وهي أنماط من الخط مختلفات. ومن كثرة ما قرأ من (حجج ووقفيات) تسنى له أن يطلع على جانب مهم من تاريخ آثار طرابلس وأوقافها وواقفيها، فكانت الخميرة الأولى لكتابه الكبير (تاريخ طرابلس وآثارها القديمة).

تجاوزت شهرته مدينة طرابلس، فدعاه الشيخ احمد عباس الأزهري[٤] (١٨٥٣ ــ ١٩٢٧) قبيل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) إلى التدريس في (المدرسة العثمانية) التي عرفت بالكلية الإسلامية أو كلية الشيخ عباس[٥] وكان لها دور بارز في النهضة الحديثة. ولم يعد إلى بلده إلا وقد أعلنت الحرب، ليمضي سنيها الأربع العجاف متنقلاً ما بين المدينة والريف... وليعين بعد الاحتلال الفرنسي معلما في المدرسة السلطانية، الجديدة للصبيان حاليا[٦] وكان يدرس العلوم الدينية والعربية، والتاريخ والجغرافية. ويشهد له طلابه الكثر بأنه كان يتمتع بروح دينية ووطنية عالية. وكان كرهه للاستعمار الفرنسي لا يدانيه إلا كرهه (للاستعمار) التركي. وعندما كنت أسائله في هذا، كان يجيب: لو انك رأيت ما رأيت لاقررت أنني لم أبلغ منهم ما كان علي أن أبلغه! فلقد شاهد في الفترة التي عاشها أواخر أيامهم، من عبث الموظفين، وعسف العمال، وطوارنية القادة، ما حمله على مثل هذا الرأي، فسحب حكمه على جميع العهود، وكل الرجال! ولكنها كانت دولة تحتضر!

ومما نذكره له، نحن الطلاب، ولزميليه الشيخ جميل عدرة والشيخ كامل الميقاتي، رحمهم الله، أنهم ما شاركوا قط باحتفالات الرابع عشر من تموز التي كانت تقام في ساحة التل، أيام الانتداب، الأمر الذي أحفظ عليه (المستشار الفرنسي) والمتفرنسين، فأبعد عن الوظيفة، مع من أبعد. فهاج الرأي العام الطرابلسي لهذا الاجراء التعسفي، فأعيد إلى الوظيفة، ولكن إلى ببنين (عكار). ثم اضطروا إلى إعادته إلى مدرسة النموذج للبنين في طرابلس، وعندما وليت إدارة مدرسة التربية (فخر الدين) طلب هو نقله إلى مدرسة يديرها تلميذه وابن أخته... ومنها، قبيل تقاعده، نقل مديرا إلى مدرسة القبة.

مدة اشتغاله بالتعليم الرسمي، وبعده، لم يقبل أي وظيفة دينية، وقد عرضت عليه مرات، وبإلحاح، الامامة والخطابة والتدريس، فكان يقوم بها احتساباً عند الله، مكتفياً بالراتب الرسمي الذي يؤمن له عيش الكفاف، وبما كانت تدره عليه مقالات له في الصحف والمجلات، وأحاديث في الإذاعة، وهو قليل، إلى ما بقي من إرث له عند أمه، وهو اقل من القليل. ولكن الكثير الذي ورثه عنها هو ما أشرنا إليه قبلا: فإذا حدث أو كتب، فما لسامع أو قارىء أن يرتاب! شأنه في هذا شأن (المحدثين) وقدامى المؤرخين، وليس هذا بالشيء القليل! يقول الدكتور كمال الصليبي: وأنا معجب جدا بالكتابة العربية التقليدية للتاريخ، وعدا الدقة والموضوعية فيها،



□ الشيخ عبد الفتاح بدر الدين الزعبي

هناك أسلوب البحث الممتاز... يرى البعض أن هذه الكتابات ظهرت في عصر سموه (الانحطاط)، لكن هذه المؤلفات تخجل كتابات أوربة في القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين[٧].

ولم يتعلم لغة أجنبية، فلم يتسن له الاطلاع إلا على ما كتب بلغة الضاد، أو ترجم إليها. والحق أنه كان شديد الحرص على استقصاء كل ما كتب عن طرابلس، فلهذا بند خاص في (ميزانيته)!

فبذلك، وبالقدرة التي أعطيها على قراءة الصعب مما نقش أو كتب، أصبح (مؤرخ طرابلس) الذي يرجع إليه كل من يروم الكتابة عنها، من وطنيين وأجانب. وهذا رئيس المجمع العلمي العربي في سورية، محمد كرد علي، يستكتبه فصلاً عن آثار طرابلس، ينشره بنصه في (خطط الشام)[٨].

وكذلك صاحب كتاب (طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي الدكتور السيد عبد العزيز سالم، فقد أفاد كثيراً مما سمع منه، أو قرأ له، خصوصا ذلك المقال الضافي الذي نشرته مجلة (الارشاد الاجتماعي)[٩]، ويقول: ويضيف الشيخ كامل البابا، مؤرخ طرابلس الكبير، وأعظم خبرائها في الحجج والوقفيات القديمة، إن هذا البرج بني فيما بين عامي ١٤٤١ ــ ١٤٤٢... ونحن في ذلك نؤيد رأي الشيخ كامل البابا[١٠].

واقتبس الدكتور عمر تدمري بعضاً مما نقله الدكتور سالم عن الشيخ البابا[١١].

اتسعت له صلات، وتوطدت له صداقات بكبار المهتمين بالتاريخ، ليس فقط في لبنان، بل وفي العالم العربي، وبعض مؤسسات التاريخ في أوروبة وأميركة، والمؤرخين. وما أزال أذكر أن صاحب كتاب (Tripoli of Libanon)[١٢] لازمه قرابة عام كامل.

أما علاقته بأصحاب كتاب (تاريخ العرب المطول) الدكاترة فيليب حتي وجبرائيل جبور وإدوارد جورجي، فقد كانت عن طريق (النقد)، نقد المطول عندما نقل إلى العربية. فكان مؤلفه الأول:

١ ــ (نقد) كتاب تاريخ العرب (مطول) صدر عن (دار الفنون) في طرابلس ١٩٥٤ في ثمان وستين صفحة من القطع المتوسط، منها خمسون للرد على أصحاب (المطول) وما بقي لتاريخ اليهود في بلاد الحجاز!

عندما أصدر الأساتذة الثلاثة مؤلفهم القيم، وهو يتناول طبعا تاريخ صاحب الرسالة الإسلامية صلوات الله عليه، ومعجزته الخالدة، القرآن الكريم، ثارت في أعماق مؤرخنا الشيخ ثائرة الغضب لله، فراح يستقصي ما في الكتاب من أخطاء وهفوات، قد لا يخلو منها كتاب، خصوصاً إذا كان في التاريخ! فوجدها في خمسة عشر موضعاً، عددها، وأخذ يرد عليها واحدا واحدا[١٣] وفي رأينا أنه وفق في تصحيح ما خالف نصاً ثابتاً، أما في مواضيع الاجتهاد والاستنتاج، فلم يحسم فيها الرأي بعد، وإليكم بعض الأمثلة.

(أ) (قال الأساتذة المؤرخون ص ٥٤ «وأن صح أن ملكة سبأ، وفي القرآن بلقيس، هي شخصية تاريخية وأنها قدمت إلى ملك إسرائيل الحكيم...» أقول: لم يذكر القرآن العظيم إسم بلقيس قط! وقال الأساتذة المؤرخون ص ٢٣١

«وكان شعار النبي العقاب» ويفهم القارىء بهذا اللفظ الموجز أن للرسول، عليه الصلاة والسلام شعارا خاصا له صورة طير العقاب... وليس هذا من الحقيقة بشيء، وهو إنما كان يمقت الصور والتماثيل... إنما العقاب إسم لاحدى رايات الرسول... اتخذها في إحدى غزواته، كانت سوداء من صوف... فالشعار غير الراية، وإنما غلط الأساتذة بوضعهم الشعار موضع الراية... ولم يبلغنا أن الرسول العظيم اتخذ شعارا قط! ولم يكن يقتني شيئا داخل بيته أو خارجه إلا وله اسم خاص به، سواء كان ذلك المتاع فراشاً أو غطاء أو جبة أو أي شيء آخر، فمن ذلك أنه كان إسم بعض راياته العقاب، ودروعه ذات الفضول، وذات الوشاح... وقوسه الكتوم، وخيوله السكب والسبحة والمرتجز...[١٤].

(ب) قال الأساتذة المؤرخون ص ١٧١ «ولا يذكر القرآن من أشخاص الانجيل ذكرا واضحا إلا زكريا ويوحنا المعمدان (يحيى) ويسوع (عيسى) ومريم. والاسمان الأخيران يغلب ورودهما معاً، ومريم أم عيسى هي بنت عمران وأخت هرون في وقت واحد»! لقد حملوا الأخيرة على النسب، وليس الأمر كذلك. كان هرون بن عمران، عليه السلام، يضرب به المثل في قومه بكثرة التقى والنشاط في العبادة، وكانت السيدة مريم البتول ابنة عمران كذلك، كثيرة العبادة، شديدة النسك والطهارة، بريئة عفيفة. فلما أتت قومها تحمل ولدها المسيح، عليه السلام، عجبوا منها لأنها غير ذات زوج، ولم يكن أحد ينتظر منها أن تأتي بفاحشة، فقالوا لها (يا أخت هرون) أي يا شبيهة هرون في العبادة والتقى.. ولو لم يكن المراد بالآية الكريمة أخوة التقوى والمماثلة في العبادة لم يقولوا لها: يا أخت هرون، لأنه لم تجر عادة الناس إذا ارادوا مناداة امراة أن يقولوا لها يا اخت فلان... ولو مر بهذه الجملة أحد من نوابغ علماء العربية المسيحيين، كالشيخ إبراهيم اليازجي، والشيخ ناصيف اليازجي، أو بطرس البستاني أو سليمان البستاني، لما عنّ لهم مثل هذا الاعتراض. إن الأساتذة يعوزهم التوسع في الدراسات العربية. إن الأخوة التي لم يفهم منها الأساتذة غير أخوة النسب، يستعملها العربي الصميم بمعان كثيرة... أخوة الشبه والمماثلة، وأخوة الإنسانية، وأخوة الصداقة، وأخوة الدين)[١٥].

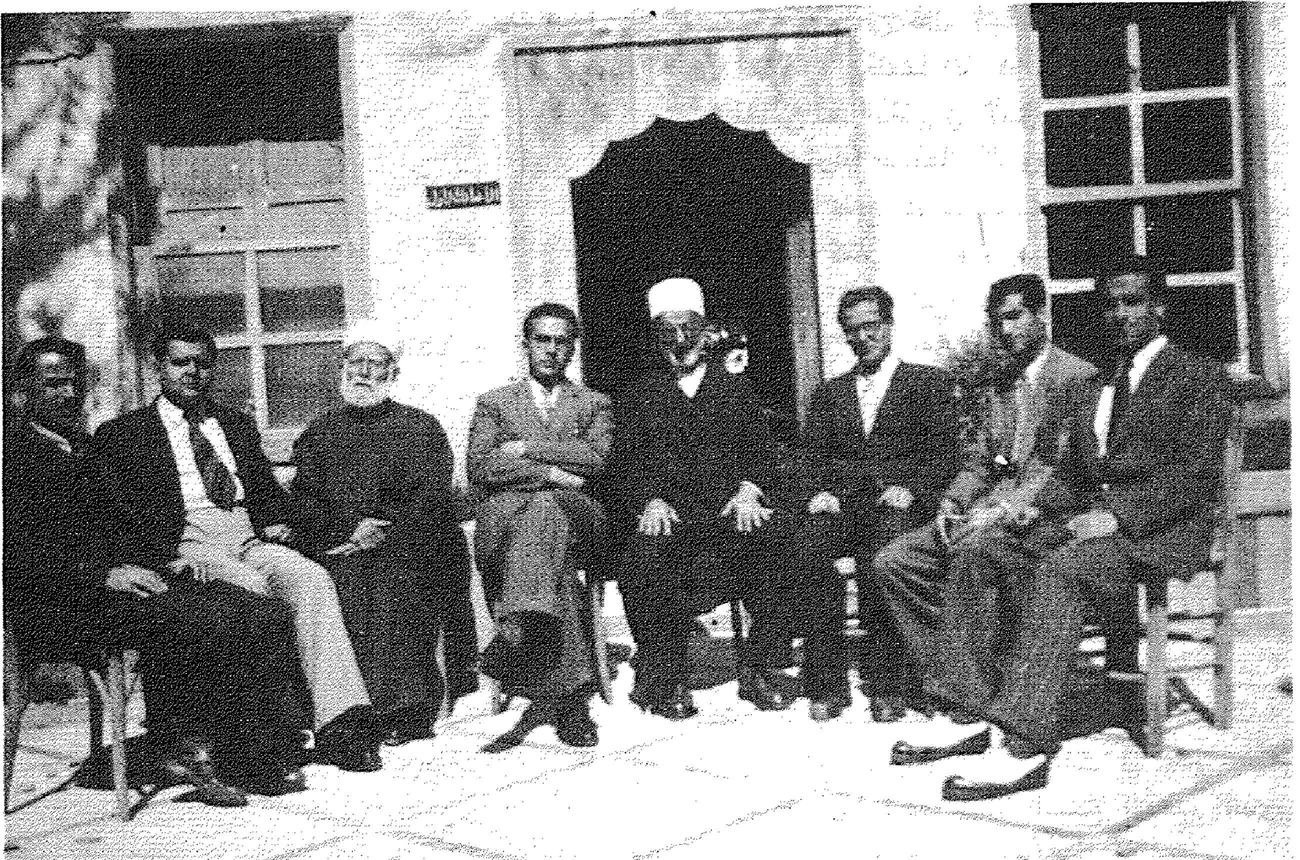
(ج) (قال الأساتذة ص ١٧٧ «وفي علم الآلهيات القرآني ليس محمد إلا بشرا لم يتم الله على يديه من (العجائب) المعجزات، غير إعجاز القرآن، إلا ان التقاليد والأساطير التي اصطنعتها العامة من بعد، نسجت حول هامة الرسول هالة من النور الإلهي، ودين محمد دين عملي صريح» لم ير أحد من العلماء المعتمدة اقوالهم، منذ عصر النبوة حتى الآن، إنكار المعجزات المحمدية. ولنا أن نسألهم كيف تمت معجزة القرآن الخالدة، وامتنع وقوع غيرها من المعجزات! أم كيف حصل هذا الشذوذ في الطبيعة؟ وما دام أنه حصل هذه المرة، فلا مانع من وقوعه مرة اخرى، فإن ما جاز على أحد المثلين يجوز على الآخر)[١٦].

والحق أن معجزات الرسول (صلعم) هي مسألة اجتهادية، وإن تكن اكثرية المفسرين تؤيدها. ففي تفسير الآية الكريمة (اقتربت الساعة وانشق القمر) يقول الفخر الرازي[١٧]: وقال بعض المفسرين سينشق القمر. ومثل هذا يقول أبو السعود في تفسيره[١٨] والزمخشري في كشافه[١٩]. وأكثر المفسرين المحدثين على ذلك. ولصاحب التفسير الكبير (الجواهر)[٢٠] رأي طريف وهو أن الانشقاق المقصود ربما حصل في زمن سحيق، عندما انشق القمر عن الأرض، كما يقول علماء الفلك.

وفي مرآة الإسلام للدكتور طه حسين[٢١] وفي العقيدة الإسلامية لنديم الملاح[٢٢] أن معجزة خاتم الأنبياء (صلعم) هي القرآن.

وفي الحديث الشريف: ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة (متفق عليه).

وللشيخ رشيد رضا بحث ممتع في الآيات (العجائب) فليرجع إليه. ولكن شيخنا البابا الذي كان يعد مؤلفه الثاني (كرامات الشيخ علي العمري) ما كان له أن يتساهل مع من ينكر معجزات الأنبياء!



□ من اليمين إلى اليسار: الأستاذ رجائي بارودي ــ الأستاذ ياسر كبارة ــ الأستاذ عبد الرحمن مرحبى ــ الشيخ كامل البابا ــ فضل المقدم ــ الشيخ علي الزعبي ــ الأستاذ محمد الصوفي ــ الأستاذ ناصر شهال.

٢ ــ (كرامات الشيخ علي العمري) صدر عن (دار الفنون) بطرابلس عام ١٩٥٨ في مائتين وسبع وتسعين صفحة من القطع المتوسط. صدره بمقدمة ضافية (ستون صفحة) أورد فيها البراهين والأدلة التي تسند اعتقاده بإمكان حدوث (كرامات) أي خوارق للطبيعة. واهمها أن الخالق سبحانه هو الذي وضع النواميس، وهو قادر على خرقها، بالمعجزات على أيدي أنبيائه، كما في الكتب السماوية، وبالكرامات لأوليائه، كما ثبت بالمشاهدة. وشيخنا البابا ليس مفردا بهذا الاعتقاد، فهو إنما يجاري بهذا كبار علماء الفيحاء، وغير الفيحاء من أمثال **الشيخ حسين الجسر** (١٨٤٥ ــ ١٩٠٩) في كتابه (نزهة الفكر في ترجمة مولانا (والده) **الشيخ محمد الجسر**)، **والشيخ محمد الحسيني** (١٨٦٠ ــ ١٩٤٠)[٢٣] **والشيخ عبد الكريم عويضة** (١٨٦٥ ــ ١٩٥٥)[٢٤] **والشيخ يوسف النبهاني** (١٨٤٩ ــ ١٩٣٢)[٢٥] وقبل هؤلاء، جاء في (جوهرة التوحيد)[٢٦] التي ظلت لحين تعتبر خلاصة عقيدة أهل السنة:

واثبتن للأولياء الكرامة
ومن نفاها فانبذن كلامه

وعلى طريقة (المحدثين) التي أشرنا إليها، يروي عن ثقات عرفهم وعرفتهم طرابلس، قرابة مائتي كرامة، بلغت عنده حد (التواتر)[٢٧] واضاف: وأما الذين لا (أثق) بهم فقد ضربت عنهم صفحا.

والمؤلف يقول بامكان حصول الخوارق ممن (يمرنون أنفسهم بأنواع من الرياضة، ويوجهون قواهم النفسية إلى ما يشاؤون أن يدركوه، قد يكون لهؤلاء الأفراد، في بعض الأحوال، من قوة الروح ما يلمحون به بعض الأشياء أو الأشخاص البعيدة عنهم).. إلى أن يقول (ثبت هذا عند بعض الماديين في هذا الزمان، فمن ذلك ما يسمونه بقراءة الأفكار وبمراسلة الأفكار[٢٨]).

وهناك الكثير من الكتب والمجلات والصحف التي روت من هذه الأعاجيب الشيء المذهل. وينقل المؤلف عن (الوحي المحمدي) قصة فقير

نقد
كتاب
تاريخ العرب
«مطول»
تأليف
بقلم
محمد كامل البابا
طرابلس لبنان

□ غلاف كتاب تاريخ العرب «مطول» لمؤلفه محمد كامل البابا.

هندي دفن نفسه أربعين يوما، وشهد الطبيب المراقب بموته، ثم خرج من الصندوق وأنشأ يحدث الناس أحسن الحديث، ويطرفهم بما يحير العقول[٢٩] ويضيف المؤلف بعبارة ذكية (ولو أن الأشخاص الذين تولوا أمر الفقير الهندي صبروا عليه أربعين يوماً أخرى... لحقت عليه كلمة الموت)، ولكن كرامات الأولياء من أهل الإسلام تجري على (أسباب أخر) يقول المؤلف... (هي من آثار الرياضة الروحية التي تتم بتوجيه القلب إلى ربه، وتنويره بذكر الله تعالى).

وكل من أطلع على هذه (الكرامات) في كتاب شيخنا البابا، أو في (جامع كرامات الأولياء) او على ما رواه مؤلفا كتاب (ولاية بيروت)[٣٠] وهما علمانيان، أقول، كل من أطلع عليها وجد أن معظمها يندرج تحت مبدأين اثنين:

الأول ـــ قراءة الأفكار، كما حصل للسياسي التركي الشهير مدحت باشا الذي دخل على الشيخ (بكامل عنجهيته، وهو والي سورية، ثم تراه عند انصرافه ينحني ليقبل عتبة الدار وعندما سئل عن ذلك أجاب بأن الشيخ أخبره عن أشياء لا يعلمها إلا الله...

الثاني ـــ التأثير في الحواس، كأن يسقي من ماء البحر تراباً سائغا[٣١]. وبعد، لابد لسائل أن يسأل: لماذا طبع المؤلف كتاب (الكرامات) وأحجم عن طباعة كتاب عمره (تاريخ طرابلس وآثارها القديمة)، وأذكر أنني ألقيت عليه نفس السؤال، فكان جوابه: أن أهل طرابلس بشوق زائد إلى معرفة المزيد من كرامات العمري، لأنه ما ذكر في مجلس إلا وتبارى الحاضرون في ذكر مناقبه، ثم أن تكاليف (تاريخ طرابلس) أضعاف ما يكلفه هذا الكتاب الذي وفرت له من المال ما شق علي! ولك أن تعتبر، والكلام ما يزال للشيخ، أن هذا الكتاب ما هو إلا (نبذة) من تاريخي الكبير! ولقد قلت في سبب وضعه (حملني على وضع هذا الكتاب ما دأبت عليه منذ سنوات طويلة من كتابة تاريخ لبلدي طرابلس. فلما بلغت في عملي سنة ١٩٠٣ شدهت لوفاة هذا الشيخ العظيم الذي كانت تأتيه الدنيا مسخرة...)[٣٢].

٣ ـــ تاريخ طرابلس وآثارها القديمة: أرانا قد أسهبنا في الكلام عن مضمون هذا الكتاب الذي ما زال مخطوطا كما قلنا، وقد آن لنا أن نحدث في الشكل: كتب هذا التاريخ بخط جميل، ولكن بقلم الرصاص، في عشرة دفاتر من مائة ورقة، عاشرها للفهارس المختلفة، لم يستعمل سوى وجه من كل ورقة. ولكنه في أثناء الكتابة، وقد استغرقت عشرات السنين، كان كلما وقع على شيء يراه جديرا بالذكر، اومرت به حادثة تستحق التسجيل، أوعنت له فكرة جديدة، كان يشير إلى ذلك في سياق الصفحات المكتوبة، ويخطها في الصفحة البيضاء، وليست دائماً هي الصفحة المقابل! ثم لم يعد إلى نسخ الكتاب في حياته!

فخط بقلم الرصاص الذي لا يثبت على الأيام، وإشارة إلى إضافات لا تعود إلى صفحات متقاربة، بل وأكثر من ذلك، فثمة مواضيع لم يتمها، عهد إلى أبنائه باتمامها، وأخرى اقترحها لتزاد في أماكن بعينها.

كل هذا يفرض على من يتصدى لتحقيق هذا الأثر النفيس أن يعمد إلى إعادة نسخة، ووضع كل شيء في موضعه، ولعلنا في (رابطة إحياء

التراث الفكري) نقوم بهذا الواجب، إذا ما دعينا إليه. فالمخطوط ما يزال في حوزة الورثة، وهو إرثهم الوحيد، وأكرم به من إرث. ولقد أعاروني ما منجما، وعلى مراحل. ولست أعلم أن أحداً اطلع عليه في حياة المؤلف سوى الأديب مارون عيسى الخوري[٣٣]. فقد كان، رحمه الله، ضنيناً بنتاج عمره المديد، ولولا شدة حرصه عليه سامحه الله، لرأى هذا المؤلف الفريد النور من أمد بعيد.

في الستينات، وبطلب من المؤلف، راجعت بشأن طباعته رئيس الجامعة اللبنانية، فرحب بالعرض، وطلب الاطلاع على المخطوطة، فما استجيب طلبه، وكذلك الحال مع رئيس بلدية طرابلس...

ولئن كان المؤلف ضنيناً بكتابه إلى هذا الحد، فلقد كان سخياً بعلمه إلى أقصى حد. فما من عالم أو طالب علم قصده إلا ووجد عنده التلبية والترحاب: فإذا سئل أجاب: وإذا استكتب كتب. بل هو يفيض بعلمه على قصاده وجلاسه دونما سؤال أو استكتاب. وكثيرا ما سار مع هؤلاء، متنقلا بهم بين الأماكن الأثرية، يقص عليهم حكاياتها، ويقرأ لهم كتابتها. ومن طريف ما حدثني به ان مستشرقا المانيا شابا طلب مساعدته في تحقيق أطروحته، وموضوعها (الكتابات الأثرية في طرابلس الشام) فاستجاب له، وأخذ هذا يلصق عصائب من قماش خاص، على ما يروم تصويره، ثم ينزعها عنه، فإذا هو مرسوم عليها. وعاد بهذه الثروة إلى بلده، وفاز بتقدير عال، ثم بعث يشكر الشيخ على كريم مساعدته.

وأرى أن خير ما يقال في هذا الكتاب وطريقة تأليفه هو ما كتبه المؤلف نفسه: «... وقد يأتي بنحو ألف صفحة، ويشتمل على خمسين صورة فوتوغرافية للأماكن الأثرية (جمعت فيه تاريخ هذه المدينة منذ بناها الفينيقيون، أتتبع شوادر أخبارها، وأجمع بين شتات وقائعها من شتى المؤلفات، ما يبين مطبوعات ومخطوطات، وما تم على أرض هذه المدينة من حروب دموية وما حيك فيها من مؤامرات ودسائس سياسية، ونهضة عمرانية أيام بني عمار، وما أصيبت به بعدهم من ضربات أليمة أيام احتلال الفرنج لها الذي دام ١٨٥ سنة، وما مر في تاريخها من شدة ورخاء، وحروب دموية، وحكام ظلمة، وزلازل مدمرة، وإجلاء لأهلها محزن، وذبح سبعين من أشرافها كان له وقع مؤلم».

وكان ينثر من كتابه ما يسميه نبذا، وهي فصول منه مجزوءة، أو كاملة، وكلها قيمة ولدينا ست منها تحمل العناوين التالية:

١ ــ (مدينة طرابلس) في سبع عشرة صفحة، نبذة شديدة الاختصار لتاريخ المدينة وآثارها، ركز فيها على المقاطع التاريخية الهامة.

٢ ــ (صفحة من تاريخ الكرام بني كرامة) أكد فيها أن جدهم الأعلى هو زهر الدولة كرامة بن بحتر من أمراء الغرب التنوخيين. وفي ثمان وثلاثين صفحة لخص تاريخ هذه الأسرة، وألمع رجالاتها. وذكر أن أول من استقر منهم في طرابلس هو مصطفى بن جمال الدين بن يوسف كرامة، وأنه هو واقف الوقف الشهير بالبداوي سنة ١٠٢١هـ ــ ١٦١٢م ثم يختم هذه النبذة بذكر سلسلة النسب الكرامية[٣٤].

٣ ــ (الفكر العربي في طرابلس) في ثماني صفحات من الحجم الكبير، أتى فيه على أسباب النهضة الحديثة، وألمع رجالاتها، وهو بحث رائد جليل الفائدة.

٤ ــ (ولاية بني سيفا على طرابلس وملحقاتها ــ ملخصا عن تاريخ طرابلس) في أربع صفحات من الحجم الكبير، لخص فيه تاريخ هذه الأسرة التي كان لها دور بارز في تاريخ لبنان الحديث والتي ناصبها المعنيون العداء، وقضى عليها قضاء مبرما ولاة الأتراك. ويضيف: والذين بقوا منهم غيروا اسمهم السيفي... ولقد اتصل بنا عن المشايخ المعمرين، وفي بعض الحجج الشرعية بما لا شك فيه أن من ذرية بني سيفا في طرابلس بني الشهال وبني عويضة، وفي خارج طرابلس بني عوض الله).

وينقل عن (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)[٣٥] (أن كبير الأسرة السيفية يوسف باشا قد ابتنى جامعا خارج باب البحصة بمحلة السويقة، وكان يسمى جامع البياطرة، وإنه بحالة الاندثار) ثم اندثر كلياً بفعل فيضان ١٩٥٥.

٥ ــ (رحلة النابلسي لطرابلس) لخص فيها عن مخطوطة كانت لديه (التحفة النابلسية في الرحلة



الطرابلسيـــة) للشيـــخ عبـــد الغني النـــابلسي ١٦٤١ ـــ ١٧٣١، التي لبى فيها دعوة والي طرابلس أرسلان باشا المطرجي.

ش٦ ـــ (الكتابات التــاريخية) وهي مجمـوعة الكتابات الأثرية في طرابلس، في ثماني صفحات من القطع الكبير، وهي جليلة الفائدة.

وبعـد، كــان للمـؤرخيـن والدارسـين، في السبعينات، جولات متعمقة في تاريخ طرابلس، فظهرت كتب قيمـة، ودراسات مـوفقة. وكـان للجامعات، على اختلاف نزعاتها وأغراضها، في الشرق والغرب على السواء، الأثر البالغ في هذا التوجه، ومع ذلك فإن كتاب (تاريـخ طرابلس وآثارها القديمة، لم يفقد قيمته. كيف وقد ضم بين دفتيه كل ما كتب عن طرابلس، من مخطوط ومطبوع ومحفور، وهو كثير كثير، وبذلك يوفر على البـاحثين الرجـوع إلى المصادر ذات العـدد، وهيهات أن يوفق إليها، أو يعثر عليها، إذ هي موزعة بين عشرات الكتب والمكاتب والبلاد.

ولقد أرخت وفاة المؤلف، ولخصت حياته بهذه الأبيات التي نقشت على ضـريحه، نـور الله ضريحه:

عــالمــاً عــاش وعــامــل
يــجــتــلي عــلــم الأوائــل
فــاســتــقــى مــنــه وأســقــى
عــذبــة تــلــك المــنــاهــل
كــثــر الــتــألــيــف لكــن
فــاز بــالــخــلــد الأمــاثــل
قــارىء الــقــرآن أرخ
مــيــز الــتــاريــخ كــامــل
٥٧ ١٢٤٢ ٩١ ١٣٩٠

الهوامش

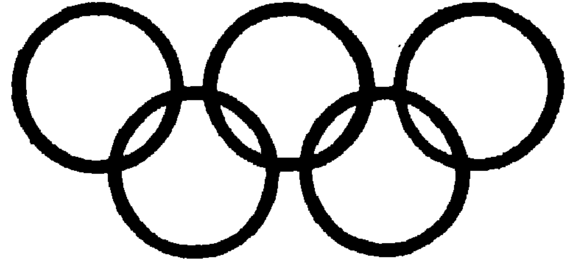
(١) راجع مقالنا في سلسلة علماء طرابلس بعنـوان: العلامة الشيخ جميل عدرة، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة الرابعة، العدد ٤٢ نيسان ١٩٨٢.



□ **الشيخ علي العمري بميناء طرابلس في استقبال رشيد باشا والي بيروت التركي وإلى شماله الشيخ علي رشيد الميقاتي.**

(٢) تراجم علماء طرابلس لعبد الله نوفل ص ١٢٦
(٣) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي للدكتور السيد عبد العزيز سالم، ص ٤٤٣، س ٣، مطابع رمسيس بالاسكندرية ١٩٦٧.
(٤) كنوز من الفكر العربي لأسامة عانوتي ص ٢١١.
(٥) المرجع السابق ص ٢١١ ايضا.
(٦) سجلات المدرسة الجديدة — شباط ١٩١٩.
(٧) من مقال في (نهار) الأحد ١٥ — ٥ — ٨٣ ص ١٠
(٨) الخطط — مطبعة المفيد في دمشق ١٩٢٦ ج ٦، ص ٥٢.
(٩) العدد ٢٧ — نيسان ١٩٦٢ ص ٨ وما يليها.
(١٠) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٤٤٣ وما يليها.
(١١) تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج ٢ ص ٢٦٩ و٢٧٦ وبالمناسبة وللحق نقول ان جميع من كتب عن برج السباع من وطنيين وأجانب، وهم كثر، توهموا أن هذه التسمية إنما جاءته من أسدين كانا محفورين فوق المدخل، ولكن احداً لم يقل انه رآهما، إلى ان جاء التدمري وبرهن بصورة مقنعة أن هذه التسمية إن هي إلا تحريف لاسم باني البرج الامير برسباي.
(١٢) هو بروس كوندي (Bruce Condé) مطبعة البيان — بيروت. ومن طريق ما أخبر به الشيخ انه عربي الأصل من قبيلة كندة اليمنية، وانه زار اليمن وتعرف على قبيلته، فاعترفت به.
(١٣) النقد ص ٥ و٦.
(١٤) المرجع السابق ص ٣٢ و٣٣.
(١٥) المرجع السابق ص ٣٣.
(١٦) المرجع السابق ص ٨ وما يليها.
(١٧) تفسير الفخر الرازي. المجلد السابع ص ٧٤٨ — المطبعة العامرية الشرقية سنة ١٣٠٨هـ.
(١٨) هامش الفخر الرازي ج ٢ ص ٥٠.
(١٩) المجلد الرابع ص ٣٦ مكتبة الجابي الحلبي بمصر ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م.
(٢٠) للشيخ طنطاوي جوهري ج ٢٣ ص ٢٤٨.
(٢١) مرآة الإسلام — الطبعة الرابعة من دار المعارف بمصر ١٩٦٩، ص ١٢٩.
(٢٢) العقيدة الإسلامية — مطبعة دار الأيتام في ١٩٥٢ ص ٦٧.
(٢٣) راجع الوحي المحمدي للشيخ رشيد رضا ص ١٧١ إلى ١٨٣ الطبعة الثامنة وكتاب المنار والأزهر ص ١٤٨ الطبعة الأولى ١٣٥٣، مطبعة المنار بمصر.
(٢٤) كتاب نثر اللآلي في ترجمة ابي المعالي علامة الفيحاء ورئيس العلماء الشيخ عبد الكريم عويضة بقلم صبحي الصالح — طرابلس ١٩٥٦ ص ٤٠ و ٤١.
(٢٥) جامع كرامات الأولياء، دار الكتب بمصر ١٣٢٩هـ.
(٢٦) لناظمها ابراهيم بن حسن اللقاني (؟ — ١٠٤١هـ؟ — ١٦٣١م).
(٢٧) التواتر عند المحدثين هو ان يروي جمهور عظيم الحديث، ويحيل العقل تواطؤهم على الكذب.
(٢٨) كتاب الكرامات ص ١٦ و١٧.
(٢٩) المرجع السابق ص ١٥ — ١٨.
(٣٠) محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت — مطبعة الولاية ١٣٣٦هـ ١٣٣٣ مالية — المجلد الثاني ص ٢٤١.
(٣١) الكرامات ص ٢١٣ و٢١٤.
(٣٢) الشيخ علي العمري هو ابن الشيخ مصطفى من مواليد دمشق عام ١١٩٤ — ١٣٢١هـ ١٧٨٠ — ١٩٠٣م ويقول الشيخ عن نفسه: ثم توجهت إلى اللاذقية واختليت فيها بخلوة في جامع العويني، وبقيت سبع سنوات مختلياً مشتغلاً بالاذكار، ثم غلبني (الحال) أي ترقيت عن مقامي الأول، فخرجت هائما على وجهي في الجبال والقفار مدة سنوات ثم حصل لي الصحو (الكرامات ص ٦٢).
(٣٣) ملامح ثقافية — منشورات جروس برس — الطبعة الثانية طرابلس ١٩٨٣ ص ١٠.
(٣٤) النبذة المخطوطة ص ٣٧ وما يليها.
(٣٥) للمحبي — ج ٤ ص ٥٠٣.

■



تاريخ الألعاب

د. يوسف شبل

□ اولمبياد اثينا ١٨٩٦



توقفت الألعاب الاولمبية التي كان يمارسها قدماء اليونان ي عام ٣٩٣ ميلادية. وفي القرن الثامن عشر بدأ الاهتمام من جديد في بعث التاريخ اليوناني بما فيه الألعاب الاولمبية. وفي عام ١٨٥٠ قام الدكتور «بروك» بتأليف «الجمعية الاولمبية» حيث التقى بعد ذلك بالبارون الفرنسي بيير دو كوبرتين (Pierre De Coubertin) الذي تبنى فكرة بعث الألعاب الاولمبية من جديد.

وكان من الطبيعي ان يثير هذا الاقتراح اهتمام الحكومة اليونانية، وقد قامت اللجنة التي تألفت برئاسة «كوبرتين» بالاتصال بالحكومة اليونانية التي لم تتحمس للفكرة كثيرا بسبب المتاعب المالية التي كانت ترزح تحتها. غير ان ولي عهد اليونان الأمير قسطنطين قام بتأليف لجنة ن اثني عشر عضوا واجتمعت في ١٣ كانون الثاني عام ١٨٩٠ للتحضير لأول اولمبياد بعد مئات السنين من التوقف. وقد قامت اللجنة بوضع شروط الاشتراك والرياضات المختلفة التي سيتضمنها الاولمبياد. وقامت الهيئات الشعبية ورجال الاعمال بجمع الاموال الضرورية لهذا الغرض. وقامت اللجنة باصدار طوابع خاصة ارصد ريعها لتمويل جزء من نفقات اول العاب اولمبية حديثة. وتبرع الثري اليوناني «جرجيوس آفيروف» بمبلغ ٩٢٠,٠٠٠ دراخما، بما يوازي قيمتها من الذهب لكي يكون لليونان شرف تنظيم اول دورة اولمبية، كما كان يفعل قدماء اليونان.

وكانت اللجنة الاولمبية الدولية قد تشكلت في باريس وعقدت اول اجتماع لها في قلب جامعة السوربون بعد مؤتمر شارك فيه ٧٩ عضوا و٤٩ اتحادا رياضيا. وقد وضع البارون «كوبرتين» اسس الألعاب الاولمبية كما كان يريد هيئة دولية مستقلة قادرة على الاستمرار. وبناء على ذلك قام بتشكيل لجنة قوامها خمسة عشر شخصا برئاسته من ١٢ بلدا في العالم. وحدد كوبرتين اربع مهمات رئيسية لهذه اللجنة:

(أ) تطوير القيم الأخلاقية والصفات الجسدية للمشتركين.

(ب) تثقيف الشباب من خلال ممارسة الرياضة بما يحقق التفاهم المشترك بين شعوب العالم.

(ج) نشر الشعار الاولمبي بين مختلف شعوب العالم.

(د) جمع رياضيي العالم في مهرجان كل اربع سنوات.

وحتى عام ١٩٦٦ كان الاعضاء ينتخبون مدى الحياة، اما بعد هذا التاريخ فقد تقرر ان يتقاعد العضو في سن الثانية والسبعين. كما كان يتوجب على العضو ان يكون مقيما في بلاده، لذا اضطر ولي عهد اليونان الذي غادر بلاده بعد الانقلاب العسكري في اليونان الى الاستقالة من منصبه.

وافتتحت اول دورة اولمبية في ٢٤ اذار من عام ١٨٩٦ في مدينة «اثينا» حيث اقيم تمثال لرجل الأعمال اليوناني الثري «آفيروف». وتجمع في يوم الافتتاح اكثر من ٨٠,٠٠٠ مشاهد حيث

ب الأولمبيّة الحديثة



قام الملك وملكة اليونان بافتتاح الدورة رسميا. وقد شارك في الدورة الاولبية الأولى ٣١١ رياضيا يمثلون ١٣ دولة وهي: استراليا، النمسا، بلغاريا، تشيلي، الدنمرك، المانيا، فرنسا، اليونان، بريطانيا، السويد، سويسرة، المجر، والولايات المتحدة الاميركية. وقد جاء معظم هؤلاء الرياضيين بمبادرة شخصية منهم وعلى نفقتهم الخاصة. وتضمنت الدورة تسعة العاب وثلاث واربعون سباق، كان اهمها دون شك «الماراتون» حيث تنافس في العدو ١٦ عداءا لمسافة ٤٢ كيلومترا. وقد فاز في السباق العدّاء اليوناني «سبيروس لويس» الذي اصبح بطلا قوميا في بلاده.

اشتملت الألعاب على العاب القوى، رفع الأثقال، الجمباز، المصارعة، المبارزة، الرماية، السباحة، الدراجات، كرة المضرب. اما التجديف فقد الغي بسبب رداءة الاحوال الجوية، كما ان الكريكيت تم الغاؤها بسبب عدم اشتراك عدد كاف. وكان الاميركي «جيم كونولي» اول رياضي يفوز بميدالية اولمبية حيث فاز بمسابقة «الخطوتين وقفزة» حيث سجل ١٣,٧١ مترا، حيث نال ميدالية فضية في حين ان الثاني نال ميدالية برونزية (لم يكن قد بدأ منح ميدالية ذهبية للأول كما هو الآن). ولقد نجحت اول دورة اولمبية رغم تواضع مستواها الفني والاداري وكانت فرحة اليونانيين عظيمة لأن الحلم قد تحقق.

وفيما يلي مقارنة بين الأرقام التي سجلت في اولمبياد «اثينا» عام ١٨٩٦، وبين اولمبياد مونتريال ١٩٧٦، وفيها يتضح امرين: الاول، القفزات الكبيرة التي حققها الرياضيون في العالم خلال فترة ثمانين عاما، والثاني، ان كثيراً من البلدان النامية في الرياضة ومنها لبنان لا تزال ارقامها اقرب لتلك التي كانت في اولمبياد «اثينا».

□ اولمبياد باريس ١٩٠٠

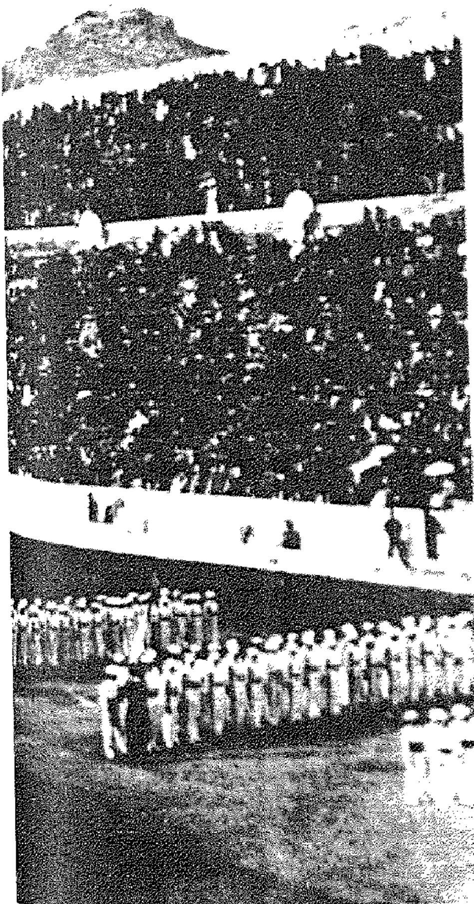
لقد حاول ملك اليونان جورج الأول احتكار الالعاب الاولمبية في مدينة «أثينا» غير ان البارون كوبرتين اعتذر بلباقة واستطاع ان يقنع الملك

مقارنة بين ارقام اولمبياد اثينا واولمبياد مونتريال (العاب القوى)

	١٨٩٦ (اثينا)	١٩٧٦ (مونتريال)
١٠٠ متر	١٢,٠٠ ثانية	١٠,٠٦ ثانية
٢٠٠ متر	٢٢,٢ ثانية	٢٠,٢٣ ثانية
٤٠٠ متر	٥٤,٢ ثانية	٤٤,٢٦ ثانية
٨٠٠ متر	٢,١١ دقيقة	١,٤٣,٥ دقيقة
١٥٠٠ متر	٤,٣٣ دقيقة	٣,٣٩,٢ دقيقة
الثلاث قفزات	١٣,٧١ متر	١٧,٢٩ متر
القفز الطويل	٦,٣٥ متر	٨,٣٥ متر
القفز العالي	١,٨١ متر	٢,٢٥ متر
القفز بالزانة	٣,٣٠ متر	٥,٥٠ مترا
الصحن	٢٩,١٥ متر	٦٧,٩٠ مترا

مقارنة بين ارقام السباحة

١٠٠ متر حرة	١٥,٢٢,٢ دقيقة	٤٩,٩ ثانية
٤٠٠ متر حرة	٦,١٦,٢	٣,٥١,٩
١٥٠٠ متر حرة	١٨,٢٢,٢ دقيقة	١٥,٠٢,٤
١٠٠ ظهر	١,١٦,٨ دقيقة	٥٥,٤٩ ثانية



بضرورة اقامتها بعد اربع سنوات أي في عام ١٩٠٠ في «باريس». وقد جوبه بمعارضة شديدة من بعض الهيئات الرياضية في فرنسا. وبعد جولة اوروبية تمكن البارون كوبرتين من الاتفاق على اقامة الألعاب الاولمبية الثانية على ملعب «الراسينغ» الكائن في غابة بولونيا الشهيرة. والطريف في هذه الدورة انها استمرت من ٢٠ ايار ـ ٢٨ تشرين الأول!! من عام ١٩٠٠. واشتملت على رياضات عديدة بعضها للهواة وبعضها للمحترفين. وكان عدد الرياضيين المشتركين ١٣١٩ منهم ١١ امرأة وعدد الدول المشتركة ارتفع الى ٢٢ دولة. وقد حدثت عدة حوادث طريفة منها انسحاب بعض الرياضيين دون سبب والتفاوت الكبير في النتائج كما كانت تظهر في الصحف الفرنسية. فقد تميزت هذه الدورة بفوضى في تنظيم برامج اللقاءات المختلفة وبالتشاجر بين اللاعبين الى درجة هددت على اثرها بعض الدول المشتركة بالانسحاب. اما نجم الدورة الاولمبية في باريس دون منازع فكان الاميركي «الفين كرنزلين» (Alvin Kraenzlein) الذي فاز بأربع مسابقات في العاب القوى وهي سباق ٦٠ مترا عدواً، سباق ١١٠ امتار حواجز، سباق ٢٢٠ مترا حواجز والقفز العريض. وهو حامل الرقم العالمي انذاك حيث قفز ٧,٤٣م (أي سبعة امتار وثلاث واربعون سنتمتراً). وقد اكتسح الامريكيون مسابقات العاب القوى حيث فازوا بـ ١٧ لقبا من اصل ٢٣ مسابقة.

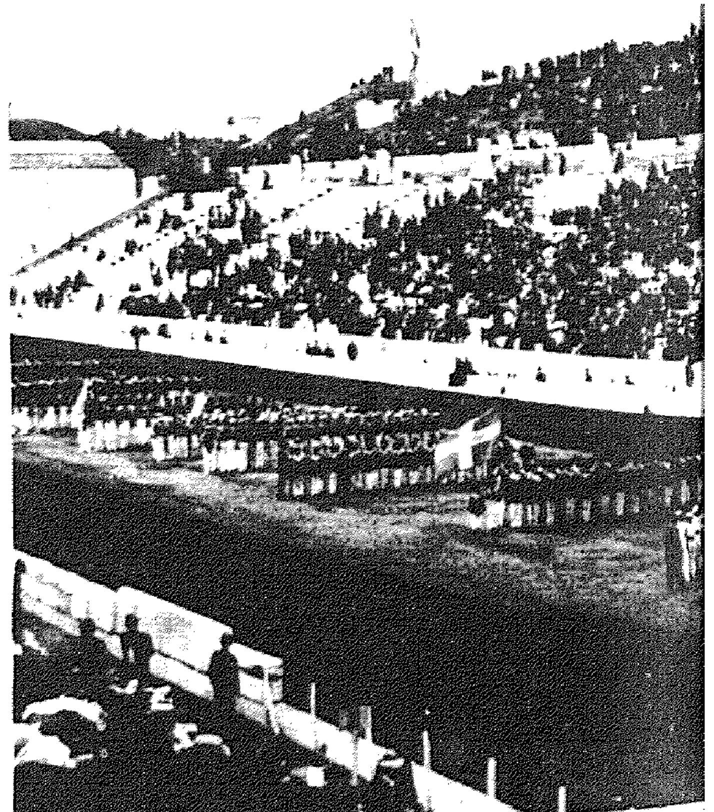
وفاز بسباق الماراتون الفرنسي «ميشال ثياتو» (M. Theato) الذي قطع مسافة الـ ٤٣ كيلومترا بـ ٢,٣٩,٤٥ (ساعتان وتسع وثلاثون دقيقة وخمس وأربعون ثانية). والطريف في الأمر انه لم يعلن فوزه رسميا الا بعد اثني عشر عاما!! اي في عام ١٩١٢ فقد طعن الاميركي «ديك غرانت» الذي حل سادساً بالنتيجة لأنه كما قال اصطدم بدراجة في شوارع باريس وهو يعدو واحتل المركز السادس!!

اما سباقات السباحة فكانت في منتهى الفوضى فقد جرت في مياه النهر الموحلة وأصبح من الصعب اكمال السباقات وبالتالي تحديد الفائز. وهكذا انتهت دورة باريس الاولمبية بكثير من الغموض والشجارات مفسحة الطريق امام



□ برنامج الألعاب الاولمبية لدورة اثينا ١٨٩٦.

□ حفلة افتتاح اولمبياد اثينا.



الاولمبياد الثالث الذي جرى في مدينة «سانت لويس» في الولايات المتحدة الاميركية في عام ١٩٠٤.

□ اولمبياد سانت لويس ١٩٠٤

رغم الاتفاق الذي تم في عام ١٨٩٦ على اختيار الولايات المتحدة مكانا للاولمبياد الثالث فان خلافا حادا حصل بين الامريكيين انفسهم حول مكان اقامة الالعاب الاولمبية. فالبعض طالب باقامتها في مدينة «شيكاغو» والبعض الآخر أصر على «سانت لويس» في ولاية ميسوري في الجنوب. وبعد جدال طويل دخل فيه «البارون كوبرتين» طرفاً حسم رئيس الولايات المتحدة الجدال باختيار مدينة سانت لويس حيث كان من المقرر اقامة معرض عالمي فيه الى جانب الالعاب الاولمبية.

غير ان اولمبياد «سانت لويس» كان فاشلاً بالنسبة لعدد الدول التي اشتركت فيه ١٢ دولة بالمقارنة لـ ٢٢ اشتركت في دورة باريس (١٩٠٠) وعدد الرياضيين ٦١٧ بالمقارنة مع ١٣١٩ في دورة باريس. ومعظم المشتركين كانوا اميركيين أو كنديين. الشيء الايجابي الوحيد في دورة «سانت لويس» كان تحديد ايام الدورة باثني عشر يوما فقط بعد ان طالت اشهرا عديدة في «باريس» كما تقرر التشدد في عدد المحترفين وفتح الباب امام الرياضيين الهواة فقط.

والمعروف ان مدينة «سانت لويس» عند افتتاح الدورة الاولمبية الثالثة فيها كانت تحتفل بمرور مئة عام على شراء ولاية «اريزونا» من قبل الرئيس توماس جيفرسون من الامبراطور نابليون الأول لقاء مبلغ ١٥ مليون دولار. وكان سكان سانت لويس في حدود ٦٠٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٠٤.

ولم يكن ذلك العام هادئا من الناحية السياسية في العالم فقد تحرك الأسطول البريطاني بسبب التهديد الذي حصل بالنسبة للملاحة في قناة السويس نتيجة الحرب الروسية اليابانية. وفي وسط هذا الجو المشحون لم تشترك بريطانيا سوى بعداء واحد وبالتالي كان اشتراكها رمزياً.



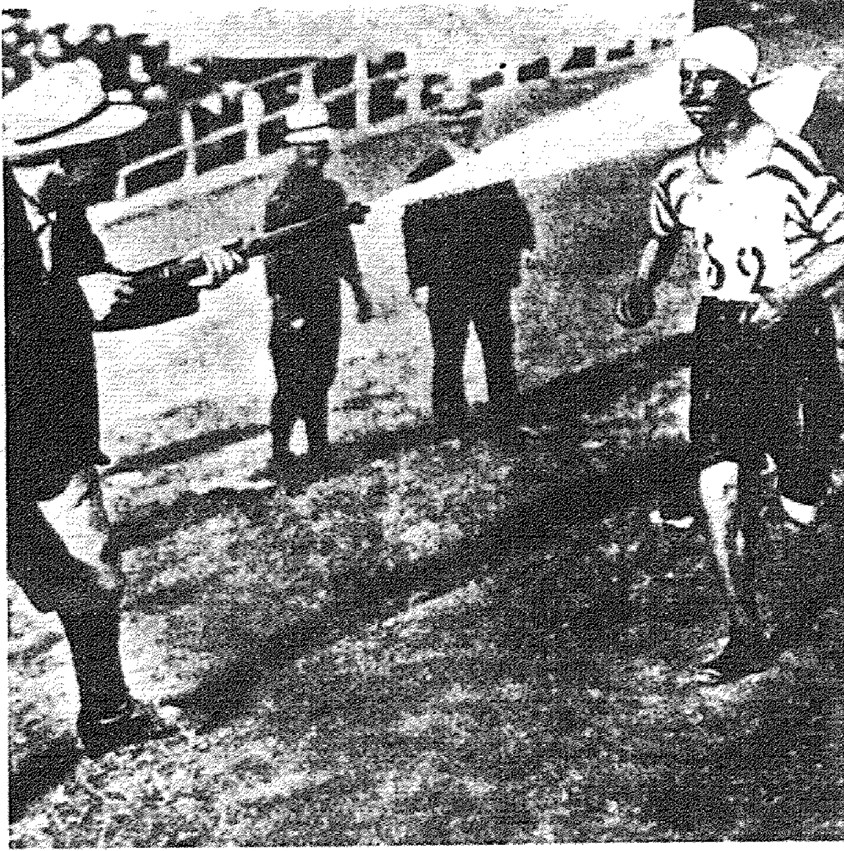
□ بدء سباق الماراتون وقد تجمع الصبية اليونان على سطو:

وكانت نتائج المباريات بالنسبة للفرق كالتالي: (أ) كرة السلة (على سبيل العرض فقط)؛ (ب) كرة القدم: كندا؛ (ج) كرة الماء فازت بها الولايات المتحدة. والطريف في الأمر ان هذه الفرق لم تكن منتخبات وطنية وانما عبارة عن اندية مما اضفى على الالعاب الاولمبية الكثير من عدم الجدية. واستمرت الألعاب الاولمبية من ٢٩ آب حتى ٣ أيلول حيث كان معدل الحضور اليومي في حدود ٢٠٠٠ مشاهد تجمعوا بالقرب من جامعة واشنطن لمشاهدة العاب القوى حيث تألق فيها الأميركيون.

ومن الأبطال الذين احتفظوا ببطولاتهم السابقة في دورة باريس لعام ١٩٠٠ الرياضي الأميركي «جون فلانجان» الذي احتفظ ببطولة المطرقة وبطل القفز الشهير «راي إيوري» الذي فاز ببطولة القفز العالي (١,٥٠م) والقفز العريض (٣,٥٠ مترا) و١٠,٥٥م في القفزة الثلاثية. وهي كما يتضح أرقام متواضعة جدا. كما فازالعدّاء



...لنازل.



□ وسيلة طريفة لانعاش المتسابقين في اولمبياد اثينا..

الاميركي «آرشي هان» ببطولة الـ ١٠٠ متر عدواً بزمن قدره (١١) ثانية) وفي سباق ٢٠٠ متر عدواً بزمن قدره (٢١,٦) ثانية. والطريف في السباق الأخير ان اللجنة المشرفة على المباريات عاقبت بقية العدائين بتأخير انطلاقهم ياردة واحدة لأنهم تسرعوا بالانطلاق قبل اطلاق الصفارة ومع ذلك وصل «هان» قبلهم بثلاثة امتار!!

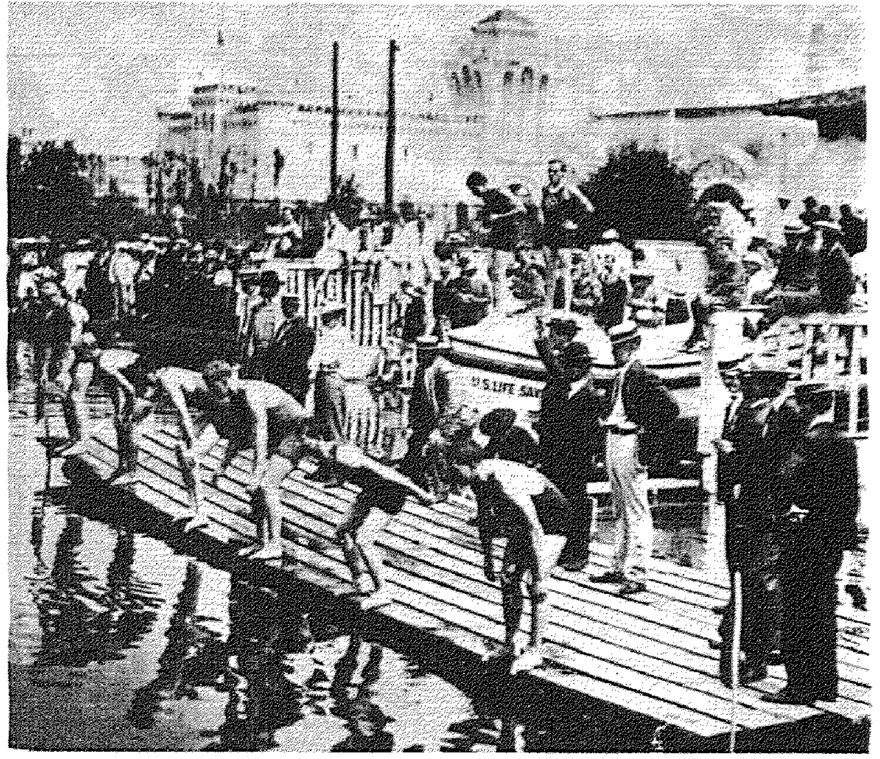
اما سباق الماراتوان فكان فاشلا تماما فقد تخلف عن اكمال السباق معظم المشتركين ووصل العداء الاميركي «توماس هيكس» بعد ان اسعفه اثنان من اعضاء اللجنة بشكل غير قانوني اذ القى بجسمه عليهما لكي يرتاح قليلاً وهذا بالطبع خطأ واضح كفيل بتعطيل النتيجة المشار اليها.

وفيما يتعلق بالملاكمة لم يشترك احد سوى الملاكمون الاميركيون وكذلك في المصارعة. وقد علّق «البارون كوبرتين» على اولمبياد سانت لويس بقوله «لم أكن حاضرا في مباريات رياضية فقط وانما كنت شاهدا على الغش والخداع في النتائج وكذلك شاهدا على اشتراك وحوش بشرية على سبيل الفكاهة»! وبذلك اختصر «كوبرتين» الفشل الذريع الذي احاط بدورة سانت لويس التي لم يكن فيها نقطة مضيئة واحدة.

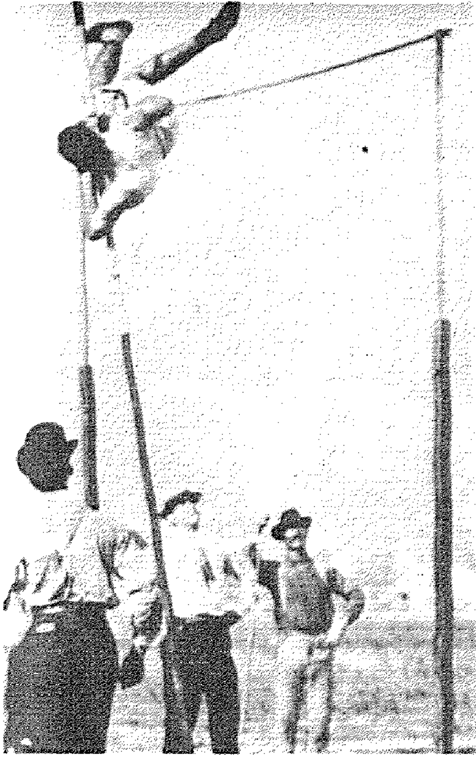
وبعد مداولات مطولة تقرر اقامة الدورة الرابعة في روما في عام ١٩٠٨ غير ان ايطاليا سحبت موافقتها لاحقا واستبدلت مكانها مدينة لندن التي جاءت على مستوى كبير من النجاح وكانت بمثابة نقطة تحول هامة في سيرة الألعاب الاولمبية.

□ اولمبياد لندن ١٩٠٨

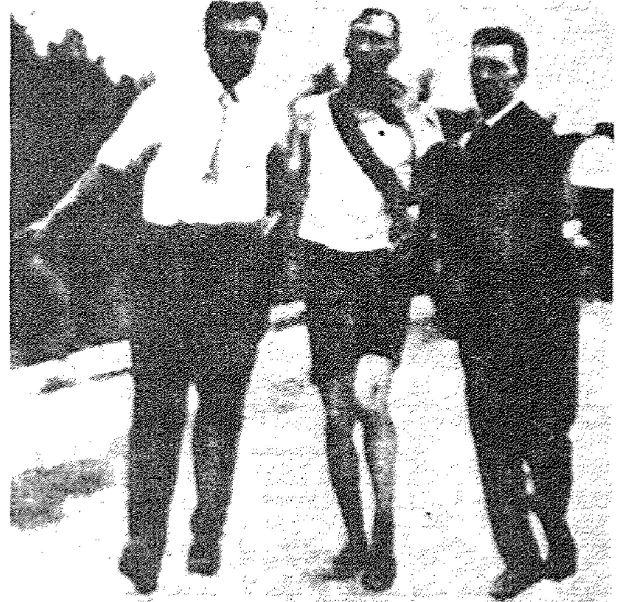
بعد فشل اولمبياد «سانت لويس» كان لا بد من نجاح كبير وإلّا انهارت الألعاب الاولمبية برمتها. فقد تميز اولمبياد لندن بالجدية والتنظيم حيث قامت اللجنة الاولمبية ببناء ملعب كبير يتسع



□ بدء سباق ١٠٠ ياردة سباحة حرة في دورة «سانت لويس».



□ شارلز دوفارك اللاعب الاميركي يقفز ٣,٥٠ في الزانة.



□ الفائز بسباق الماراتون تماس هيكس (الولايات المتحدة) يجفف عرقه بمساعدة بعض اعضاء اللجنة الرسمية!!

لـ ٩٠,٠٠٠ مشاهد بعد ان اتفقت مع المسؤولين عن المعرض البريطاني ــ الفرنسي. وقد بذلت اللجنة الاولمبية جهوداً جبارة لتنظيم المباريات وطبع الكراريس وحددت العدد الأقصى لكل فريق في كل لعبة على حدة بعد ان كانت الفوضى قد عمت في باريس وسانت لويس. وتم ادخال العاب جديدة مثل البولو والتنس كما تم تنظيم العاب القوى بكثير من الدقة والحزم. وقد كانت العائلة المالكة في بريطانيا في طليعة الحضور مما اضفى على الألعاب الاولمبية جوا من الاحترام والتنظيم الشديدين. وفي هذا الاولمبياد تم تحديد نهائي لسباق الماراتون على انه ٢٦ ميلاً و٣٨٥ ياردة ومنذ ذلك التاريخ وحتى العام ١٩٨٠ (اولمبياد موسكو) تكرست هذه المسافة نهائيا. والطريف ان العداء الايطالي «دوراندو بيتيري» فاز بالسباق رغم انه خالف الطريق القانونية لدخول الملعب في الأمتار الأخيرة من المسابقة وقد وجدت اللجنة انه من الظلم اعلان خسارته بسبب هذا الخطأ غير المقصود فاعلنت فوزه بعد ان سقط مغشيا عليه عند خط النهاية.

كما حدث اشكال في سباق ٤٠٠ متر عدواً فقد لجأ العداء الاميركي «كارنبتر» الى منع العداء البريطاني من تجاوزه وعندما قررت اللجنة الفنية استبعاد العداء الاميركي اصبح مدعيا بأن القانون في الولايات المتحدة يجيز له مثل هذا العمل!

وفي سباقات السباحة تم تشييد بركة ماء طولها ١٠٠ متر!! في حين ان القياس الذي يعتمد

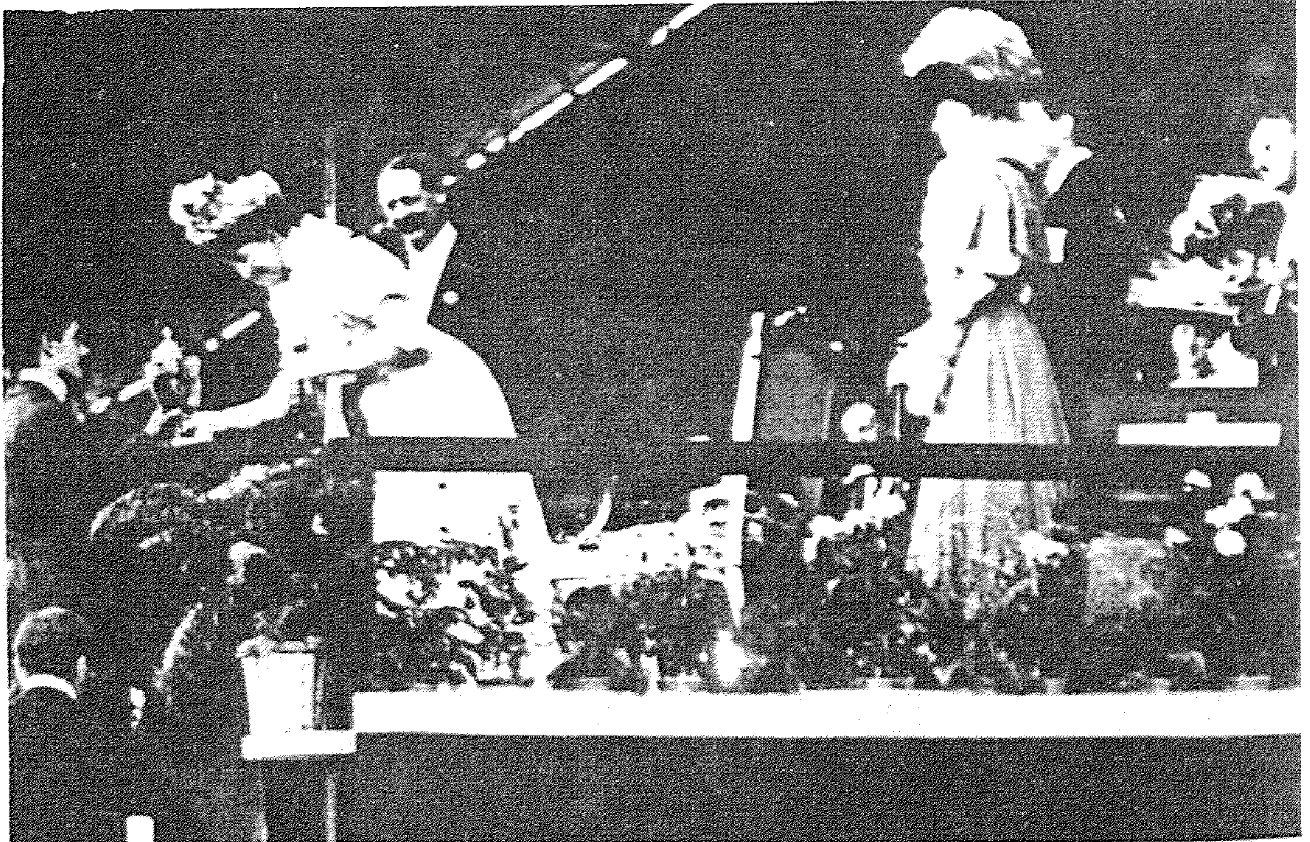
الآن هو ٥٠ مترا. وتفوق البريطانيون في سباق التجذيف في حين برز الأميركيون في العدو وألعاب القوى. ولم يعكر صفو اولمبياد لندن سوى سوء الطقس رغم أنه كان في تموز (الصيف) إذ الغيت مسابقة الدراجات وتوقفت مباريات التنس وتضرر جسديا أكثر من لاعب.

وخلاصة القول كان اولمبياد لندن أكثر الدورات نجاحا وبالتالي أعطى هذه الدورة العالمية زخما جديدا بعد أن اعتقد كثير من الخبراء أن الألعاب الاولمبية ستتوقف حتما. ■



□ دوروندو بياتري (ايطاليا) الفائز بسباق الماراثون بمساعدة بعض «المراقبين» على خط النهاية!.. ولقد قررت اللجنة الفنية فيما بعد اعتبار الانكليزي «جون نيين» فائزاً بالسباق.

□ الملكة الكسندرة، ملكة انجلترة، تعطي الميدالية للفائز بالماراتون.



مَعْرَكة واتَرْلو



تغيّر مصير التّحالفات والأحداث الأوروبّية

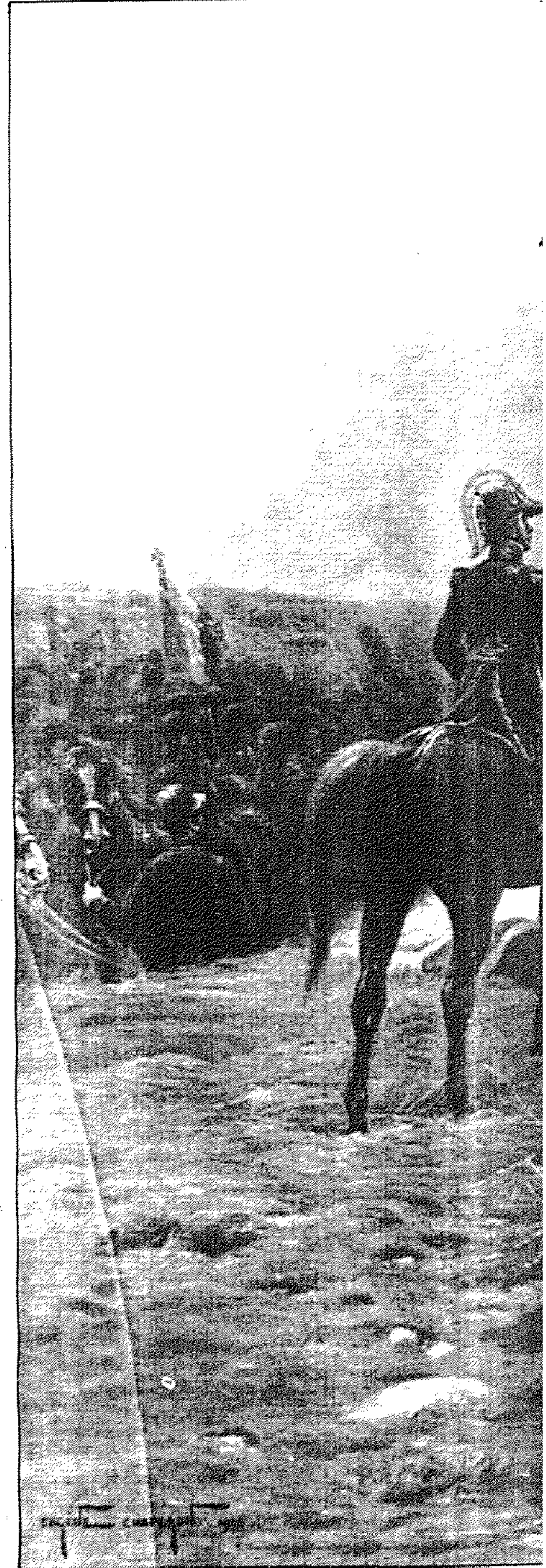
د. رياض العالي

ثمة معارك تاريخية، يعنى المؤرخون والكتّاب بتمجيدها، وينسون النتائج الحقيقية التي نجمت عنها، فغيرت احيانا علاقات، وتحالفات، وأثّرت على مصير شعوب، وربما على تاريخ البشر احيانا. يعنون بالمنتصر، ويحصون خسائر المنكسر، ويغفلون عن الأساسي، والتغيرات العميقة التي جرها الانكسار على العلاقات الدولية. واترلو، من هذه المعارك التي اغفل المؤرخون نتائجها الحقيقية ويشددون على انكسار نابليون، وعلى بطولة بلوخر. وينسون ان النتيجة الأهم، هي ان واترلو وضعت نهاية للصراع الفرنسي ـ البريطاني، وخلقت محله الصراع الفرنسي ـ الألماني.

حل المسالة



على ابواب بروكسل، يرتفع باتجاه فرنسا، وعلى طريق شارلروا القديمة، نصب اسد واترلو. إنه يذكر بانهيار حلم نابليون العائد من جزيرة الباء، الثامن عشر من حزيران ١٨١٥، وفي نفس المكان. كان يحلم باستعادة امبراطوريته، ولكن الهضبة التي يقوم عليها النصب ما تزال تذكر بانهيار الحلم. كيف حدث ذلك؟ كيف قضي على اسطورة الامبراطورية التي بعثت من جديد؟ أسئلة كثيرة تطرح: لماذا لم ينتصر نابليون؟ لماذا لم ينكسر ولنغتون؟ أما كان نابليون انتصر لولا خيانة حالت دون تنفيذ مخططه الحربي؟ لماذا اقبل بلوخر لدعم ولنغتون الذي كان جيشه على وشك الانهيار، فوضع الجيش الفرنسي بين فكي كماشة، بينما كان يجب



□ نابليون ابان معركة واترلو.

ان يصل، في الوقت نفسه، غروشي بقواته، من خلف خطوط ولنغتون، فيفرض عليه الاستسلام، ويقضي على الحلف الرباعي ضد فرنسا.

غير ان هذه الأسئلة جميعا لا تعفي من الاقرار ان نابليون «الذي لا يقهر» قد كسر مرتين: مرة عام ١٨١٤ حين تحالفت ضده قوى اوروبا، ومرة عام ١٨١٥ حين تحالفت القوى ذاتها ضده.

على كل حال لم يختر نابليون ارض المعركة. لقد اختارها ويلنغتون. فحين عاد نابليون من جزيرة البا، آذار ١٨١٥، قدر انه يستطيع الاستفادة من انشقاق حلف مؤتمر فيينا، بسبب التعويضات التي كان يفترض دفعها لبروسيا، بدل مملكة الساكس. ولكن الامبراطور لم يدرك ان عودته لا بد ان تؤلب عليه الأعداء، فيحلوا المعضلة سياسيا بينهم، وعلى حساب فرنسا، باقتطاع اجزاء منها، اذا انتصروا عليها، وضمها الى بروسيا.

تحققت وحدة حلفاء ١٨١٤ سريعا. وتكونت قوة من انكلترا وبروسيا والنمسا وروسيا. وذلك في ٢٥ آذار ١٨١٥، اي بعد عودة نابليون بأيام قليلة. وقد قدر ولينغتون انه يكفي لحل المعضلة تدمير الجيش الفرنسي، دون القضاء على فرنسا. بينما كانت نوايا البروسيين القضاء على فرنسا ذاتها، لا نابليون وحده، ولا القوة الفرنسية وحدها. الا انه تم الاتفاق بين الحلفاء على تدمير القوة العسكرية اولاً.

وضع الحلفاء خطتهم خلال خمسة ايام. وقرروا تشكيل اربعة جيوش، تتجه جميعا نحو باريس: جيش نمساوي — الماني، ينطلق من الألب. وجيش نمساوي — سويسري — الماني عبر الرين الأعلى، وجيش روسي عبر الرين الأوسط، وجيش بروسي — انكليزي نيرلاندي عبرالبلاد الواطئة (هولندا). على ان يبدأ الهجوم العام في الأول من تموز.

ويلنغتون سيد اللعبة

تسلم ويلنغتون قيادة الجيش المنطلق من البلاد الواطئة. ومنذ أوائل نيسان نسق بين تحركات القوات البروسية والنيرلاندية والانكليزية، على نحو يحافظ فيه على المقاطعات البلجيكية، والرينانية، والبروسية، ضد أي هجوم مفاجىء يقوم به نابليون. ولقاء وعده بالقتال منسحباً — عند الضرورة — نحو ألمانيا، لا نحو البحر، تلقى من نيسنو، رئيس الأركان البروسي، بأن يتقدم في وادي الموز الى مستوى خط نامور — شارلروا. ورتب القوات البريطانية — النيرلاندية من مونس إلى البحر، مقدراً ان باستطاعته تجميع هذه القوى بسرعة في نيفيل. وهكذا تبدو طريق شارلروا — بروكسل خالية. وهذا ما خدع نابليون، الذي اعتقد انه اذا دفع بجيوشه في هذا الاتجاه، يستطيع فصل القوات البروسية عن البريطانية — النيرلاندية. ولم يكن يعلم ان ويلنغتون اختار هذه الطريق، وحتى مون سان جان، ارضا للمعركة، ليستدرج خصمه اليها، ويقطع عليه طريق بروكسل، ويدفع الجيش البروسي من ورائه، ليسحق الجيش الامبراطوري بين فكي السندان والمطرقة.

لتحضير ذلك، أجريت مناورات الحلفاء من برين — لالو الى واترلو، عند تقاطع طريق نيفيل — نامور مع طريق شارلروا — بروكسل. ثم ساد الصمت على طريق شارلروا، فيما انطلقت احاديث وبيانات تتحدث عن هجوم فرنسي متوقع على طريق مونس — بروكسل.

الضربة القاصمة

خلال هذه الفترة، كانت كل القوى الحليفة قد اتخذت امكنتها. ١٥ حزيران، كتب ويلنغتون الى قيصر روسيا انه يعتقد ان كل جيش لوحده قادر على تدمير قوة نابليون.

كان جيش نابليون قد اتم تركيز مواقعه في بومون، وبدأ الهجوم باتجاه بروكسيل عبر شارلروا. وعندما علم ويلنغتون بذلك، خشي الا يندفع جيش نابليون باتجاه مونس. مما يجعل تدخل الجيش البروسي مستحيلاً. لذلك لم يوجه اية اوامر، طالما ان الجيش الامبراطوري لم يتقدم باتجاه شارلروا. ولكنه امر القوات البريطانية النيرلاندية بالتجمع في الخط ما بين نيفيل وطريق بروكسيل شارلروا. كان على القوة الخاصة، وحدها، وقد انشئت في نيسان، ان تتجه لتفتح تفرعات الطريق الأربع بقيادة قائد القوات النيرلاندية كونستان دوريبيك.



□ ويلنغتون يتلقى نبأ قدوم الجيش البروسي لدعمه.

كان بلوخر، من جهته، قد توقع الهجوم الفرنسي فركز قواته ليل ١٤ ــ ١٥ حزيران في مقاطعة فلوروس، على طريق نامور نيفيل، غير بعيد عن تقاطع فروع الطريق الأربعة.

وجه نابليون قواته ضد بلوخر، تاركاً لنيْ العناية باحتلال فروع الطريق، وانقض على البروسيين ودحرهم الى لينيي، ١٦ حزيران. وقد خيل اليه انه قضى على الجيش البروسي فأمر غروشي ان يلاحقه. ولكن ويلنغتون كان خلال النهار قد زار لينيي. ورغم انه لم يختر هذا الموقع للمعركة، فقد امر قواته بمهاجمة قوات ني، وأجبرها على وقف القتال.

حين صدم بلوخر في لينيي تسلم نيسنو قيادة الجيش البروسي، وأمر بالانحساب، لا نحو نامور، حيث ينقطع الاتصال بالقوات البريطانية ــ النيرلاندية، وانما نحو ويفر، ليبقي على الاتصال. اتصل به ويلنغتون ليلاً وسأله ان كان يستطيع موافاته في مون سان جان في ١٨ حزيران، وجعل القوات البريطانية ــ النيرلاندية تتراجع الى موقع تقاطع الطرق. وغدا موقع مون سان جان مركز تجمع قواته. وترك عند التقاطع ستاراً من الخيالة، عليه ان ينسحب تدريجياً، حين يظهر الجيش الفرنسي القادم من لينيي. وبالتالي يستدرج الفرنسيون الى مواجهة الخطوط البريطانية النيرلاندية، المتمركزة على مترفعات مون سان جان.

كان ويلنغتون قد جعل مقر اركانه في قرية واترلو خلف مون سان جان. ومن هناك كان ينتظر اخبار الجيش البروسي. وقد طلب منه دعمه بلواءين على الأقل. وكان بلوخر الذي تلقى الصدمة الأولى، قد قرر ان يدفع بقواته ليل ١٧ ــ ١٨، من ويفر نحو الجيش البريطاني ــ

النيرلاندي لدعمه. ولكنه امر جيشه الا يبدأ إلا متأخراً، ليجعل الحلفاء يتلقون ثقل المعركة الأكبر.

الفرصة التاريخية

تلقى ويلنغتون ليل ١٨ حزيران، الساعة الثانية صباحا، معلومات عن دعم الماني عاجل. عندئذ قرر بدء المعركة التي حضر لها تحضيرا جيدا.

ظل طوال النهار يعمل على تحطيم هجمات الجيش الفرنسي، دون ان يقوم بهجوم معاكس. مستعينا، حسب الحاجة، بالاحتياطي.

وحين قدم البروسيون، في نهاية النهار، من خلف الخطوط الفرنسية، وقع الجيش الامبراطوري في الفخ، ولم يعد باستطاعته لا الانسحاب ولا الاستمرار في القتال. بدأ ويلنغتون عندئذ هجومه العام، وإن بخسائر ضخمة جداً. لذلك تولى الجيش الألماني تحطيم بقايا الجيش الفرنسي.

وهنا بدأ الخلاف البريطاني البروسي. لقد اكتفى ويلنغتون بانكسار نابليون، ولم يكن يعتبر فرنسا عدوة. لذلك حين اتجه بجيشه نحو باريس، كان يعنيه ان يعوق تقدم الجيش البروسي نحوها، حتى لا ينتقم منها. وكان لقاء ولنغتون ــ بلوخر، مساء المعركة فرصة تاريخية لبروز مرحلة جديدة في تاريخ اوروبا، انتهى فيها الصراع البريطاني ــ الفرنسي، ليغدو صراعا طويل الأمد بين المانيا وفرنسا، استمر حتى ١٩٤٥.

من خسر المعركة؟ لقد نفي نابليون الى جزيرة القديسة هيلانة، حيث بقي حتى موته! ولم يبق له أي دور. اما فرنسا فقد عانت من نتائج واترلو، خاصة على صعيد ارضها. مع ذلك استطاعت، بعد سنوات، ان تقف على قدميها، سياسيا وعسكريا.

بروكسيل تخف لانقاذ الجمهورية

ماذا بقي من واترلو؟ الذكرى؟ بعض المرارة؟ ان تستعاد احداثها بين الحين والحين؟ المهم ان حدود فرنسا الشمالية مزقت، وأقيمت قلاع وحصون عليها، حرصا على عدم تجدد قوة فرنسا، وطموحها الى غزو هولندا وبلجيكا. وقد



□ تاليران سفير فرنسا في بريطانيا.

ضمنت هذا الواقع، والحفاظ على بلجيكا، قوى الدول الحليفة الأربع.

اصبحت مملكة البلاد الواطئة الجديدة حامية القلاع، بموافقة الحلفاء الاربعة. وألحقت بها امارة لوكسانبورغ، وجناح الرين الأيسر، ومقاطعاته، وقد كانت جزءا من فرنسا، منذ الف عام، وفي ظل كل حكم.

وأقامت عائلة اورانج نصب اسد واترلو تخليدا للانتصار على نابليون، وتوحيد الامارات البلجيكية مع هولندا، فكان رمزا لانكسار فرنسا.

في هذا الوقت، وعلى مدى خمس سنوات، كانت جيوش الحلف الرباعي تحتل فرنسا. وقد اقامت لها مؤتمرا دائما في باريس، يمثلها فيه سفراؤها، الذين كانوا يعملون جاهدين على اعادة الملكية الى فرنسا ودعمها.

بعد ثلاث سنوات قرر اعضاء الحلف الرباعي، في مؤتمر ايكس ــ لا ــ شابل، سحب قواتهم من فرنسا. مع الابقاء على الحلف خوفا من عودة القوة الفرنسية العسكرية العدائية، ودعيت السلطة الفرنسية الى ان تنضم للحلف، وهكذا اصبح خماسيا.

لقد ظن طويلا ان سبب ذلك دعم روسيا لحكومة ريشيليو. والواقع ان من الأسباب الأساسية، خلاف روسيا ــ بريطانيا. ثم ان روح استعادة الحدود الشمالية نشأت لدى

اليسار واليمين الفرنسيين على السواء. على ان تحقيق ذلك لم يحدث الا بعد ١٨٣٠، اي بعد الثورة التي فرضت الدستورية على الملكية الفرنسية. وقد ساعد الجمهوريون الفرنسيون على نيل بلجيكا استقلالها، ظنا منهم انهم يستطيعون استغلالها للقفز الى السلطة في باريس.

لندن تتراجع

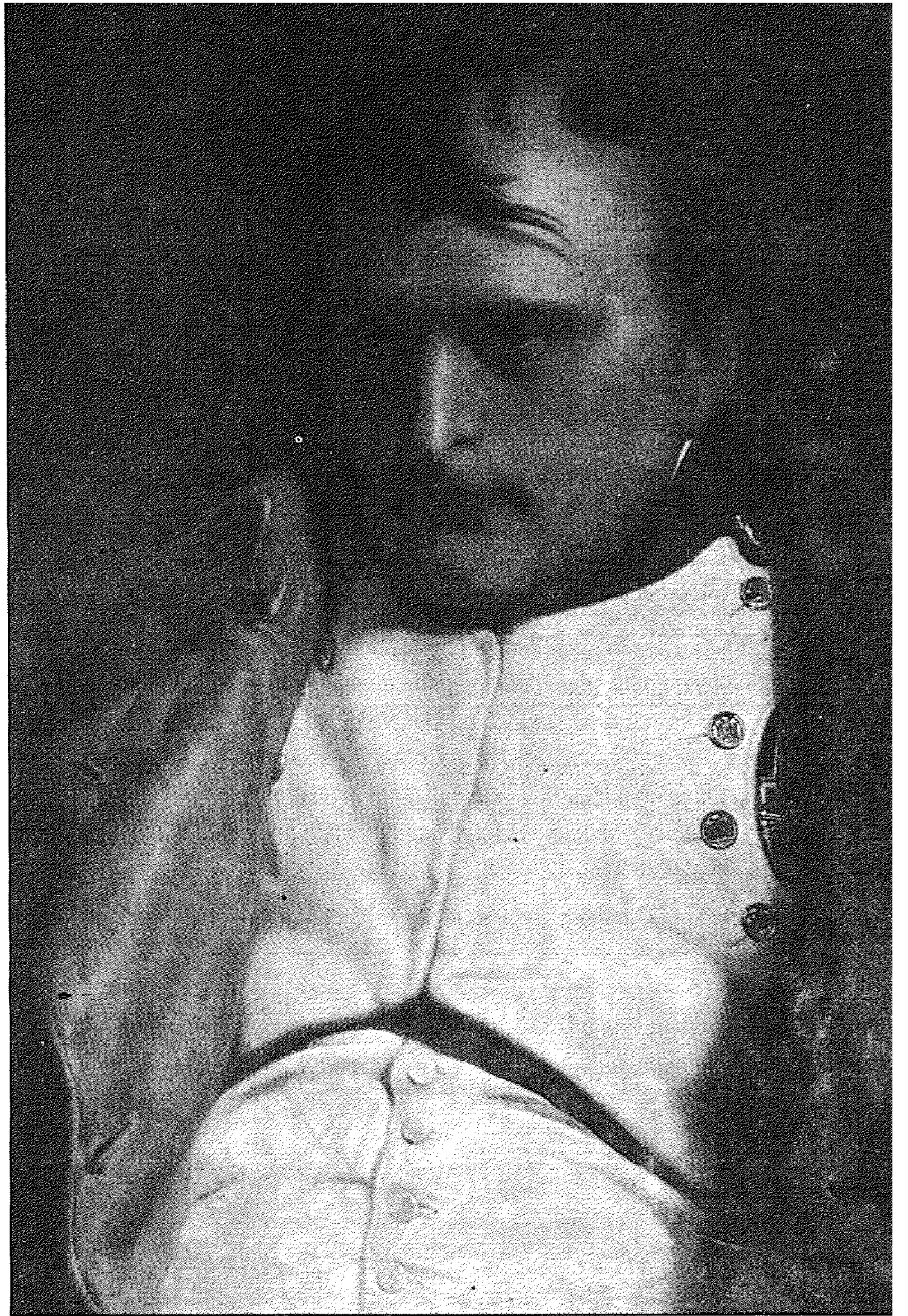
حين قامت ثورة ١٨٣٠، كانت فرنسا شارل العاشر حليفة انكلترا وروسيا في القضية اليونانية. وقد عبأ القيصر نقولا جيشه مذ علم بالأحداث في باريس. ولكن لندن وفيينا لم تريا ضرورة تدخل الحلف الرباعي في الشؤون الفرنسية الداخلية. فلقد اكد ويلنغتون ومترنيخ أن المسؤول الحقيقي عن الثورة هو الملك شارل العاشر، الذي لم يحترم القانون. وان اعادة لوي فيليب الحاكم الجديد، الدستور، طمأنتهما. ولذلك يجب ألا يتدخل الحلف الرباعي الا اذا انطلقت القوات الفرنسية خارج حدودها. وقد عقد مترنيخ مع الوزير الروسي نيسلرود اتفاقا بعدم التدخل في الشؤون الفرنسية. وهدأ ويلنغتون من روع ملك بروسيا وملك هولندا اللذين خشيا ان تجتاح الجيوش الفرنسية هولندا.

الجيوش الفرنسية خارج بلجيكا

بعد احداث ٢٥ آب في بروكسل، وحتى تشرين الأول ١٨٣٠، لم يكف ملك هولندا عن اثارة القوى الأوروبية ضد المحرضين

□ فرنسا تثار من واترلو باحتلال حصن انفير وطرد الهولنديين منه.





□ نابليون.

الفرنسيين، فقد رأى في تحريضهم تدخلا في شؤون بلجيكا الداخلية.

ورأى الملك غليوم دعوة الحلف الرباعي، دون فرنسا، للنظر في ما يجب اتخاذه من تدابير لتحييد بلجيكا. ولكن فرنسا كانت تريد ان تقول كلمتها في تغيير الاتفاقيات التي فرضت عليها في فيينا عام ١٨١٥، وخاصة ما يتصل منها بنظام توحيد المقاطعات البلجيكية مع هولندا. وقد أيدت الوزارة البريطانية فرنسا، وزعمت انه يجب الا يناقش الأمر بمعزل عن فرنسا. وهكذا عقد مؤتمر لندن عام ١٨٣٠، ٤ تشرين الثاني لدراسة وضع بلجيكا.

كان هدف الحلف الرباعي الحقيقي منع الجمهوريين قلب النظام الفرنسي، ثم ضم بلجيكا الى فرنسا. وكان على بريطانيا ان تتعاون مع روسيا والنمسا وبروسيا لمنع ذلك.



□ بالمرستون وزير خارجية بريطانيا.

غير ان بريطانيا، تحالفت، خلال المؤتمر، مع فرنسا للقضاء على اثار اتفاقية ١٨١٥ الضارة بمصلحة الأخيرة. لقد اتفق تاليران، سفير فرنسا في لندن، مع وزير الخارجية البريطاني بالمرستون، الذي اقنع المؤتمر ــ ٢٠ كانون الأول ١٨٣٠ ــ بتقسيم مملكة البلاد الواطئة الى ثلاثة اقسام: هولندا، بلجيكا، امارة لوكاسمبورغ. واستمرت المفاوضات مع بلجيكا سنة كاملة لاقناعها بالتخلي عن لوكسامبورغ ولامبورغ. ولكن الأمر تطلب شهراً واحداً فحسب، لتتحالف بريطانيا مع فرنسا على تحييد بلجيكا من اجل حماية الحدود الفرنسية الشمالية. وهذا ما وضع حدا للصراع الطويل بين لندن وباريس.

تأزمت العلاقات البريطانية ـ الفرنسية قليلا حين اعطي عرش بلجيكا للدوق دو نيمور، ابن لوي فيليب. ولكن اختيار الأمير ليوبولد دو ساكس ــ كوبورغ، ارمل وريثة العرش البريطاني، والتطلع الى زواجه من احدى بنات لوي فيليب اعاد الأمل للتوازن بين لندن وباريس.

ولقد سهلت مهمة فرنسا في ضمان حياد بلجيكا اتاحة الفرصة للجيوش الفرنسية في اجتياح بلجيكا ــ آب ١٨٣١ ــ لطرد الجيوش الهولندية التي اجتاحتها اثر تعيين ليوبولد على العرش.

وقد بدا وكأن فرنسا حليفة بريطانيا الأولى. والواقع ان لندن حركت جيوشها لدعم فرنسا حين حاول حلفاؤها الآخرون التدخل. واقنعتهم بمشروعية التحرك الفرنسي. وكاد ينجم خلاف بين الحلف الرباعي. فسارع الملك ليوبولد الى حل ديبلوماسي، اذ اعلن ان الجيوش الفرنسية باقية في بلجيكا بطلب منه.

وقد تباطأت الجيوش الفرنسية في الخروج من بلجيكا، مما اقلق بريطانيا حول النوايا الفرنسية، ولكن الجيوش الفرنسية انسحبت اخيرا، فأعادت الثقة الى العلاقات الفرنسية ــ البريطانية، وجاء ذلك بعد توقيع معاهدة بين هولندا وبلجيكا ــ ١٥ تشرين الأول ١٨٣١ ــ تنص على استقلال الأخيرة.

الثأر من واترلو

لقد الغى الاتفاق البريطاني ــ الفرنسي (١٨٣١) حول بلجيكا آخر القيود المفروضة على فرنسا غداة واترلو.

وقد رفض ملك هولندا هذا الاتفاق، ودعمته روسيا والنمسا وبروسيا. ولكن بريطانيا وفرنسا، بالمقابل، وإثر زواج ليوبولد من لويز ــ ماري دورليان، اتفقتا في تشرين الأول ١٨٣٢ على مواجهة فيينا وبرلين وموسكو التي دعمت ملك هولندا في رفضه اتفاقية ١٥ تشرين الثاني ١٨٣١. وارسلتا تحذيرا لملك هولندا باخلاء حصن انفير الذي اعتبرت فرنسا وجود الهولنديين فيه مهددا لحدودها.

رضخت اكثرية الحلف الرباعي للاقلية، خوفا من حرب اوروبية، وانفجر مؤتمر لندن، وانتهى نظام الأمن الاجتماعي الذي وضع الحلفاء نصوصه عام ١٨١٥، وحل محله نظام التحالف.

طوقت الجيوش الفرنسية انفير، واحتلتها بالقوة واخرجت منها القوات الهولندية وانهت بذلك وحدة بلجيكا ولوكسامبورغ مع هولندا: وهكذا ثأر الفرنسيون من معركة واترلو. وكان قائد الحملة الماريشال سولت الذي كان رئيس اركان حرب نابليون في واترلو.

شاء الفرنسيون ازالة نصب اسد واترلو ولكن البلجيك قالوا ان هذا اثر فني ثقافي، وهو ملك الأمة، ولا يجوز تدميره. ■



مجال التوثيق والمعلومات في مكتب المتابعة

ملخص للتقرير المقدم الى اللقاء العلمي حول التوثيق والمعلومات في الادارة

□ يعترف العلم، في العصر الحديث، بقيمة التوثيق، في مجال تسهيل مهمة البحاثة والعالم، وإعداد المعلومات الضرورية لكل بحث علمي، في مختلف النشاطات والمجالات.

تقديراً منا لهذا الدور الأساسي للتوثيق، ننشر التقرير القيم الذي قدمته السيدة عائشة خليفة مطر، مسؤولة قسم الارشيف والوثائق في المنامة ــ البحرين، إلى اللقاء العلمي الذي عقد في عمان بتاريخ ١٩٨٣/٤/٢٣.

قسم التوثيق والمعلومات:



انشىء قسم التوثيق والمعلومات في مكتب المتابعة لمجلس وزراء العمل والشؤون الاجتماعية بالدول الخليجية، بناء على القرار المتخذ في اجتماعات الدورة الرابعة للمجلس والتي عقدت في الرياض خلال شهر كانون الثاني(يناير) من عام ١٩٨٢.

وأتى الاقتراح القاضي بضرورة تواجد هذا القسم ضمن الهيكل التنظيمي للمكتب انطلاقا من القناعة بأن أي عمل علمي ناجح لا بد له من ان يستند في أساه على قاعدة أساسية ومعقولة من المعلومات والبيانات والاحصائيات التي تشكل في ذاتها الأساس او الركيزة لأي عمل علمي يراد تنفيذه.

اختصاصات قسم التوثيق والمعلومات:

يختص قسم التوثيق والمعلومات بالمسائل والموضوعات المتعلقة بتوثيق البحوث والدراسات وجمع الاحصائيات وتخزين البيانات والدراسات والمعلومات المتعلقة بكافة الأنشطة الاجتماعية والعمالية في الدول الأعضاء.

ويتولى بصورة خاصة:

١ ــ جمع البيانات والاحصاءات العمالية والاجتماعية وتوثيقها.

٢ ــ متابعة اجراء وتنفيذ القرارات والتوصيات الصادرة عن دورات المجلس ذات الصلة باختصاصات القسم.

٣ ــ وضع الأنظمة ومتابعة الاجراءات المتعلقة بجمع ومعالجة وحفظ البيانات والمعلومات والاحصاءات والبحوث والدراسات ذات الصلة بالشؤون الاجتماعية والعمالية وتوثيقها.

٤ ــ توفير البيانات والمعلومات والاحصاءات اللازمة لاعداد البحوث والدراسات في المجالات الاجتماعية والعمالية وتوثيقها.

٥ ــ التعاون مع مراكز البحوث والهيئات والمنظمات الاقليمية والدولية في مجال تبادل المعلومات والبيانات والأبحاث والدراسات والوثائق.

٦ ــ اعداد ونشر وتوزيع البحوث والدراسات المتعلقة بمجالات العمل والشؤون الاجتماعية.

والأنشطة التي سينفذها المكتب في مجال التوثيق والمعلومات:

١ ــ حصر الخبرات والكفاءات العلمية العربية الخليجية.

٢ ــ توثيق دراسات وابحاث الحلقات الدراسية لرعاية المعوقين بالدول العربية الخليجية.

٣ ــ توثيق علمي لدراسات وابحاث الحلقة الدراسية لمستويات العمل العربية والدولية في ضوء تشريعات العمل المحلية.

٤ ــ توثيق علمي لدراسات وابحاث الندوة العلمية لرعاية المسنين بالدول العربية الخليجية.

٥ ــ توثيق علمي لأبحاث الندوة التقييمية لبرامج المسؤولية الوالدية في البحرين. ■

انشاء جامعة اسلامية في بنغلاديش

□ صرح مصدر رسمي بأن جامعة اسلامية سيتم انشاؤها في بنغلاديش وان ١٦ مليون دولار قد رصدت للخطة الرئيسية لهذه الجامعة.

وكانت الفكرة الأولى تقضي ببناء الجامعة في داخل البلاد الا ان الراي استقر اخيرا على انشائها في توتغي بالقرب من مركز منظمة المؤتمر الاسلامي ومركز التدريب الفني والمهني والابحاث.

ومن المتوقع ان يتم وضع اساسات الجامعة المقترحة في وقت ما بعد عيد الفطر.

وقال نائب رئيس الجامعة الاسلامية الدكتور ممتاز الدين شودري ان الجامعة الجديدة ستضم ٢٠٠٠ طالب من ضمنهم ٣٠٠ طالب اجنبي و ٤٠٠ طالبة.

وقال ان الجامعة الجديدة ستهدف الى دمج التعاليم الاسلامية مع دراسة الفنون والعلوم وستتخذ الخطوات الايجابية لدمج المبادىء والمفاهيم الاسلامية مع التعليم الحديث.

عدد جديد من مجلة الوثيقة

□ صدر مؤخرا في البحرين العدد الثالث من مجلة «الوثيقة» والتي تصدر عن مركز الوثائق التاريخية البحريني.

ويتضمن العدد الجديد مجموعة من الابحاث تغطي فترة تمتد ٣٠٠ عام كانت مجهولة في تاريخ البحرين كما يتضمن الترجمة الكاملة للتقرير الرئيسي عن قبور عالي المقببة كما يشتمل العدد الجديد على مشاهدات رحالة الماني عن الشرق منذ ٣٠٠ عام ويجيب على تساؤل معلق هو ـ هل سرق البرتغاليون الاثار التي كانت موجودة في القبور المقببة.. ويشرح كيف كانت هذه المقابر سكنا شتويا لأثرياء الزمن القديم بالاضافة الى دراسة كاملة عن المصاحف الأثرية الموجودة بالبحرين والتي تعود للقرن الأول الهجري.



أغلى رسام معاصر

□ «سلفادور دالي» اغلى رسام معاصر احتفلت اخيرا اسبانيا به احتفالا كبيرا.. فقد افتتح الملك خوان كارلوس والملكة صوفيا في متحف الفن الحديث بمدريد يضم ٤٠٠ لوحة تعبر عن تطور فن دالي او مراحله المتعددة ولكن اهم موضوع يسيطر على المعرض هو زوجته الراحلة «جالا» التي يعيش منذ وفاتها في العام الماضي في عزلة. والطريف ان المعرض يقدم اولى لوحات دالي التي رسمها سنة ١٩١٤ عندما كان عمره عشر سنوات ويقدم آخر انتاجه وهو حوالي عشرين لوحة رسمت في الثمانينات.

معهد المخطوطات العربية يبدأ في فهرسة رصيده من المصورات

□ بدأ معهد المخطوطات العربية في فهرسة رصيده من المخطوطات العربية المصورة ويتولى ثلاثة من مفهرسيه القيام بهذه المهمة وهم الأساتذة: عصام الشنطي، عبد الحفيظ منصور، عباس قنة وقد أنجزوا حتى الآن ما يزيد عن الف ومائتي بطاقة. ومن المتوقع صدور مجلد لبعض مقتنيات المعهد من المخطوطات المصورة في نهاية هذا العام.



المعاهدة الانكلو - مصرية

وولادة دولة السودان (١٩ كانون الثاني ١٨٩٩)

قسم «التوثيق والأبحاث»

كانت كلمة السودان تطلق في الماضي على المنطقة الافريقية الممتدة بين الصحراء الكبرى والمناطق الاستوائية. اما اليوم فهي تعني تلك الدولة التي تمتد من مصر شمالا حتى زائير وكينيا واوغندا جنوبا ومن البحر الأحمر واثيوبيا شرقا حتى تشاد وافريقيا الوسطى غربا.

اما كيفية وتاريخ ولادة تلك الدولة فيعود الى معاهدة وقعت بين مصر التي كانت تدير السودان وبريطانيا التي كانت تستعمر مصر.

عقدت المعاهدة الانكلو - مصرية في القاهرة في ١٩ كانون الثاني ١٨٩٩ ووقعها عن الجانب البريطاني السير كرومر القنصل البريطاني العام في القاهرة وعن الجانب المصري وزير الخارجية بطرس غالي.

بنود تلك المعاهدة

أولا: تطلق كلمة «السودان» على كل الأراضي الواقعة جنوبي خط عرض ٢٢ و٤.

١ - التي لم يدخلها قط الجنود المصريون منذ عام ١٨٨٢.

٢ - التي كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة وفقدت (بضم الفاء وكسر القاف) منها وقتيا ثم افتتحتها الان مصر وبريطانيا.

٣ - التي قد تفتحها مصر وبريطانيا في المستقبل.

ثانيا: يرفع العلمان المصري والبريطاني معا على كل اراضي ومياه السودان ما عدا مدينة سواكن حيث يرفع العلم المصري فقط.

ثالثا: يعين الخديوي للسودان حاكما عاما بريطانيا لا يفصل من وظيفته الا برضى من الحكومة البريطانية ويكون له حق اصدار جميع الأوامر التي لها قوة القانون ولا يسري في السودان شيء مطلقا من القوانين المصرية كما لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة الى السودان فيما عدا مدينة سواكن.

رابعا: تسن وتبدل او تلغى القوانين والأنظمة لحكومة السودان لتنظيم انتقال الملكية بواسطة بيان أو تصريح من الحاكم العام ليبلغ فوراً الى ممثل حكومة المملكة البريطانية والقنصل العام في القاهرة ورئيس وزراء الخديوي.

خامسا: لا تطبق ولا تسن قوانين ومراسيم مصرية على السودان.

سادسا: حرية المتاجرة أو السكن بالسودان او تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا اية دولة.

سابعا: تعفى البضاعة المستوردة من الأراضي المصرية من الرسوم كما تفرض رسوم على كل البضاعة المستوردة من خارج مصر. في حال دخول البضاعة الى السودان عبر مرافىء البحر الأحمر يفرض عليها رسوم لا تزيد عن تلك التي تفرض على البضاعة التي تدخل مصر.

كما تفرض الرسوم على البضاعة التي تصدر من السودان بقيم تعطى بواسطة بيان رسمي.

ثامنا: عدم امتداد سلطة المحاكم المختلطة على اي جهة من جهات السودان ما عدا مدينة سواكن.

تاسعا: ابقاء الأحكام العرفية سارية في السودان الى ان تصدر اوامر اخرى.

عاشرا: لا يفوض أو يقيم اي قنصل في السودان من دون موافقة الحكومة البريطانية.

حادي عشر: يحرم استيراد وتصدير الرقيق من والى السودان ويثبت ذلك القرار ببيان رسمي.

اثني عشر: تأخذ كل من بريطانيا ومصر بعين الاعتبار قانون بروكسل المؤرخ في ٢ تموز ١٨٩٠ بالنسبة لاستيراد وبيع وانتاج الأسلحة النارية وذخائرها والمشروبات المقطرة أو الروحية.

لن نعلق على تلك المعاهدة لان مصطفى كامل زعيم الحركة الوطنية المصرية انذاك قد اوفى بتلك المهمة خير وفاء حين قال: «ان اكبر ايام الشقاء في تاريخ مصر واسوأ تذكار يهيج في نفوس المصريين الأحرار الالام والأشجان هو يوم ١٩ يناير، يوم تذكار اتفاقية السودان» ■

المراجع

— العدوي، ابراهيم: **يقظة السودان**. القاهرة: المكتبة الانجلومصرية.

— MacMichael, H., *The Sudan*. London: Ernest Benn, 1954.



المتنبّي

للأستاذ إنعام الجندي

قسم التوثيق والأبحاث



لم يعالج كتاب، من قبل، فكر المتنبي الثوري، ولا عني مؤلف بالكشف عن حقيقة دعوة أبي الطيب إلى الثورة، وحركته، مطالع شبابه، وسلوكه الثوري خلال حياته كلها.

كان معظم من كتبوا حول أبي الطيب يشيرون إلى طموحه وتعاليه، ويسعى بعضهم إلى النيل منه، لأنه طموح، وكأن الطموح مقصور على ذوي النسب أو المال أو الجاه.

وراح المؤلفون، عبر العصور، يتناقلون تلك الآراء، وكأنها الحقيقة المطلقة. ولم يحاول المؤلفون في العصر الحديث مجرد تقصي تلك «الحقيقة المطلقة» بل أخذوا بها جاهزة!

وإذا شاء بعضهم أن «يجدّد» قال إن المتنبي كان عربي النزعة بدليل ذكر السيوف والخيول العربية، وبدليل قوله كذا وكذا...

ظل الأمر كذلك حتى طلع على القارىء العربي، في السنوات الأخيرة، «من يكتشف للمتنبي أباً» ذا نسب عريق. فقد زعم بعضهم أن والد المتنبي ابن الإمام الثاني عشر «المهدي». وكأنما شاء هذا «البعض» أن يبرر ثورية المتنبي.

كتاب «المتنبي والثورة» يدين كل هذه الطروح، ويؤكد على فكر المتنبي وسلوكه الثوريين، من خلال شعر الرجل. ففيه سجل كامل لشخصيته، ومواقفه، ونظرته إلى الأوضاع في عصره، والأشخاص، والتاريخ، والمستقبل، والمصير، الخ...

والكتاب يؤكد على أن الشاعر الثائر لم يواجه أمراً، ولم يطرح فكرة، ولم يتخذ موقفاً، إلا من منطلق واحد: وهو كونه عربياً، فلم يعنه نسب إلا انتسابه العربي، ولذلك يتحدى الكتاب كل من يستطيع أن يثبت، من خلال شعر الشاعر، غير ذلك. ولهذا يشدد على أن معظم من كتبوا عن المتنبي لم يقرؤوا شعره قراءة جادة، أو قرؤوه مغرضين.

ويؤكد الكتاب كذلك، على أن المتنبي وحده، من جسد خصائص الانسان العربي، عبر نماذجه وأبرزهم سيف الدولة وشخص الشاعر. وهنا تكمن صفة الشاعر العربية فكرياً ومبدئياً.

والكتاب أول محاولة في هذا المجال، وعسى أن يكون فاتحة دراسات في هذا الشأن.



كتب وردتنا

□ **دليل الحيران وانيس السهران**
في اخبار مدينة وهران.
اصدارات المكتبة الوطنية ــ الجزائر،
١٩٧٩ ــ ١٣٩٩ ....تأليف: محمد بن يوسف الزّياني.
تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي

□ **كتاب سير الائمة واخبارهم.**
اصدارات المكتبة الوطنية ــ الجزائر،
١٩٧٩م ــ ١٣٩٩هـ..تأليف: لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر
تحقيق وتعليق: اسماعيل العربي

□ **بغية الرّواد**
في ذكر الملوك من بني عبد الواد.
اصدارات ج ١، المكتبة الوطنية ــ الجزائر،
١٩٨٠ ــ ١٤٠٠ ....تأليف: أبي زكرياء يحيى بن خلدون
تقديم وتحقيق وتعليق:
الدكتور عبد الحميد حاجيات
استاذ التاريخ بجامعة الجزائر

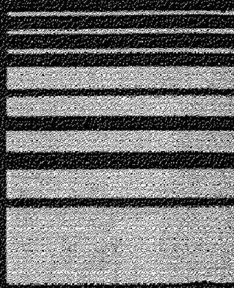
□ **سكان ايران.**
دراسة في التغيير الديموجرافي
مايو ــ أيار ١٩٧٩/ جمادي الآخرة ١٣٩٩ ....بقلم: ب. د. كلارك
أستاذ السكان بجامعة ابردين
ترجمة: الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبي
أستاذ الجغرافيا بجامعة الكويت

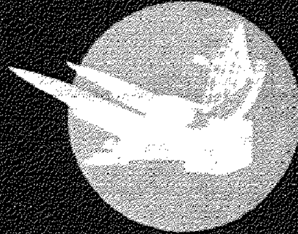
□ **القبائل والسياسة.**
في شرقي شبه الجزيرة العربية
يونيو ــ حزيران ١٩٧٩/ رجب ١٣٩٩ ....تأليف: ج. أ. بترسون
ترجمة: حسين علي اللبودي
مراجعة: د. محمود أبو العلا

□ **البعثة العلمية.**
إلى شبه جزيرة مسندم (شمال عُمان)
مارس ــ آذار ١٩٨٠م/ ربيع الثاني ١٤٠٠هـ.....بقلم: ن. ل. فالكون
ترجمة: أ. د. محمود طه أبو العلا

□ **مدن الشرق الاوسط.**
دراسة في التغير البنيوي
مايو ــ أيار ١٩٨٠/ جمادي الآخرة ١٤٠٠هـ.....بقلم: عبد العزيز آل الشيخ
ترجمة: د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي

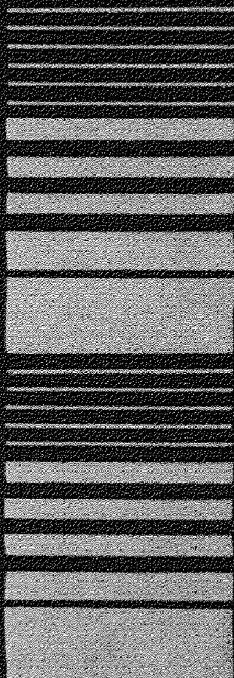
العددان ٦ ـ ٧
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣
ايار (مايو) ١٩٨٣

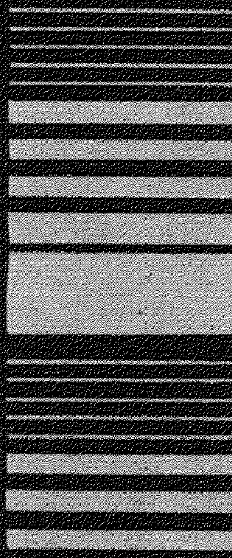


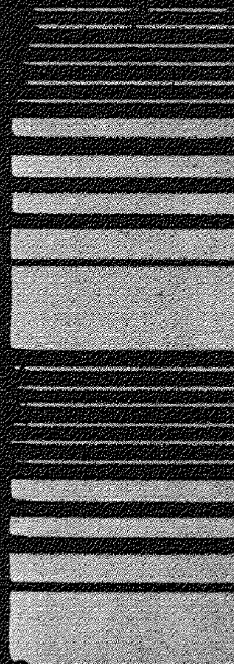


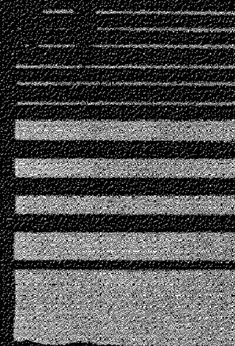
مجلة الإنماء العربي

الفكر الاستراتيجي العربي









مَوطنها لبنان

أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة جُذورها راسخة في الشرق الأوسط وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا

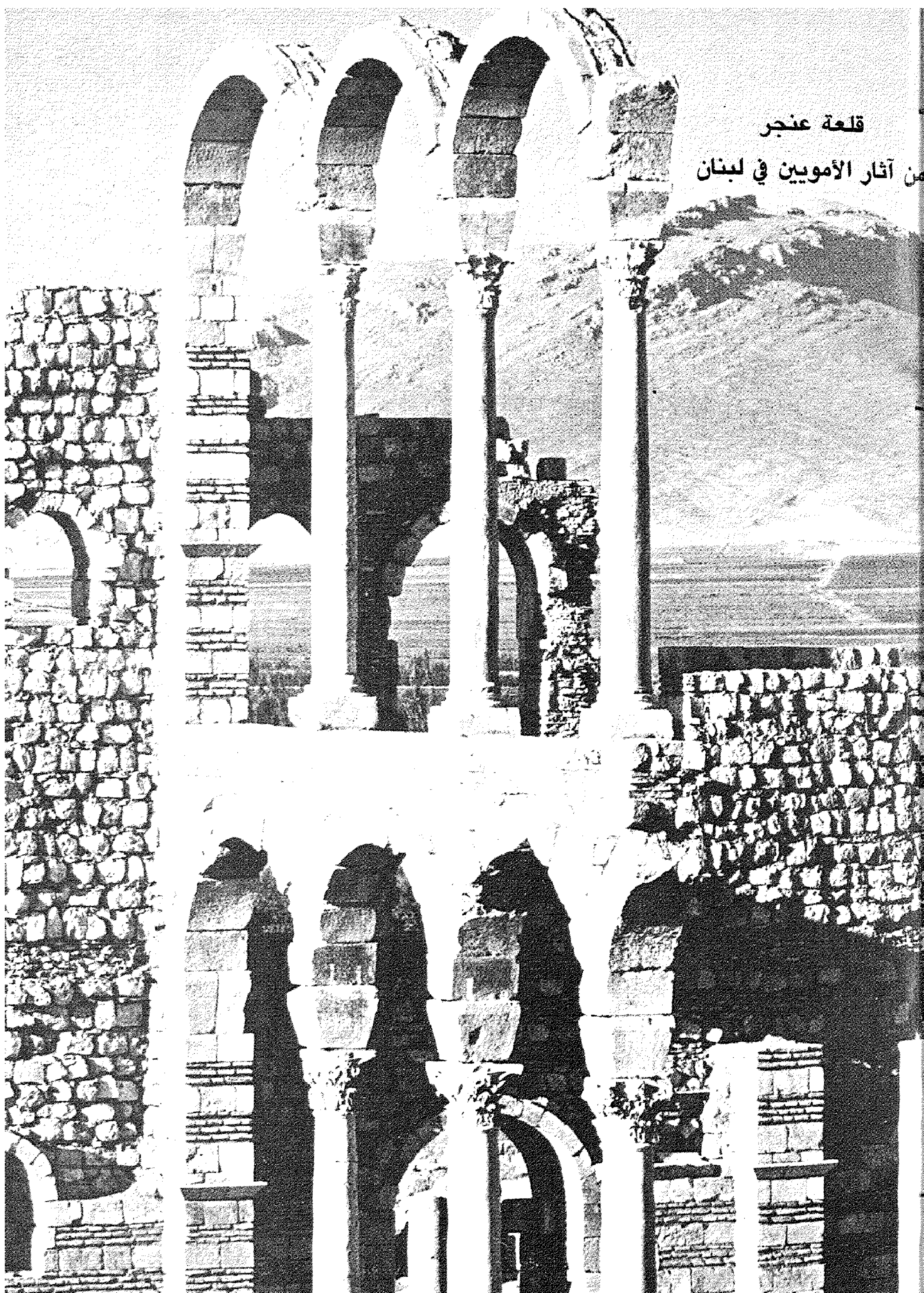


نيويورك

باريس
لندن
فرانكفورت
كوبنهاغن
جنيف
بروكسل
زوريخ
مدريد
نيس
تونس
ميلانو
مونروفيا
روما
ابيدجان
اثينا
لاغوس
اسطنبول
كانو

بيروت

مسقط
رأس الخيمة
القاهرة
لرنكا
أبوظبي
انقرة
دبي
عمان
الدوحة
بغداد
البحرين
جدة
الخرطوم
الظهران
عدن
الكويت



قلعة عنجر

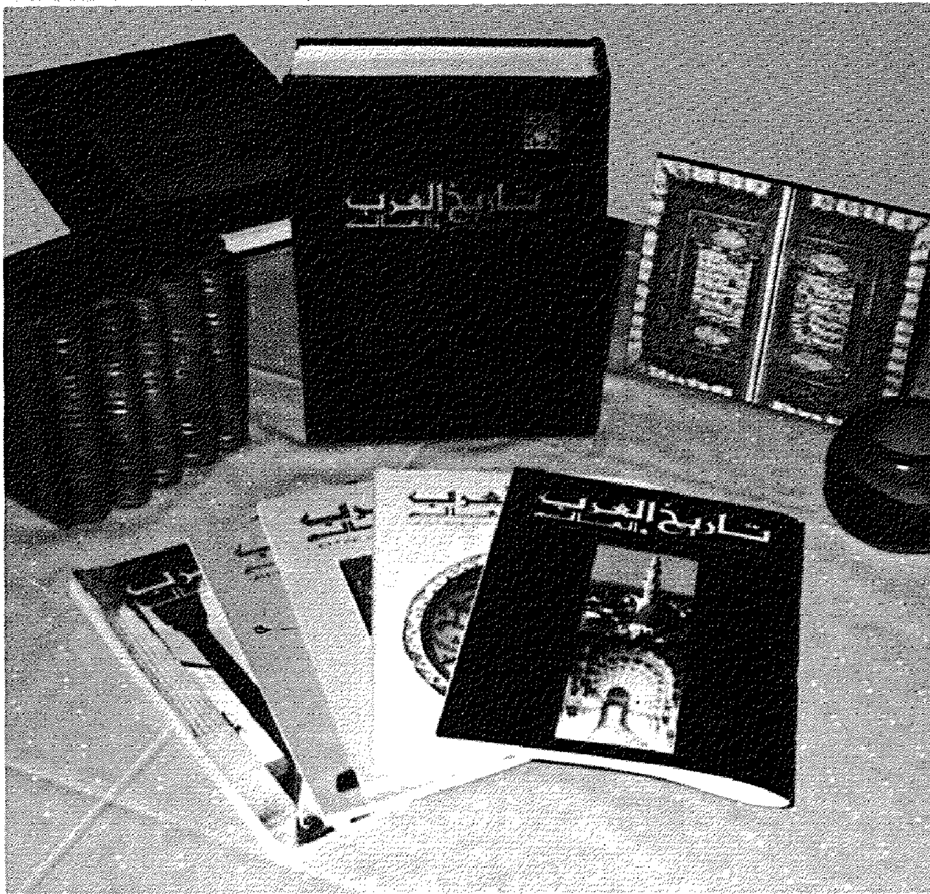
من آثار الأمويين في لبنان

احتفظ بمجلّدات السّنوات الأربع من مجلة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

سبعة مجلّدات فخمة + اشتراك مجّاني لعام كامل



١٣٠٠ ل.ل. أو ما يُعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلّدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:
شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ______________________

العنوان: ______________________

المدينة: ______________________

الامضاء: ______________________

أرفق القيمة : ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية